كريسماس

أحمد خيري العمري

رواية



كريسماس



الكتـــــاب : كريسماس

المـــــؤلــــف :أحمد خيري العمري

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: أغسطس 2019

رقـــم الإيـــداع : 2019/14864

978-977-992-058-0 : I.S.B.N



٤ ١٠ ٢٠١٩

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

كريسماس

أحمد خيري العمري



كل الشخصيات المعاصرة في هذه الرواية من وحي الخيال ولا شيء يربطها بأشخاص أو عوائل على أرض الواقع. أي تشابه محتمل في الأسماء محض صدفة غير مقصودة.

رغم ذلك، فكل الأحداث هي ما حدث لأشخاص كثيرين ويمكن أن يحدث باستمرار.

إهداء..

إلى كل «الميّادات» اللاتي لولا وجودهن في هذا العالم،

لكان أسوأ بكثير..

مريم 1

أمي لم تتذمر حتى الآن.

أكاد أسألها: هل أنتِ بخير؟

منذ أن بدأت الإجازة وعدت من سكني الجامعي في شيفيلد وهي لم تتذمر حتى الآن من «عدم أكلي كما البشر» أو من «فوضى غرفتي» أو من «تأخري في الاستيقاظ».

لم تتذمر حتى من قضائي الوقت على الهاتف والسماعتان في أذني.

غالباً يعني ذلك أن ثمة «شيء ما» تحاول أمي أن تخفيه.

أعرف أمي جيداً عندما تحاول إخفاء شيء عني، وأعرفها أيضاً عندما تحاول أن تنكر ذلك فتؤكده لي أكثر. لا تجيد الكذب أبداً، في كل مرة تكذب تبلع ريقها وتعدل من شعرها كما لو أنها ترسل للجميع إشارة: لا تصدقوني.

مكالمات بصوت خافت بعد أن تبتعد، تنبيهات على رسائل لا تفتحها إلا بعد أن تأخذ الهاتف معها بعيداً، وأهم من كل هذا: التنبيهات التي أقرؤها بوضوح على وجهها. تنبيهات أجيد قراءتها ربما قبل أن أعرف الأبجدية. أعرف عندما تكون غاضبة ويجب الابتعاد عنها، أو عندما تكون غاضبة ولكن يمكن ملاطفتها، وعندما تريد أن تقول شيئاً بخصوص العمل أو زوجة خالي أو عندما تكون قلقة من شيء، نادراً ما تكون هناك تنبيهات إيجابية عن فرح أو طمأنينة. أمي تقلق حتى مع «الأخبار الجيدة».. تخاف أن تكون غير مؤكدة أو أن يحدث شيء في آخر لحظة.

سألتها: ما الأمر؟.. منذ أن عدت من شيفيلد قبل يومين ومن الواضح أن هناك شيئاً ما.

بلعت ريقها وعدلت من شعرها، كما تفعل في كل مرة تكذب فيها وقالت: «لا شيء يا مريم، فقط استعدادات السفر لا أكثر»، وتجنبت النظر بعيني مباشرة.

الأمر مؤكد إذن.

سألتها: هل هو عريس؟

هذه المرة لم تبلع ريقها ولم تعدل من شعرها، بل هزت رأسها فوراً وقالت: بالتأكيد لا.

رد فعلها هذا كان يؤكد أن هناك شيئاً ما، لكن ليس «العريس».

ثم أكملت مع ابتسامة: ليس قبل تخرجك على الأقل.

قمت من مقعدي وأنا أقول لها: كنت أقصد «عريساً» لكِ، بالتأكيد لن أتزوج أنا بهذه الطريقة.

هزت رأسها بسخرية وهي تقول «بس بس» لكن التنبيه على وجهها كان يشير إلى أنها تحب الإشارة إلى هذا، حتى لو كان الأمر مستبعداً من احتمالاتها.

لو أن انشغالها هذا كان قبل أشهر، لفكرت أنه ربما يتعلق بتسديد قسطي الدراسي، لكنها سددته في موعده، وسددت معه قسط السكن الداخلي. لن تقلق بهذا الشأن حتى الخريف القادم.

أعتقد أنها قالت لي أن أبقى بجانبها، لكني كنت وضعت السماعات في أذني، فلم أسمعها تماماً، أخذت كوب النسكافيه معي إلى غرفتي، لو كانت تريد مني شيئاً مهماً، فسترسل لي رسالة عبر الواتس آب.

* * *

الأحد صباحاً جاءها تنبيه على هاتفها. فتحت الهاتف وبدا فوراً على وجهها أن التنبيه حمل خبراً مريحاً. دخلت إلى غرفتها وغيرت ثيابها بسرعة وقالت إنها ستذهب إلى السوق، وسألتني إن كنت بحاجة إلى شيء. طلبت منها سموثيز فراولة من زومو جوسي بار إن كان في طريقها، جلبت لي معه الكب كيكس الفيغان[1] التي أفضلها من سونغبيرد بيكري، كنت منشغلة تماماً في إعداد بعض التصاميم التي أعمل عليها في مشروعي الذي عليَّ أن أقدمه في بداية الفصل القادم، لذا لم أسألها عن سبب انفراج الأسارير. قلت في نفسي: ستقول هي دون استجواب.

حوالي الرابعة عصراً أرسلت على الواتس وقالت لي إن الغداء جاهز، لم تنتظر أكثر من دقيقة حتى جاءت وفتحت الباب، دخلت معها روائح من المطبخ. من الواضح أنها بذلت جهداً في إعداد المائدة.

نظرة واحدة إلى المائدة أكدت لي أن الأمر ربما يكون أكبر مما توقعت. دولمة[2] و«بتيتة جاب»[3].

قالت محذرة: إياك أن تخبري جدتك.. كل شيء فيغان، لن ترحمني.. دولمة وكبة بلا لحم؟.. ستنشرني على حبل الغسيل في كل مجموعات الواتس التي تتصدرها.

جدتي ستعرف ذلك دون أن أقول لها، فهي تتابع حسابي على الإنستغرام، وأمي تعرف ذلك ومع ذلك تخاطر.. هذا تنازل مهم من أمي، لا بد أنها ستطلب شيئاً مهما بالمقابل، فكرت بينما آخذ صورة للمائدة وأحملها عبر الإنستغرام. كتبت تعليقاً على الصورة: الفيغان يغزو المطبخ العراقي.

---

(١) الفيغان: النباتي، والكلمة أصبحت تستخدم للإشارة إلى فلسفة وأسلوب حياة يتجنب تماماً استخدام كافة المنتجات الحيوانية وليس فقط لحومها.

(٢) الدولمة: محاشي الخضار (ورق العنب والبصل والطماطم) بالرز واللحم المفروم، والكلمة تعني الامتلاء والتحشية بالتركية.

(٣) بتيتة جاب أو كبة البطاطا.

«من أين وجدت وصفة البتيتة جاب فيغان؟» سألت أمي وأنا أتذوق قطعة منها.

«على اليوتيوب طبعاً. وجدت تجمع العراقيين الفيغان.. الله ينطيهم الصحة والعافية ولديهم وصفات نباتية لكل شيء. بس ناقص القوزي[1] يصير فيغان».

قوزي فيغان؟ أستبعد ذلك. هذه مغالطة منطقية. لكن هذه رحلة طويلة قامت بها أمي منذ أن «تحولت» قبل ثلاث سنوات إلى اليوم. في البداية واجهت كل أنواع الضغوطات العاطفية وغير العاطفية لكي أعود إلى تناول المنتجات الحيوانية. واليوم أمي تتابع حسابات الإنستغرام الفيغان وقنوات اليوتيوب الخاصة بوصفاتها. لن أستبعد أن تتحول هي أيضاً عن قريب.

لم أتحمل تأجيل الأمر أكثر. أخشى أنها تخفي عني خبراً سيئاً يتعلق بإلغاء سفرتنا الموعودة. حتى تحولها شخصياً إلى «فيغان» لن يكفي لمواساتي في هذه الحالة.

سألتها: ما السر الذي تحاولين إخفاءه عني؟

تظاهرت هي بعدم الفهم: سر؟ أي سر؟

قلت بصوت متوسل: أرجوك أرجوك أرجوك لا تقولي لي إن «أخوك» ألغى الأمر فجأة، وبالتالي ستلغى السفرة كلها لأننا نحتاج إلى «مُحرّم» لكي نسافر حسب تعليمات «دينكم» الذكوري؟

شددت على «أخوكِ» و «دينكم» كما لو أني أقول لها إن المشكلة مشكلتها، لو كان الأمر مع الزملاء في الجامعة لتحدثت عن الأمر بصفته «ديننا»، وسأقول إنه كان ديناً منصفاً للنساء.

قالت أمي وقد قطبت جبينها :«خالك» لم يلغ الأمر، فحاولي أن تكوني ممتنة له، وتحدثي أيضاً باحترام أكبر عن «ديننا».

شددت هي أيضاً على «خالك» و«ديننا» لترد على ما أقول.

(١) القوزي: من أهم أطباق الدعوات في العراق، وهو يتشكل من الرز مع لحم الغنم والتوابل والمكسرات.

ثم انفجرت ضاحكة: ثم إن اسمه «مَحْرَم» وليس «مُحرّم».

قلت: أياً كان.. لا فرق.. ما هو الأمر إذن؟

قالت بسرعة: هناك سر بالفعل.. لكن خيالك أخذك بعيداً كالعادة.. «خصم الكلام»[1] ودون المزيد من الإطالة، ولا أريد دراما في الأمر يا مريم.. سنلتقي بجدك وعمك سعد في العمرة، حصلا على التأشيرة اليوم وأخبرني عمك أنه حجز بحيث يكونان هناك قبلنا.

جدي وعمي؟!

بحق يسوع يا أمي، هل أنتِ جادة؟ الأمر أسوأ من عريس، بل أسوأ من عريسين، واحد لي وآخر لك».

قالت: حقاً؟ هل أطلب من عمك إلغاء الأمر وأبحث عن عريس لك؟

قلت لها: لا أصدق هذا الذي تقولينه.. كيف حدث هذا.. ما هي المناسبة التي ستجمعنا بهم في سفرة دراسية؟

ردت: هذه فرصة يا مريم. فرصة قد لا تتكرر أبداً. لا لكِ ولا لهما.

لمَ عليَّ أن أتحمل أشخاصاً لم أعرفهم طيلة حياتي في رحلة كهذه؟

ردت: لم تعرفيهم لظروف خارجة عن إرادة الجميع، والآن هي فرصة لكي تتعرفي عليهم.

قلت لها: ولماذا الآن؟ لماذا في هذه الرحلة؟ كيف تخططين للأمر دون إخباري على الأقل؟ كيف سأستطيع التركيز في مشروعي وأكون في حالة صفاء وتركيز ذهني وأنا في صحبة ذكوريين متسلطين وكارهين للمثليين؟

ضحكت أمي بسخرية: ذكوريين؟ كارهين للمثليين؟ هل تعتقدين أن المثليين يقومون بمظاهرات في بغداد للمطالبة بحقوقهم وأن الناس هناك تصنف إلى (مع أو ضد) المثليين؟ هذا كلام فارغ لا يصدقه إلا من لم يعش يوماً واحداً في بلداننا ولا يعرفها إلا من خلال عالمكم الافتراضي المزيف.

---

(١) خصم الكلام: خلاصته ، الكلام من الآخر.

قلت بصوت مرتفع: وربما يرغبان في إجباري على وضع غطاء الرأس، أو تزويجي من قريب لهما! لماذا عليَّ أصلاً أن أفكر بهذا؟

ضحكت ساخرة: يجبرانك على وضع غطاء الرأس؟ حقاً؟ ألا ترين أني بلا غطاء؟! ألم تري صوري في بغداد؟

رددت: حتى لو كان ذلك. المجتمع كله ذكوري بقيمه وعاداته!

قالت أمي ساخرة: احمدي ربك أنه ذكوري، ولهذا كان القتل أكثر في الذكور، لو كان المجتمع يساوي بين الذكور والإناث، لكنتُ قتلتُ أنا أيضاً، وربما أنتِ.. ذكوري ذكوري.

لم أكن مستعدة لمناقشة فضائل المجتمع الذكوري الذي لا أعرف عنه شيئاً. عدت إلى موضوعي الأصلي: أنا أعد لهذه السفرة منذ زمن لأني أحتاجها في مشروع تخرجي.. تعرفين جيداً أني أحتاج إلى كل لحظة في هذه الرحلة.. أحتاج أيضاً إلى مساحتي الخاصة التي لا يدخلها أحد خلال ذلك.. كيف تسمحين بإفساد هذا كله وتحويل الرحلة إلى «لم شمل» لعائلة لا أعرف عنها شيئاً؟

قالت أمي باستفزاز: أنت تعدين لهذه السفرة لوحدك؟ من تكفل بكل شيء؟ من توسل بخالك لكي يوافق على التضحية بإجازته لكي يأتي معنا؟

قلت باستفزاز أكبر: هل تمنين عليَّ الآن بتكاليف الرحلة؟ اعتبريها ديناً عليَّ.. سأرده فور تخرجي!

ردت بحدة: هل المسألة برد الديون؟ لو حسبناها هكذا يا مريم سيكون لديك الكثير من الديون.. غالباً ستقضين حياتك وأنت تحاولين تسديدها.

ثم استعملت ورقتها الأخيرة: الأمر عندك، يمكنني أن أتصل بعمك الآن وأعتذر منه، ولكن تذكري: هذه قد تكون فرصة جدك الأخيرة لكي يراك قبل أن يموت.. وفرصتك الأخيرة أيضاً.. رجل كبير في السن وعاجز.. ويحتاج أن يراك قبل الموت.

وخرجت وهي تتمتم بمثل بغدادي تقوله ﭭ أقصى حالات إحباطها مني ولم أستطع استساغته يوماً رغم أنها شرحته لي أكثر من مرة: ما تبولون على إيد مجروح[1].

دوماً أمي هكذا، تحاول أن تبدأ كمارغريت تاتشر، وعندما تسوء الأمور وتجد نفسها أقرب إلى تيريزا ماي، تخرج من الأمر عبر دور الأم تيريزا.

رغم معرفتي بكل ذلك، إلا أني كنت أضعف أمام أدوار الاستحالة هذه. نصل إلى دور الأم تيريزا وأستسلم.

* * *

الآن، ودون سابق إنذار، صار عليَّ أن ألتقي بجدي وعمي اللذين لا أذكرهما، وأن أتحمل مجاملات لا طعم لها، وربما قبلات وأحضان على الطريقة العراقية، وسيقولان لي بالتأكيد إنهما لا يصدقان كم كبرت، وربما بعض الدموع مع قولهما إني «نسخة من أبي»، وكل ذلك خلال رحلة كنت قد خططت لتكون جزءاً من مشروع تخرجي الذي أفكر فيه منذ أن دخلت الجامعة.

كيف حدث هذا؟ كيف عرفا أننا على وشك القيام برحلة العمرة؟ هل يعقل أن أمي أخبرتهما؟ منذ متى وهي تتواصل معهما أصلاً؟ كل هذه السنوات مرت دون أي تواصل من أي نوع. لا مكالمة ولا رسالة نصية ولا أي شيء. ليس معي على الأقل. لم تكن هناك مكالمة او اتصال ﭭ عيد ميلاد أو رأس سنة أو أي شيء.. هل كانت تتواصل معهما دون أن تخبرني؟ سنوات مرت دون أي ذكر لهما، بل إني نسيت وجودهما تقريباً. سألتها أكثر من مرة بشكلٍ عابر عن «أهل أبي» عندما تقودنا الحوارات إلى ذلك، فكانت تقول شيئاً عاماً جداً، دون إشارة سلبية أو إيجابية، وبالتأكيد دون تشجيع على المُضي ﭭ الأسئلة.

---

(١) مثل يقال لمن يبخل في مساعدة أي شخص ولو بالقليل، وأصل الأمر أن الحضارات القديمة كانت تستخدم البول لتعقيم الجروح.

لا أذكر الكثير عنهما. لا أذكر الكثير عن كل بغداد أصلاً. لم أكن صغيرة لدرجة أن لا أذكر شيئاً عنها عندما تركناها. كان عمري سبع سنوات، وأعرف أن هناك من يذكر تفاصيل في عمر الثالثة أو الرابعة.. غالباً ما حدث لنا هناك مسح أجزاء كبيرة من ذاكرتي. الطفلة التي كنتها نسيت كل شيء كي لا تتألم في اجترار ما حدث. نشكر الله على نعمة اللا وعي التي توفر علينا الكثير من الألم.

حتى أبي لا أذكره بالتفصيل، أذكره بشكل غائم، وربما لا أذكره فعلاً، لكن الصور وحديث أمي المستمر عنه شكّل صورة له في ذهني. لست متأكدة. لكن جدي وعمي، أو أي أحد آخر من عائلة أبي، واضح أنهم سقطوا سهواً من ذاكرتي، أو أسقطتهم أمي عمداً عندما حرصت على تجاهلهم.

هناك صورة واحدة فقط، باهتة، وألوانها على وشك المغادرة، تضم الجميع، تجمع عائلي في العيد على ما أعتقد، وكنت لا أزال رضيعة، رأيتها مرة في أغراض أمي، كل الرجال لديهم شوارب، وكل النساء يضعن حمرة فاقعة اللون، بهتت كل ألوان الصورة عدا هذا الأحمر على الشفاه. بدا لي الأمر تقليداً عراقياً، الرجال بشوارب، والنسوة بأحمر شفاه فاقع اللون. بكل الأحوال، لم أكن أذكر أي أحد ممن في الصورة، بشوارب أو بأحمر فاقع. لا شيء.

كل ما أذكره بوضوح من بغداد هو بيت كبير شاهق أمامه حديقة كبيرة فيها أرجوحة بيضاء اللون تحت نخلة كبيرة، وعلى اليسار ثمة مرآب للسيارات، أذكر الأمر وأنا في المرآب أطل على الحديقة، وأمامي سيارة بيضاء اللون.

سألت أمي مرة عن هذا البيت، فقالت باقتضاب إنه بيت جدي وأننا كنا نسكن في بيت ملحق به، وأن السيارة هي سيارة أبي.

أذكر أيضاً عندما أرسلتني أمي إلى بيت صديقة لها. كنت أحب اللعب مع بناتها وفرحت كثيراً، بقيت عدة أيام هناك حتى أني اشتقت لأمي وطلبت أن

أراها. عندما عدت كانت أمي تبكي، ولم يكن أبي هناك. أدركت أن شيئاً ما قد حدث، لذا لم أسألها عن أي شيء.

لا أذكر أي شيء بعدها، عدا كوني أنا وأمي في الطائرة. تجربة الطائرة لأول مرة لا تنسى. أمي كانت تبكي بحرقة، وهذا أيضاً لا ينسى.

طالما تصورت أن تلك الطائرة قد حطت بنا في مطار هيثرو، لكن يبدو أن ذاكرتي قد أسقطت فترة انتظار لأشهر في عمّان. لا أذكر شيئاً منها. لا شيء. أمي قالت لي ذلك لاحقاً، لكني لا أذكر ذلك.

كل ما حدث بعد هيثرو أذكره بالتفصيل. ذاكرتي تبدأ من هناك. مريم بكر آغا تبدأ من هناك. لا شيء قبل ذلك، أو على الأقل هذا ما أحاول أن أتصوره.

والآن عليَّ أن ألتقي بهذا الجزء الذي حُذِف من حياتي، وفي رحلة يفترض أنها للدراسة.

فكرت: البروفيسور آدامز سيروق له ذلك. هو الذي يقول دوماً إن العمارة تمثل العلاقات الاجتماعية موضوعة داخل قوالب للبناء. لو عرف بالأمر فسيسألني كيف أثر «لم الشمل» على تصوراتي المعمارية.

حاولت أن أبحث عن عمي في الفيس بوك، أو في لنكد إن، الكبار غالباً لديهم حسابات في الفيس بوك، نادراً ما يستخدمون الإنستغرام، جربت أن أكتب اسمه بكل ما يمكن من أحرف محتملة، بكر آغا وبكر أغا، جربت بالعربية أيضاً. لا شيء. لم أحاول البحث عن جدي، انتبهت أني لم أكن أعرف اسمه أصلاً.

بالنسبة لي، أي شيء لا وجود له على النت، أو لا أثر له أونلاين، ليس موجوداً أصلاً، ربما يكون خرافة أو وهماً.

ولكن الآن عليَّ أن أقابل هذين (العم والجد) الخرافيين.

ميادة 1

التمهيد لمريم بأمر لقاء جدها وعمها في العمرة ليس سهلاً. لكن ما هو أصعب بكثير مواجهة أمي بالأمر.. مجرد ذهابنا إلى العمرة من دونها يعتبر خيانة عظمى بالنسبة لها، بقيت أيام لا تكلمني ولا ترد على مكالماتي عندما أخبرتها بالأمر.. وعندما ردت عليَّ كانت ترد بطريقة رسمية، بل وتسميني مائدة، كما تفعل في كل مرة تكون في حالة غضب شديد مني. مائدة بدلا من ميادة. أبي كان يريد أن يسميني على اسم أخته المتوفاة التي كان يحبها كثيراً - والتي لم تكن أمي تحبها على ما يبدو- ولكن أمي تدخلت وأقنعته بأن الاسم لم يعد مقبولاً وأن «ميادة» قريب منه ومقبول أكثر. لذا فهي عندما تغضب مني تناديني «مائدة» - على اسم عمتي التي تكرهها - كما لو أنها تريد تذكيري بفضلها عليَّ في أن اسمي ليس مائدة.

اضطررت إلى أن أقسم لها أني لم أخبرها بأمر العمرة منذ البداية لأني أريد أن أذهب أنا وهي إلى الحج في السنة القادمة، وأريد أن أجعل العمرة مثل رحلة استطلاع قبل الحج.

«هل تعتقدين أني «زعطوطة»[1] تصدق هذا الكلام؟ عيب عليك. لم أخرف بعد». قالت بحدة وهي تحادثني على الهاتف من مالمو في السويد.

«يا ماما أقسم لك أن الحج السنة القادمة أنسب لك، عملية تبديل المفصل لم يمض عليها أشهر وتحتاجين إلى جلسات العلاج الطبيعي حالياً، العمرة ستتعبك، ولا معنى في أن ننفق مرتين مرة للحج ومرة للعمرة.. هذه المرة أنا أذهب من أجل مريم فقط، والسنة القادمة نسجل على الحج إن شاء الله».

(١) الزعطوط: طفل صغير أو البالغ الذي يتصرف تصرفاً غير مقبول.

«خوش كلاو[1]. كل أعذارك لم تدخل مخي، أنا ما عرفت أربي وأنت ببساطة لا تريدين أن تذهبي معي، ارتاحي.. أنا أصلاً لا أريد أن أذهب معك».

وأغلقت الهاتف في وجهي. ولم ترد عليَّ لستة أيام من الاعتذارات والوعود.. ثم أخيراً أخذت ترد وبجفاء و«مائدة».

كل هذا ودون أن تعرف أن جد وعم مريم سيكونان معنا في العمرة.

لن تغفر لي أمي هذا أبداً. لا يوجد شيء في العالم يمكن أن يبرر لها وجود جد مريم وعمها في العمرة دون وجودها هي.

«الآن صاروا هم أهل مريم؟! وتذهبين معهم للعمرة! وأنا كخ. انتهيت. أصبحت بلا فائدة».

تخيلت هذا الحوار لو عرفت. وهي ستعرف بكل الأحوال آجلاً أو عاجلاً.

لا أستطيع أن أصارحها أن شخصيتها أقوى مما يحتمله لقاء التعارف هذا بين مريم وأهل أبيها، وأنه من الأفضل أن يحدث الأمر دون تأثيرات جانبية. ستناديني «مائدة» لمدة سنة على الأقل لو قلت لها ذلك.

كان الحوار البديل الذي ربما يكون الأكثر قبولاً من أمي - وإن كان على مضض- هو أني أريد أن أفاتح سعداً بتفصيلات مالية تتعلق بحصة عمر.

سأقول لها إن الوضع دقيق وحرج، ولا أريد أن أبدو كما لو كنت أستقوي بوجودها.

لعل هذا يرضيها ولو قليلاً.

* * *

مريم تعتقد أنها تعرف كل شيء. كل شيء عني وعن العالم وعما يجب أن أفعله أنا وتفعله هي. تعتقد أنها تعرف كيف يجب أن يسير العالم كله. جيلها كله على ما يبدو يعتقد ذلك. جيلها كله يعتقد أن غوغل يحتوي على كل

(١) خوش كلاو: حيلة أو خدعة متقنة.

شيء وأنه ما من مشكلة إلا ولها حل عند غوغل. كل ما يجب هو أن تضع كلمة البحث الصحيحة. أورثهم غوغل كمية مخيفة من الثقة بالنفس والتصور الزائف عن سهولة العالم خارج الإنترنت. كمية من الثقة تكفي لأن ينتحر هذا الجيل كله لاحقاً. يقلقني ذلك كثيراً، عشت ما يكفي من تجارب الحياة لأرى كيف كلما كانت الثقة بالنفس أكثر، كان الوجع لاحقاً أكبر، كلما بدت لنا الدنيا زاهية أكثر، أسفرت عن وجهها الأبشع لاحقاً.

تبدو اليوم مريم كما لو أنها تشبهني قليلاً في ثقتي بنفسي. لكن هذا مجرد تشابه ظاهري جداً. يوم كنت في سنها، وحتى عندما أصبحت أكبر بسنوات، كنت مختلفة كثيراً عن الشخص الذي أصبحته اليوم. كنت مليئة بمشاكل في علاقتي بنفسي، مشاكل لم تكن تجعلني في حالة صلح معها أو في حالة ثقة بها. اليوم أبدو كما لو كنت واثقة بنفسي ومتحدية، لكن ذلك ما كان إلا بسبب ما مررت به من كوارث جعلت مشاكلي مع نفسي تبدو مشاكل سخيفة لفتاة مترفة.

ما مررت به، بعد ما حدث لعمر، كان هو الذي أعاد صنعي من جديد. كل من عرفني قبل خروجي من بغداد، قبل مروري بما مررت به، يكون قد تعرف على ميادة أخرى تماماً أكاد لا أعرفها حتى أنا اليوم. كنت بسيطة، هشة، ساذجة، أتعامل مع العالم من خلال منظار وردي مثل أغلب فتيات مدرسة العقيدة للبنات في بغداد في تلك الفترة، كنا نعيش جميعاً على أحلام وضعتها أمهاتنا وعماتنا وخالاتنا في عقولنا، أحلام الفتاة المحاطة بطبقات الحماية الاجتماعية، كنت محمية بعدة طبقات.. الأب الميسور مادياً واسم عائلته المعروفة في بغداد.. والأم مديرة المدرسة القوية التي يحسب لها الجميع ألف حساب، والشقيقين الأكبر مني واللذين لن يتجرأ أحد أن يمس شقيقتهما الصغرى بسوء.. وصفة أحلام فتيات ثانوية العقيدة كانت بسيطة إلى حد السذاجة، الطريق إلى العريس الجيد - أي الطبيب أو المهندس - يمر عبر كلية جيدة، لذلك يجب الحصول عليها أولاً، وبعدها يجب أن يكون من

«عائلة» ويفضل أن يكون «وسيماً» و«يحبني وأحبه» وكل ذلك يتفاوت حسب البخت والقسمة والنصيب.

كانت أحلامنا بسيطة وساذجة مع خلفية أغاني رومانسية: على رمش عيونها قابلت هوى، مش هتنازل عنك أبداً..

لم نتنازل بسهولة عن أحلامنا مع فرض الحصار، لكن أضيف لها حلم آخر: السفر.. عمّان.. ماليزيا.. أو الإمارات. سنوات فقط ونعود بعد أن يكون الحصار قد رُفع. لم تكن كندا أو السويد قد أصبحتا في قائمة أحلامنا بعد، لم نكن نفكر بالهجرة ولم نكن نعرف ماذا سيحدث بعد الحصار.

لوهلة تخيلت أني أمسكت بأحلامي كلها، يخطبني عمر. طبيب. وسيم. عيونه خضر. بيته في شارع الأميرات[1]. ويحبني وأحبه. وتتحقق كل أحلام الثانوية بذلك، زيديني عشقاً زيديني يا أحلى نوبات جنوني.. عشت الحلم الوردي لسنوات مرت عليَّ كلحظات..

إلى أن استفقت على الكابوس.

ذات مرة، سمعت لحن «زيديني عشقاً» ينطلق من هاتف ما، كنت أنظف المراحيض في محطة وقود باركلين التي عملت فيها لفترة في بداية قدومي لبريطانيا، أعادني اللحن إلى سيارة عمر وسقفها المفتوح على سماء بغداد ومسجل السيارة يصدح بصوت كاظم، من بغداد إلى الصين.. ويد عمر تحتويني وأنا أحتوي العالم كله مثل سرب حمام ينطلق من يدي عمر إلى يدي.

ثم.. أنا هنا أنظف المراحيض في محطة وقود في ميدلزبره..

كيف وصلتِ إلى هنا يا ميادة آل باقر؟ سألت نفسي هذا السؤال. حقاً، كيف دارت بكِ الدنيا؟ هل كنت تتخيلين يوماً أنكِ ستسمعين نفس الأغنية وأنتِ في هذا الوضع؟

---

(١) شارع الأميرات، من أرقى مناطق بغداد، الكرخ، ضمن مدينة المنصور.

ماذا يمكن أن تقول رشا ورولا وإيناس وكل طالبات السادس ج في ثانوية العقيدة لو عرفن بذلك؟ ماذا ستقول مدرستي المفضلة، ست رفاه، وماذا ستقول مديرتي زاهدة بابان؟ أنا.. ميادة آل باقر، ابنة سعاد الدباغ، أنظف المراحيض العامة؟

ماذا عن دفعتي، دورة 95 في هندسة حاسبات بغداد، هل ستكون الشماتة أم التعاطف هي السائدة؟ هل هناك من وصل منهن إلى ما وصلت له؟ لا يبدو ذلك على أي منهن في الفيس بوك، ولكن لا يبدو عليَّ أنا أيضاً. عندما دعتني بعض صديقات زمان إلى لقاء في لندن قبل عامين، لم أستطع أن ألبي الدعوة. خفت أن يكون الزمن قد توقف بهن على نحو لا يجعلني قادرة على التواصل معهن. أو أنه سار بي بحيث إنهن لن يعرفنني. اعتذرت وأنا أسأل نفسي: هل كنت خائفة من مواجهتهن أم من مواجهة نفسي؟ أم خائفة من أن أبحث عن نفسي بينهن ولا أجدها؟

لم أبق سوى بضعة أشهر في محطة الوقود تلك، عملت بعدها في عدة مهن صغيرة أخرى، شهادة البكالوريوس التي عمرها أكثر من عشرة أعوام دون أي خبرة عمل حقيقية لم تخدمني كثيراً في أن أعمل بتخصصي الأصلي: الحاسبات. تغير هذا التخصص بضع مرات رأساً على عقب في العشر سنوات تلك.. ثم حصلت على وظيفة مستقرة في بنك، وظيفة تمكنني من دفع الفواتير الأساسية. لكن مراحيض محطة الوقود كانت المحطة الأهم في تغيري. ما كنت لأصبح اليوم بهذه الصلابة والقوة لولا تلك المحطة. تكسرت كل هشاشتي وضعفي هناك. أصبحت ميادة أخرى. أحيانا أتساءل إن كان عمر سيحبني بهذه النسخة الجديدة مني؟ لكن.. لو كان هذا السؤال واقعياً، لو كان عمر لا يزال هنا.. هل كنت سأتغير أصلاً؟

واحدة مثلي، مرت بما مررت به، لا بد أن تقلق جداً عندما ترى ابنتها وهي تبالغ في الثقة بالنفس. أعرف أنه عالم مختلف تماماً عن ذاك الذي تحطمت أنا فيه وتحطمت فيه أحلامي وأنفي، وأعرف أن أحلام مريم ليست

بسذاجة أحلامي وأحلام بنات ثانوية العقيدة في بغداد التسعينات، لكن عليَّ أن أحصن مريم أكثر، عليَّ أن أمنع تماماً أي احتمالية لكسرها.

هي تعتقد أني أقوم بعملية لم شمل عائلية لأسباب عاطفية بحتة، وهو أمر تعرف هي قبل أي أحد أنه بعيد عني تماماً. دفعت ثمناً باهظاً بسبب عاطفتي، سنوات وأنا أسدد هذا الثمن من عمري. بالتدريج أصبحت متحكمة بعواطفي بحيث تصب كلها في اتجاه واحد. مريم. لا شيء آخر سواها.

لن تعرف مريم لماذا فعلت ما فعلت الآن. لماذا أريد أن أعيد أهل أبيها من جديد إلى حياتها.

لكنها ستعرف يوماً ما، وستشكرني.

سعد 1

يقولون: بين المغرب والعشاء، يفعل الله ما يشاء.

هذه المرة، فعلها سبحانه بعد العشاء.

فعل ما لم يكن في بالي أبداً. بل ما كنت قد أيست من حصوله منذ زمن بعيد.

دق هاتفي برنة موسيقى فيلم الرسالة لموريس جار وظهر اسم المتصل «ميادة».

لأول وهلة، لم أعرف من تكون.

تطلب الأمر أن أنتبه إلى أن الرقم يحتوي على مفتاح بريطانيا كي أعرف أنها ميادة، زوجة أخي. أو أرملته.

لم تتصل بي ميادة من قبل، على الإطلاق. لم أكن أعرف رقمها أصلاً عندما كانت في العراق، لم نكن نحتاج إلى أن نتواصل بالأساس. ولم نكن على توافق منذ اللحظة الأولى. الكيمياء بيننا كانت سيئة للغاية. بعد سنوات من مغادرتها حصلت على رقمها من شقيقها واتصلت بها. لكنها كانت تفضل الرد بالرسائل النصية. آخر تواصل كان قبل عشر سنوات تقريباً.

رددت فوراً على الاتصال. خفت أن يحمل الاتصال خبراً سيئاً عن مريم. ما الذي يمكن أن يجعل ميادة تتصل بعد كل هذه السنوات غير خبر سيئ عن مريم؟

جاء صوتها محرجاً متردداً. لكن ليس جزعاً أو مرتاعاً. سلمت بهدوء وسألتني إن كان الوقت مناسباً.

كنت قد عدت للتو من صلاة العشاء، لو بكرت لدقائق لفاتتني المكالمة.

قلت لها: الوقت ممتاز، أي وقت، هل أنتم بخير؟ هل مريم بخير؟

طمأنتني بسرعة: كلنا بخير الحمد لله، مريم الآن في السنة الثانية من كلية العمارة، جامعة شيفيلد.

كنت أعرف ذلك، لكني تظاهرت بغير ذلك: ما شاء الله، ما شاء الله، أسمع أن الجامعة من أفضل الجامعات في العمارة. بالتوفيق يا رب.

سألتني: كيف هو «عمو» الآن؟

كيف هو حقاً. كيف يمكن أن أشرح لها كيف هو. لم يكن هناك أي داعٍ للشرح أصلاً.

قلت لها: وضعه مستقر. الحمد لله.

كررت معي: الحمد لله. الحمد لله.

سكتت قليلاً ثم سألتني: وكيف هي «سوسن»؟

سكتُّ أنا أيضاً ثم قلت: بخير. أعني أني أعتقد أنها بخير.

سكتت ميادة كما لو كانت تسأل عن معنى ما قلته.

أجبت: هي في السويد الآن، نحن... لقد انفصلنا منذ عشر سنوات تقريباً.

سمعتها تقول إنها آسفة جداً لسماع هذا. لم أشعر بأسفها. شعرت أنها محرجة فقط.

ساد الصمت لثوانٍ ثم قالت: «عيني» سعد، مريم وأنا سنذهب للعمرة آخر السنة، بعد انتهاء الفصل الدراسي، كنت أفكر إن كان وضع «عمو» يتحمل السفر أن نلتقي هناك، جميعنا.

سكتت للحظة ثم قالت: مريم ابنتكم أولاً وأخيراً، مهما حدث، ويهمني أن تتعرف عليكم ما دامت هناك فرصة لذلك.

بقيت ساكتاً، كان الأمر مفاجئاً جداً بعد كل هذه السنوات ودون أي تمهيد.

كانت ميادة تتوقع رداً أسرع مني. قالت: ألو؟

أظن أن التأثر كان قد ظهر على صوتي عندما رددت: نعم، نعم معك.. بالتأكيد، متى موعد سفركم؟ هل ستذهبون أولاً إلى مكة أم المدينة؟ وهل حجزتم الفنادق أم ليس بعد؟

كررت ميادة بصوت حذر: هل أنت متأكد أن «عمو» يمكنه المجيء؟ لن يتعبه ذلك؟

كنت قد نسيت الأمر في غمرة فرحي برؤية مريم. هل يمكنه ذلك؟ هل سيتحمل عناء السفر والتنقل؟

لم أكن أريد أن أوحي لها لحظة واحدة بالتراجع عن الأمر، قلت بسرعة: نعم إن شاء الله، على العكس، ربما سيفيده ذلك كثيراً، وأسمع أن الجو في هذه الفترة يكون رائعاً في السعودية، طبعاً سيكون على كرسي العجلة، لكن الأمور ستكون بخير إن شاء الله.

قالت ميادة: حسناً، هذا ممتاز، إن شاء الله تكون الرحلة صحة وعافية له. أحببت فقط أن أخبرك مبكراً كي تبدأ بإجراءات التأشيرة، لا أعرف كم يستغرق الأمر عندكم.

قلت لها: سأسأل فوراً عن الأمر، أعتقد لا توجد مشكلة في الحصول على التأشيرة، الأمور أسهل من قبل، أرجوكِ ميادة دعي الرحلة وتكاليفها تكون على حسابي، دعيني أحجز الفندق في مكة والمدينة لنا لكي نقضي أكبر وقت معاً.

«شكراً، لعل الأمر مبكر على هذه التفاصيل، ابدأ أنت في الحصول على التأشيرة ونبقى على تواصل إن شاء الله».

انتهى الاتصال على هذا. أغلقت الهاتف وسجدت على الأرض سجدة شكر.

سنوات وأنا أدعو أن أرى مريم. سنوات طويلة مرت وأنا أدعو بذلك حتى صار الدعاء لصيقاً بلساني دون وعي مني. صرت أقوله في السجود دون وعي. يئست في داخلي من تحقق ذلك. لكن لساني تعود على الدعاء بذلك، وفجأة يتحقق الدعاء، أن أرى مريم، وفي مكة؟ رباه ما أكرمك. نهضت من سجودي وأنا لا أزال غير مصدق. بدا الأمر كما لو كان حلماً. أن أرى مريم في الحرم المكي، أن تكون مريم لديها الدافع للذهاب للعمرة.. سبحان الله.. كم تبدو المظاهر خادعة، لم يبد على مريم أبداً أن لديها أي اهتمام بالدين. أتلصص على حساباتها في السوشيال ميديا منذ سنوات، أنشأت حسابات وهمية فقط لأفعل ذلك دون أن تنتبه، حسابي الشخصي الحقيقي محظور من حساباتها. غالباً ميادة هي من قامت بذلك، وحتى لو لم تفعل، ما كنت سأتلصص على مريم من حساب يحمل اسمي الحقيقي. ربما تتمكن من معرفة ذلك بطريقة ما عبر هذه البرامج التي تظهر كل يوم.

كل صور مريم كانت تحمل لي فكرة أنها قد أصبحت غربية تماماً وأن لا علاقة لها بالدين أو بعادات الشرق، صورة بروفايلها كانت ترتدي فيها تنورة قصيرة جداً، ومكشوفة الذراعين. تألمت عندما رأيت الصورة أول مرة. فكرت أن أخي لو كان موجوداً ما كان سيقبل بذلك، ثم تذكرت أقرباء وأصدقاء كثيرين لا يرون مشكلة في ذلك، ربما كان أخي سيفعل مثلهم، ربما كنت أنا سأفعل مثلهم لو عشت حياتهم.

لكن، يبدو أن بذرتها طيبة، هذه المريم، معدنها أصيل، يبدو أنها تحن للإسلام رغم كل شيء، لذلك ترغب في أن تؤدي العمرة، شيء ما في داخلها يدفعها لذلك حتماً، لا أعرف عن ميادة أي اهتمام جدي بهذا، من يدري، قد يكرمني الله ويكرمهما وتتحجبان بعد العمرة.

أوقفت نفسي هنا. لقد بالغت كثيراً في الأحلام. عليَّ أن أكتفي بأنها ترغب بالعمرة وأني سأراها. سأكون ممتناً جداً وأصوم شهراً كاملاً لو أني عرفت بمواظبتها على الصلاة.

ثم فكرت: أصوم شهرين، لو رأيت أنها تتكتف في الصلاة. ولا تسبل مثل أمها.

ذهبت لأبي واحتضنته في سريره. قلت له إننا سنرى مريم ابنة عمر قريباً إن شاء الله. ابتسم وقال: مريم؟ لكننا نراها كل يوم. كانت هنا قبل قليل.

احتضنته وقلت له: إن شاء الله.

كانت «كمالي» الخادمة الأثيوبية قد أعدت طعام العشاء لأبي. قست نسبة السكر له كما أفعل كل يوم وقلت لها أن تعطيه الطعام. قالت لي إن طعامي على المائدة لكني لم أرد عليها. خرجت إلى الحديقة، تأكدت من إغلاق الأبواب، ثم تأكدت من إغلاقها مرة ثانية، صعدت إلى السطح، رأيت حراس المبنى المجاور قد جلسوا خارج كابينتهم. صحت: «السلام عليكم». لم ينتبهوا. كنت أريد أن أقول لأي أحد عن الذي حدث الليلة، اتصلت بخالتي الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، لكنها تنام مبكراً. لم ترد. لم أعرف بمن اتصل أيضاً. انتبهت أنه لم يبق لي أحد يمكنني أن أتصل به لأخبره شيئاً شخصياً كهذا.

نزلت وقلت لكمالي، قلت لها إن مريم ابنة عمر ستذهب إلى مكة وأني وأبي سنذهب إلى مكة ونراها. لا أظنها فهمت ما قلته، لكني أشرت إلى صورة مريم فوق التلفاز، التي التقطت قبل سنة من سفرهم، كانت في الرابعة من عمرها، جميلة ومبتسمة كالقمر، ضفيرتان من الحرير على جانبي وجهها. قلت لها: مريم، مكة، أنا وبابا.

لست متأكداً أنها فهمت، لكنها رأت فرحتي ففرحت لي، ظلت تكرر: ما شاء الله ما شاء الله الحمد لله.. بابا يروح مكة. ما شاء الله.. مكة صلى الله عليه وسلم.

لم تكن تمثل. فرحت فعلاً وأشرق وجهها الأسمر بذكر كلمة «مكة».

شعرت بوخزة ضمير عندما رأيت فرحتها بمكة، أما أنا ففرحتي كانت بمريم، هل ستحسب لي هذه العمرة عندما تكون نيتي موجهة لمريم هكذا؟

لم أستطع أن أقوم بعمرة رغم رغبتي بذلك، فأين يمكن أن أترك أبي؟ ومن سيعتني به؟ الآن مريم ستأخذ أجر ذهابنا إلى هناك.

بحثت عبثاً بين أوراقي عن بطاقة أعمال لشخص يملك مكتباً للحج والعمرة، يصلي في مسجد نجاة ناجي السويدي القريب. كنت واثقاً أنه أعطاني بطاقته يوماً ما، لكن يبدو أني أضعتها. بحثت في الإنترنت عن متطلبات الحصول على التأشيرة. عليَّ أن أبدأ منذ الغد في التحضير، عليَّ أن أحجز الفندق أيضاً لمريم وأمها لكي أضعهما أمام الأمر الواقع. لا تراجع.

أول حفيد في كل عائلة هو أول «فرحة». هو «فتحة العين» الأولى. مريم لم تكن أول فرحة لنا فحسب. كانت فرحتنا الوحيدة. تزامن ذهابها مع ذهاب كل فرح، بل كل إمكانية لفرح. كل البيوت تنقطع عنها الكهرباء وتعود. إلا نحن. انقطع النور. بيتنا مظلم وكئيب حتى لو أشعلنا فيه كل الأنوار.

فجأة خطر ببالي واحد من شروط العمرة. كيف يمكن لمريم أن تحصل على تأشيرة دون محرم؟ حسبت عمر ميادة فوجدت أنها تجاوزت تواً الـ 45 عاماً وبذلك يمكنها. لكن مريم!.

خفت أن يكون الأمر قد غاب عن ميادة وأن تكون هذه الأحلام كلها ستصبح سراباً بعد قليل.

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. الحادية عشرة بتوقيت لندن. هل الوقت متأخر لإرسال رسالة نصية؟

كتبت لميادة: كيف يمكن حل مشكلة المحرم؟

أغمضت عيني متوقعاً أن الرد لن يأتي إلا في الصباح.

ثوانٍ ودق هاتفي مشيراً إلى وصول رسالة.

«أخي حيدر سيكون معنا».

حيدر 1

«مشكلة أخرى بالتأكيد.. ما قصة المشاكل معي هذه الأيام؟».

هكذا فكرت عندما طلبت ميادة أن تراني في المستشفى. فهمت أنها تريد أن تتحدث بعيداً عن أميلي، تلك هي عادتها كلما تريد شيئاً خاصاً أو كانت هناك مشكلة، رغم أن علاقتهما كانت جيدة، إلا أن ميادة كانت تحرص على وضع حدود.

قلت لها إني سأنتهي من العمليات قرابة السادسة مساء. ويمكن لها أن تحضر في الساعة السابعة، وعرضت عليها أن أمر أنا لنتحدث في أي مكان تحبه. لكنها قالت إن مكتبي في المستشفى سيكون مناسباً.

منذ أن جاءت ميادة إلى بريطانيا هي ومريم وأنا أحاول أن أقدم لها كل ما أستطيع. ربما أكثر مما أستطيع. بطريقة ما كنت أعتبر نفسي مسؤولاً عن كل الذي حدث لها. لم أقل ذلك لأحد. وبالتأكيد لم يقله أحد لي. لكن أقول لنفسي دائماً أني لو كنت عارضت زواجها من عمر كما فعل الجميع لما ترملت. ربما.

استطعت أن أستحصل لميادة على تأشيرة لدخول بريطانيا في وقت قياسي عندما خرجت من بغداد إلى عمان، كان من المتوقع أن يكون ذهابها إلى السويد مع أمي أسهل، لكن تأشيرة بريطانيا كانت أسرع. جلبتها إلى بريطانيا، سكنت معي في منزلي في ميدلزبره وساعدتها على الحصول على أكثر من عمل مؤقت ريثما استقرت في عمل مناسب.

أغلب الأقرباء يعتقدون أنه كان موقف الأخ الشهم الذي يقف لأخته في محنتها، «أخو أخته» كما يقولون. حصلت على الكثير من الثناء عن هذا. لكن

الشهامة لم تكن دافعي. ليس لهذه الدرجة على الأقل. لم يبق لي شيء من هذه البديهيات الشرقية. كان شعوري بالذنب هو الذي يحركني، لا الشهامة ولا النخوة ولا أي شيء من قيم لم يعد لها مكان في حياتي منذ زمن طويل.

عندما دخلت ميادة مكتبي عرفت أنها تضع «شخصية الأخت الصغيرة».

لدى ميادة عموماً، معي على الأقل، شخصيتان. شخصية الأخت التي تصغرني بـ 9 أعوام عندما تريد مني مساعدة، وشخصية أخرى، تتقمص فيها شخصية سعاد الدباغ بقوتها وجبروتها، تأمر وتنهي وتنصح بحزم، حتى سعاد الدباغ نفسها كانت قد كفت عن هذا الدور معي منذ وفاة ميثم، لكن ميادة مستمرة فيه، لم أكن أعير لها اهتماماً في أغلب الأحيان، لكنها كانت مستمرة في الدور بلا توقف.

هذه المرة كانت في «شخصية الأخت الصغيرة». ستطلب شيئاً وهي محرجة ومترددة منه. بدأت بإخباري عن مشروع تخرج مريم الذي عليها أن تعمل عليه منذ الآن، مريم حدثتني أكثر من مرة عنه بحماس، قلت لميادة: هو عن العمارة الإسلامية أليس كذلك؟

«نعم، تقريباً» قالت ميادة.

حتى الآن لم أفهم ما هو سر حذر ميادة وحرجها وطلبها أن يكون الحديث منفرداً. كيف يمكنني أن أساعد في مشروع تخرج عن العمارة الإسلامية وأنا طبيب استشاري في جراحة العمود الفقري؟

قالت ميادة: المشروع في حقيقته هو تقديم تصور بديل لهندسة الحرم المكي.

سكتُّ أيضاً. ربما تكون الفكرة مثيرة للاهتمام. لكن ليس بالنسبة لي. لم بكن لدي أدنى اهتمام بالأمر. رغم هذا غمغمت شيئاً عن كون الأمر «جميل». هذا أقصى ما يمكن أن يصدر عني من رد فعل. قلت شيئاً عن هذا وانتظرت أن تكمل ميادة لأفهم دوري. حقيقة يا ميادة لست في مزاج لمشروع تخرج مريم.

قالت ميادة: لا يمكن أبداً لبحث كهذا أن يحدث عن بُعد، يجب أن تذهب مريم إلى مكة بنفسها، على الأقل لكي تشاهد المكان عياناً.

هل تعتقد ميادة أني أجلس على بنك؟! فكرت بحنق، لكن قلت: «إذا كنت تريدين مساعدتك في تكاليف السفر، فهذا أمر سهل جداً ميادة، لا تفكري بالأمر».

«لا، ليس هذا، أعرف أنك لا تقصر في كل الأحوال، لكن الأمر أعقد من التكاليف».

سكتُّ وأنا أحاول أن أفكر ماذا سيكون أعقد من تأشيرة وتذكرتين وإقامة في فندق.

«يجب أن تذهب مريم في تأشيرة عمرة، التقديم على تأشيرة من نوع آخر سيستلزم معاملة تأخذ وقتاً طويلاً، لذا فتأشيرة العمرة أسهل في الحصول».

« ثم؟».

«ثم إن تأشيرة العمرة لا يمكن أن تصدر لمريم دون وجود «مَحرَم»، سأذهب أنا طبعاً لأني تجاوزت الـ 45 عاماً، لكن مريم تحتاج إلى وجود «محرم» لكي يسافر معها».

نسيت ما يتعلق بهذه الأمور تماماً. الحمد لله أني تركت هذا التخلف كله وراء ظهري. في عصر النت والفضاء لا يزالون يمنعون المرأة من السفر دون رجل معها.

فهمت ما تريده ميادة. تريد أن أذهب معهما للعمرة كمحرم.

عرفت ميادة أني فهمت، فأكملت بتردد كما لو أنها تعي أن المشكلة هي فيما يلي: السفرة يجب أن تكون في فترة إجازة مريم بعد هذا الفصل.

«الكريسماس».

قالت ميادة بحرج: نعم، الكريسماس، وأنا أعرف تماماً كم هذا الوقت مهم لك ولأميلي وللعائلة كلها، تأكد أني سأتفهم تماماً لو أنك اعتذرت

وسنحاول الحصول على تأشيرة عن طريق تبادل بين الجامعات أو شيء مشابه.. لا تضغط على نفسك يا حيدر، ولا تُحرج أبداً من الرفض، فقط أحببت أن أضعك في الصورة قبل أن نخطو في اتجاه آخر».

قاطعتها: أنا موافق.

بهتت ميادة، لم تكن تتوقع الموافقة بهذه السهولة وبهذه السرعة.

«ماذا تعني؟ موافق على فكرة مرافقتنا كمحرم، أم موافق على الذهاب معنا في فترة الكريسماس؟».

«موافق على الذهاب في الكريسماس».

«لكن، ألا يجب أن تخبر أميلي أولاً؟ الكريسماس فرصتكم في الاجتماع كعائلة، وهو يأتي مرة في السنة، ربما يكون لأميلي خطط أخرى».

«لا تقلقي من هذا الأمر. سأرتب الأمر في البيت والمستشفى. أخبريني فقط متى يجب أن نبدأ بالإجراءات؟».

هجمت ميادة عليَّ وقبلتني وهي تشكرني وتدعو الله أن يطيل عمري ويزيد من رزقي.. «جنجلوتية» تكررها دوماً وقد حفظتها عن أمي عن جدتي عن كل النساء في الكرادة.

قبل أن تخرج التفتت وقالت بتردد «هناك شيء آخر».

«لا أريد منك أن تخبر أمي. ستصر على المجيء معنا. وأنت تعرف أن مريم تحتاج كل الوقت لها ولن يمكنني التوفيق بينهما. لذا لا تخبرها، سأخبرها أنا بطريقتي».

فكرت بعواقب هذا. لكن ما دامت ميادة هي التي ستتحمل هذه العواقب، فلا بأس.

* * *

اعتقدت ميادة أني أقوم بتضحية كبيرة لها ولمريم عندما وافقت على الذهاب إلى العمرة في فترة الكريسماس.

ربما اعتبرت أن هذا يضاف إلى قائمة وقفاتي كأخ شهم مع أخته.

لكن لم يكن هناك شيء من هذا.

هذه المرة لم يكن الأمر مدفوعاً بالشعور بالذنب.

هذه المرة لم يكن هناك تضحية أصلاً.

على العكس، ميادة أنقذتني.

* * *

لم تكن ميادة تعرف أني كنت أراجع طبيباً نفسياً منذ أشهر. وأني كنت أواجه تحقيقاً في المستشفى بسبب أعراض جانبية للعقاقير أثرت على أدائي في إحدى العمليات، إضافة إلى تحقيق آخر بسبب نوبة غضب انفجرت فيها على ممرضة غبية تستحق كل ما كلته لها من شتائم.

لم تكن ميادة تعرف أني كنت أمرُّ بأسوأ فترة في حياتي. لثلاثين عاماً في بريطانيا لم أشعر بالغربة التي أشعر بها اليوم. لثلاثين عاماً في بريطانيا لم أشك للحظة في صحة خياراتي، إلا الآن، أشك في كل ما مضى، في كل شيء فعلته في هذه العقود الثلاثة.

لثلاثين عاماً كنت أصنع مني شخصاً، واليوم أنظر إليه ولا أعرفه.

قالت أميلي إنني أمر بأزمة منتصف العمر.

الدكتور بينيت قال إني أمر باكتئاب حاد.

أما أنا فقد كنت أشعر أني أضعت حياتي كلها.

جاء مقترح العمرة في منتصف هذا كله. كما لو كان رسالة لي.

قال لي الدكتور بينيت قبل زيارتين أن آخذ إجازة بعيدة عن كل شيء، اقترح تايلاند أو الكاريبي.

لكن مكة ستكون أبعد بكثير، ليس جغرافياً، ولكن أبعد «عن كل شيء». وكنت أحتاج لهذا.

كنت أحتاجها أيضاً أن تكون في الكريسماس.

كنت أريد أن أهرب من الاجتماع العائلي الذي تصورت ميادة أني يجب أن أحافظ عليه.

لم أكن أريد أن أرى سارة في هذه الفترة تحديداً.

ولا من معها.

أحمد 1

بغداد 656 هجرية - 1258 ميلادية

فتحت عينيَّ على إسحاق وهو يقف بجانبي ومعه قنديل زيتي خافت الضوء.

كنت بين النوم واليقظة، وخيل لي أني ربما كنت أراه في المنام. لم يسبق أن زارني إسحاق في محبسي هذا في الليل، كان يأتي دوماً في وضح النهار. عدت إلى النوم.

«مولاي» سمعت صوته واضحاً وكان يهزني برفق. هذا ليس مناماً إذن.

هببت من نومي، لا بد أن ثمة أمراً جللاً. «إسحاق، ما الذي جرى؟ ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟».

كان وجه إسحاق يؤكد وجود كارثة. تلعثم قليلاً كما لو أنه يحاول أن يجمع ما يمكن أن يقوله: لا أحد يعرف ما الذي يجري بالضبط مولاي، لكن من المؤكد أنه أمر كبير وكبير جداً».

كنت أشعر منذ أيام أن الوضع خارج السجن ينذر بأمر جلل. سمعنا صوت الهرج والمرج في الخارج. سرى بين السجناء أن ثمة فتنة جديدة ضربت في الكرخ بين السنة والشيعة وكادت تحدث فتنة في السجن أيضاً بسبب هذا الخبر. قال البعض إن دجلة قد فاض في غير موسمه، وأن بغداد قد غرقت كما في السنة الماضية.

قبل ذلك بأيام سمعنا صوت دوي مكتوم غامض. قيل إنه ربما كان صوت ضرب المنجنيق. لكن الفتنة بين السنة والشيعة لا تجلب المنجنيق. ولا الفيضان. حدست وقتها أن الأمر أكبر بكثير، وانتظرت أن يزورني إسحاق

كعادته أول جمعة من كل شهر، يأتي لي بما أحتاج ويخبرني بما يدور، لكنه لم يأت.

«التتار يحاصرون بغداد مولاي» قال إسحاق بصوت من يريد أن يمهد لي خبراً سيئاً.

«التتار؟ يحاصرون بغداد؟ كيف؟ آخر ما أعرفه أنهم كانوا في همدان، كيف وصلوا إلى بغداد؟».

«تسارعت الأمور بعدها يا مولاي، أرسل هولاكو إلى ابن أخيك الخليفة المستعصم يطلب منه أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويتنازل عن الخلافة لابنه، وأن يأتيه بنفسه إلى همدان ومعه الوزير مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه، لكن الخليفة رفض كل ذلك، وأرسل له رسالة تحذره من الهجوم على بغداد، وعندما خرج رُسُل هولاكو من بغداد، تعرض لهم العامة بالشتم والضرب، ويبدو أن هذا قد عجل من قرار هولاكو بالزحف إلى بغداد».

«ماذا فعل الخليفة؟» قلت وأنا أفكر بطلب هولاكو من المستعصم أن يتنازل عن الخلافة لابنه، هل يمكن أن تدور الدوائر بحيث أكون أنا من تستقر عليه البيعة؟ ليس لي عداوة مع أحد، ولم أحارب التتار، أنا بين سجن المطبق وسجن القصر منذ سنوات طويلة، منذ أن قرر ابن أخي أني خطر على ملكه وأني قد أطمع بالخلافة.

«تعرف ابن أخيك يا مولاي، كل يوم هو في رأي، وكل وزير له برأي، يسمع من هذا فيصدقه، ويسمع ما يخالف ذلك من آخر فيصدقه أيضاً، ووزراؤه متحاسدون متباغضون، يكيدون لبعضهم أكثر مما يكترثون لأمر البلاد، ينصحه الوزير مؤيد الدين بأن يراضي هولاكو بالهدايا، ويقول له شرف الدين أيبك إن هولاكو لن يجرؤ على دخول بغداد، وبين هذا وذاك يحاول الخليفة أن يرضي الاثنين، فيبعث بالهدايا ومعها رسائل تهديد، ولا بد أن هذا قد أبان لهولاكو أن الخليفة ليس قادراً على الحسم».

«من أي جهة جاء التتار؟».

«لقد عبروا غرب دجلة من جهة الدجيل».

«وكيف حاصروا الجهات الأخرى؟».

«نزلوا من الأناضول يا مولاي».

«الأناضول؟! هل عبروا الموصل أم دمروها؟».

«بل صالحهم صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، وأعطاهم المنجنيق!.. قواته من ضمن القوات التي تحاصر بغداد الآن يا مولاي». قال إسحاق والألم يكاد يخنق صوته.

«رباه.. صاحب الموصل؟».

«الخليفة أرسل بطريرك السريان والوزير ابن العلقمي والعالم سبط ابن الجوزي إلى هولاكو، يفاوضونه على العودة مقابل تسليمه خزائن المدينة والدعوة له على المنابر في مساجد بغداد، ولكنه رفض».

«الدعوة له على المنابر؟ لكن هولاكو ليس مسلماً، أليس كذلك؟».

«نعم، وقد رفض العرض، وطلب أن يأتيه الخليفة المستعصم بنفسه».

الخليفة يخرج بنفسه! يا للهول. ابن أخي أحمق كبير، وقد تمنيت له نهايات سيئة منذ أن سجنني هنا، لكن لم أتوقع أبداً أن أراه يُذل هكذا.

«وجند مجاهد الدين الدويدار؟».

«حاربوا على شرق بغداد، حدود الأنبار، لكن المغول فتحوا سداً على نهر الفرات، وغرق معظم الجند، وفر منهم من بقي إلى الحلة أو الكوفة، وقليل منهم من عاد إلى بغداد، ثم جاء هولاكو بنفسه من جهة خانقين، شرق بغداد».

«إذن بغداد محاصرة من كل الجهات فعلاً، كم عدد جند التتار؟».

«لا عد لهم ولا حصر مولاي، مئات الألوف على أبواب المدينة، التحق بهم الكرج والأرمن والترك والفرس. ووصلهم إمداد من الفرنجة، عدا جيش

صاحب الموصل، الترك في بغداد اتفقوا على أنهم لن يحاربوا أخوتهم في جيش المغول وبدؤوا بالتسرب خارج بغداد».

«يا مغيث.. كيف وصلنا إلى هذا؟».

سكت إسحاق ثم قال «ليس هذا كل شيء بعد، مولاي».

«ما الذي يمكن أن يكون حدث أكثر من هذا يا إسحاق؟».

«عندما أحدث ضرب المنجنيق ثغرة في البرج العجمي، أدرك الخليفة المستعصم أنه قد أسقط في يده، وقرر الخروج ليصالح هولاكو».

«متأخرا جداً.. بعد خراب بغداد، ماذا قال هولاكو؟».. قلت مقاطعاً.

«طلب أولاً أن يخرج إليه سليمان شاه وقائد الجند مجاهد الدين الدويدار، وكل من معهم من جند طائعين مستسلمين».

«وهل فعلا؟».

«نعم، خرجا ومعهما من بقي منهم من الجند».

«وبعد؟».

«أرسل هولاكو رأسيهما ليعلقا في الموصل، وقتل كل الجند». قال إسحاق وهو يغالب دموعه.

«رباه.. الدويدار، وسليمان شاه».

«ثم طلب هولاكو من المستعصم أن يأتي بكل أولاده، ونسائه، وكل الأعيان والمقربين معه».

«الأولاد والنساء والأعيان؟».. رددت مذهولاً.

هز رأسه بالإيجاب.

«خرج الخليفة المستعصم، أولاده عبد الرحمن والعباس ومبارك، قرابة 700 رجل عدا النساء.. ثم أوقفوا، وسمح لـ 17 فقط بمرافقة الخليفة إلى لقاء هولاكو».

«والباقون؟».

«لا نعرف حتى الآن.. لكن الوزير مؤيد الدين رجع وأخذ يطلب حضور المزيد من الأعيان والمشايخ في بغداد للشهود على الصلح مع هولاكو.. يأتي ويصطحب مجموعة ثم يأتي ليأخذ أخرى».

«كل هؤلاء لشهود الصلح؟».

«لم يرجع أحد منهم مولاي».. سكت قليلاً ثم أكمل: «ويتردد أنهم قتلوا جميعاً»..

«من تقصد؟».

«كل الباقين، بقية السبعمائة وكل الأعيان الذين خرجوا مع ابن العلقمي».

لم أعد أعرف ما أقول، دارت الدنيا بي، لسنوات وأنا أدعو الله أن ينتقم من الخليفة المستعصم الذي أودعني السجن فقط لأني عمه ويمكن أن أتولى الخلافة، سنوات وأنا أدعو الله أن أخرج من السجن، ولكن لم أكن أتخيل أن يحدث كل هذا.

«ماذا عن الخليفة والـ 17 الذين معه؟».

«كل ما نعرفه أنهم في معسكر التتار ناحية باب كلواذي شرق بغداد، لا نعرف ماذا حل بهم أو ماذا سيحل».

أطرقت وأنا عاجز تماماً عن التفكير. كل هذه الأنباء دفعة واحدة، ليته كان كابوساً..

«مولاي».. قال إسحاق بصوت يحاول أن يكون قوياً.

نظرت له، ماذا هناك أكثر من الذي قاله.

«أنت يا مولاي في خطر أكثر من أي وقت مضى، لو أن التتار قتلوا الخليفة المستعصم ومن معه، فقد تكون أنت أكثر الناس قرباً وأهلية لتولي الخلافة، وهذا يجعلك في خطر، من المنافسين على تولي المنصب، ومن التتار.. أو ممن يطمع بأخذ الخلافة من آل بني العباس».

فكرت ملياً بما يقول، كان محقاً بالتأكيد، ليس فقط في كون أنهم قد يريدون قتلي، بل في أن كل هذه الكوارث قد تنتهي لصالحي، أن أرجع أنا، ابن الخليفة الظاهر، أخو الخليفة المستنصر بالله، لأتسلم خلافة بني العباس.

«من الذي يريد أن يأخذ الخلافة من بني العباس يا إسحاق؟».

«لا أدري، دور الوزير مؤيد الدين في كل ما يدور لا يزال غامضاً، هو يريد أن «يشوي سمكته في هذا الحريق».. هناك حديث أنه كان يتفاوض سراً مع هولاكو، وغالباً سيكون الوزير باتجاه بيعة خليفة من العلويين».

«هل هناك اسم بعينه يريد له البيعة؟».

«لا، هذه أمور يقولها الناس في حيرتهم مما يدور، لا شيء يبدو مؤكداً».

«ماذا ترى يا إسحاق؟ أين أكثر الأماكن أمناً؟».

«السجن، أن تبقى هنا في السجن، لو صدق حدسي، فعندما تعم الفوضى، ستكسر السجون ويهرب السجناء، لن يكترث أحد للسجن.. ولن يدخل أحد لنهبه.. ابق هنا، لا داعي لتذكير الناس بك، ربما يشي أحدهم بك لو رآك، انتظر ريثما يستبين الأمر، بعدها يمكن أن نتدبر أمر خروجك».

كم من المضحكات مبكيات، أن يكون السجن هو ملاذي الآمن، وأنا الذي أتوق للحرية منذ عشر سنوات. رغم ذلك، ما قاله لم يجانب الصواب.

«لكن لا يجب أن تبقى في هذه الزنزانة مولاي، لا تعرف، ربما يذكرك أحدهم عند التتار، لا يجب أن يُعرف مكانك تحديداً».

«أعرف الأقبية المخفية، وضعت فيها في فتنة الكرخ قبل عامين».

«أظنها ستكون آمنة، سأذهب الآن لأجلب مؤونة تكفينا لفترة، فقد يطول الأمر، وأنت تعرف أن التتار قد أعملوا السيف في أهل نيسابور شهراً حتى قتلوا أغلب أهلها قبل منح الأمان للباقين».

التتار قد يعملون السيف في أهل بغداد، قد أُقتل على أني من العامة إذن، وليس لأني مرشح للخلافة، إسحاق على صواب، البقاء في القبو المخفي هو الأمر الأفضل مهما طال».

* * *

رجع إسحاق بعد الفجر، وقد حمل أكياساً من التمر قال إنها ستكفينا لأكثر من شهر، كانت هناك بئر قريبة من القبو، مما يسهل أن نتسلل لنأخذ حاجتنا من الماء عند الحاجة إليه.

قبل الظهيرة زاد الهرج والمرج في الخارج، وفجأة صرخ رئيس الحرس بصوته الجهوري: التتار قادمون.. التتار قادمون.. الفرار الفرار.. وبدأ الحرس يفتحون الأبواب بسرعة بينما أخذ بعض المساجين يحطمون أبواب زنازينهم.

حصل كل ما قاله إسحاق.. هرب الجميع في فوضى، ولم يدخل أحد بعدها، تسللنا أنا وإسحاق بهدوء إلى القبو الذي شهدت أسوأ أيامي فيه.

بقينا ننتظر، لم تهدأ الفوضى والهرج والمرج حتى الليل، قصر المحبس كان مقابل قصر الخليفة، وبجانبه مسجد السلام، وكان هناك الكثير مما يحدث في الخارج.

في اليوم الثاني بدأنا نسمع أصوات استغاثات وعويل، كان الأمر لا يشبه صوت معركة فيها خيول وسيوف، بل كان شيئاً آخر.

استمر الأمر لساعات طويلة جداً قريبا من السجن.

ثم ابتعد الصوت. وبقينا نسمعه من بعيد لأيام.

في اليوم السادس تقريباً، بدأنا نشم رائحة كريهة في المكان.

قال إسحاق: الجو بارد، لو أن هذا حصل في الصيف لظهرت الرائحة قبل هذا.

سألته: عم تتحدث؟

قال لي وكأنه لا يصدق أني لم أفهم: هذه رائحة الجثث. لا بد أنهم كوموا الجثث قريباً من هنا، ربما في المسجد الكبير أو في باحته.

مريم 2

قالت لي نزرين، صديقتي الأقرب، إن وجود عمي وجدي يمكن أن يكون إضافة إلى رحلتي إلى مكة.

كنت أتذمر لها من الخبر الذي قالته لي أمي متوقعة أن تتمكن من جعلي أرى الأشياء من منظور مختلف كما تفعل دائماً.

قالت لي إن العائلة في النهاية هي تركيب معماري للعلاقة بين البشر، ورحلة العمرة يجب أن تحتوي على ركن عائلي لأن كل الأديان، على اختلافاتها، تركز على قيم العائلة، أي تصور بديل لعمارة الحرم المكي يجب أن يتضمن قيم العائلة في بنيته وتصوره المعماري.

قلت لها مناورة: لكن أمي وخالي عائلة أيضاً. ألا يكفيان؟

رفعت نزرين حاجبيها بعلامة النفي: لا أعتقد، خالك تحديداً أخذ حقنة مركزة من القيم الغربية. تحتاجين إلى حقنة معادلة طازجة قادمة من الشرق.

«أكره الحقن نزرين. أنت لا تسهلين الأمر هكذا».

«تكرهينها ولكن تضطرين لأن تأخذيها أحياناً، سيكون من الأسهل لو حاولتِ تقبلها، تعاملي معها كما لو أن جلدك قد أخبرك أنه بحاجتها، وأنك تطيعينه بذلك».

« جلدي لا يقول شيئاً نزرين. كل ما أفكر به الآن هو أنهما قد يضيعان وقتي وسأكون بحاجة لكل دقيقة هناك. سيكون لديَّ «موعد نهائي» عليَّ الالتزام به، ولا أعرف شيئاً عن طبيعة جدي وعمي، ربما سيكونان مضيعة وقت كبرى».

«هل هناك أي إمكانية ولو ضئيلة لإلغاء وجودهما هناك؟ أو على الأقل حصره في اليوم الأخير مثلاً؟».

«لا أعتقد، تبدو أمي مصممة على القبول، رغم أنها تقول العكس، لكني أعرفها».

«لدي مقترح أخير إذن، تعاملي معهما على أنهما جزء من المادة التي تحتاجينها في التصميم، اعتبري أن وجودهما فرصة لاستكشاف ما لا تعرفينه عن عائلتك، عن نفسك وجذورك، واربطي بين هذا الأمر وبين فكرة التصميم التي تقدمينها. وجود بُعد شخصي حميم لتصميم معماري يكسبه دوماً جاذبية خاصة».

بارعة نزرين في الكلمات. تضع كلمة هنا وكلمة هناك فتغير الفكرة كلها. قلت لها مرة إن كلماتها أقوى من تصميماتها فقطبت جبينها ولم يعجبها ذلك. تراجعت فوراً وقلت لها إن قوة كلماتها تأتي من قوة فكرة تصميماتها. فأبدت رضاها عن ذلك. يوم قلت لها إني الطالبة البريطانية الوحيدة غير البيضاء في قسم العمارة في شيفيلد قالت لي إن هذا يمنحني فرصة إضافية للتميز على الجميع، موروث الجميع مشترك، لذا فغالباً تصميماتهم وأفكارهم ستكون متشابهة، أما أنتِ فموروثك مختلف، وهذا يمنحك فرصة لتقديم شيء مختلف».

كانت فكرة من خارج صندوق إحباطي وشعوري بالإقصاء في أول يوم ذهبت فيه للجامعة، أنا الوحيدة في الفصل حنطية البشرة سوداء الشعر واسمي يصرخ بأني أجنبية. عيناي الخضراوان - تقريباً - لن تغيرا كثيراً من هويتي.

ما دمت مختلفة، عليَّ إذن أن أقدم شيئاً مختلفاً.

اتجهت إلى موروثي الذي أجهله تماماً لكي أقدم شيئاً مختلفاً. صرت أبحث عن كل ما يمكن أن أصل إليه من بحوث العمارة الإسلامية لكي أستوعبها

وأهضمها، وصرت أضع لمسة صغيرة تنتمي للعمارة الإسلامية في كل ما يُطلب من مشاريع. محطة باص. مدرسة. مستشفى. تصميم جديد للجامعة. أضع قوساً إسلامياً، أو زخرفة، أو عموداً، أو حتى منارة.

أي شيء أقدمه، كنت أضفي عليه لمسة من العمارة الإسلامية ضمن إطار معاصر. أصبح هذا نمطي ولوني الذي صار الأساتذة يميزونني به فور رؤيتهم لمشاريعي.

قبل ذلك، لم أكن أهتم لموروثي، أنا بريطانية من أبوين عراقيين، لا أذكر شيئاً عن العراق ولا أعرف غير بريطانيا.

لكن نظرات الناس تجبرنا أحياناً على أن نعيد النظر في أنفسنا.

وهكذا اتجهت لموروثي، مجبرة في البداية، ثم أحببته فعلاً عندما وجدت فيه هويتي وبصمتي.

كانت نزرين هي عرابتي في ذلك.

ربما كان لتجربتها أثر فيما قالته، نزرين أمها من كوسوفو ووالدها من أذربيجان، وتدرس العمارة في جامعة دلفت في هولندا.

استلمت نزرين مكالمة أخرى وسمعتها تتحدث بالتركية، لا بد أنه والدها، كان صوتها مبتهجاً سعيداً، اعتذرت مني وقالت لي إن عليها أن تذهب.

أنهينا المحادثة بالقبلة الهوائية المعتادة والقلب المرسوم في الهواء.

لم أر نزرين في حياتي حقيقة، لكني أراها كل يوم تقريباً عبر سكايب. تعرفت عليها بالصدفة في مجموعة معمارية على الفيس بوك، ثم صرنا صديقتين.. ثم صارت أقرب صديقاتي.

أمي تقول لي دوماً إنه من غير الطبيعي أن يكون «الصديق الأقرب» صديقاً في العالم الافتراضي. العلاقات الحقيقية ليست في العالم الافتراضي. هكذا كانت تقول.

ربما في عالم أمي. لكن ليس في عالمي أنا ونزرين.

يمكن ببساطة أن أركب طائرة وأذهب لألتقي بها، وقد أفعل ذات يوم، لكن حتى الآن، نحن مكتفيتان جداً بهذه الصداقة. لا حاجة لنا بأن نجعلها تذهب إلى نمط آخر.

في عالمنا أصبح الافتراضي حقيقياً كما العالم المادي بالضبط. شيء لن تستطيع أمي أن تتقبله. أمي التي لا تزال تحتفظ بأقراص مدمجة للأغاني التي تحبها وليس على الهاتف أو الآيبود كما بقية الخلق.. كيف ستفهم ما أقصده؟

* * *

مهما كان عالمي مختلفاً، فلا أزال أحتاج إلى أمي.

تسللت إلى فراشها ليلاً، كما أفعل في كل مرة أريد أن أعتذر منها دون أن أُصرح بذلك. بقينا ننام في نفس السرير لسنوات، في البداية لأن المكان كان أضيق من أن يتسع لسريرين، ثم لأني كنت لا أجد الأمان إلا في حضنها. في الرابعة عشرة تمردت وقررت أني لم أعد طفلة ويجب أن أنام بمفردي. وقد حدث، لكني أعود بين الحين والآخر إلى سريرها، مرة بحجة الدفء، ومرة بحجة حلم مزعج، ومرة بحجة الأرق.

وكلها حجج تبرر ما لا يحتاج لتبرير. أريد أن ألتصق بأمي لأن العالم مُخيف ومُوحش، وهو يصبح أقل وحشة وظلمة معها. قد أبدو مستقلة وقوية، لكن في أعماقي ثمة فتاة مذعورة تريد أن تنام مع أمها.

أفسحت لي مكاناً واحتضنتني دون أن تفتح عينيها.

همست: هل هما فظيعان؟

فتحت عيناها فوراً، نظرت لي لثوانٍ تخيلت فيها أنها ستقول «نعم».

لكنها قالت: لا، على الإطلاق، اطمئني. ليسا فظيعين.

ميادة 2

لم تكن مريم تعرف أني كنت قلقة من اللقاء أكثر منها، وبكثير.

مريم كانت قلقة لأنها ستقابل المجهول.

أما أنا فكنت قلقة لأني أعرف ما ينتظرني.

لم يمثل الأب مشكلة لي يوماً، على العكس، كان لطيفاً معي في أغلب الأوقات، قال لي عمر إنني أتعامل مع نسخة مختلفة من الأب، وأنه كان شديداً صارماً في طفولتهم مثل أغلب كبار العسكريين من جيله، بالنسبة لي كان غالباً «في حاله» ولا يتدخل في أي شيء يخصني، ولا أعتقد أن تقدمه في العمر قد غير الكثير من طباعه الآن.

أما سعد!!.. سعد كان مشكلة كبيرة في هذه العائلة. لم أستلطفه منذ النظرة الأولى، بل قبلها، منذ الصور.. وتبين لي لاحقاً أن حدسي كان صائباً، كنت أنا وهو «حية وبطنج»[1] منذ اللقاء الأول، الفتيات المخطوبات حديثاً يحملن عادة همَّ تعليقات أم العريس وشقيقاته، لم يكن لدى عمر شقيقات، وكانت أمه متعاونة ولبقة جداً، لكن سعداً كان يعادل كتيبة من الشقيقات، إضافة إلى بنات الخالات والعمات اللواتي كانت أعينهن على العريس الذي طار. تعليقاته جارحة دوماً، ينتقد كل شيء، يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، وينصح فيما يفهم وفيما لا يفهم، من لون الستائر إلى لون ملابس أي أحد وتسريحة شعره أو شعرها إلى اللوحات المعلقة على الجدران إلى الطعام على المائدة، إلى مفرش المائدة وطريقة ترتيب المعالق والسكاكين. حرفياً سعد كان يُعلق على كل شيء وينتقد كل شيء. يعتبر أن كل ما يفعله ويختاره هو الصواب

---

(١) حية وبطنج: مثال عن الشيء وعكسه، أو العداء الدائم، البطنج هو السم الذي لو ابتلعته الحية تموت.

دوماً، وكل ما يفعله الجميع خطأ، ولا يكتفي بذلك، بل يخبرهم بذلك في كل مناسبة. مغرور متعجرف ومتكبر وثرثار.

لم أكن قادرة على تقبل هذا بصدر رحب ولا حتى بالتجاهل. كبرت وأنا أتلقى مجموعة مشددة من النصائح والانتقادات التي تريد أمي عبرها أن تجعلني أفضل: لا تجلسي هكذا، لا ترفعي صوتك في الضحك، هل أنت آرتست؟! لا تلعبي بشعرك في الكلام، اغلقي فمك قليلاً عندما تأكلين! اغلقي فمك عندما تتحدثين، اغلقي فمك عندما تضحكين، لسنا مضطرين لرؤية كل أسنانك! لا تتحدثي كثيراً، ولا تطيلي السكوت. اظهري الجزء الأيمن من وجهك لأن عينك الأخرى تبدو حولاء! لا تزمي شفتيك هكذا، أنفك يبدو أكبر.

كانت أمي مديرة لمدرسة بنات، حازمة وقوية ويهابها الجميع، سعاد الدباغ المعروفة بين طالباتها بـ (هولاكو). وكانت كذلك في البيت أيضاً، مع الجميع تقريباً ولكن حسب مقام كل شخص، لم تكن متساهلة مع الذكور، لكن تسلطها الأكثر كان على البنت طبعاً. وكنت البنت الوحيدة بعد ذكرين، لذا فقد تحملت الجزء الأكبر.

نشأت وأنا متخوفة ومتحسسة جداً من أي نقد مهما كان بسيطاً. وجاء سعد لينبش في عقد الطفولة والمراهقة التي كنت قد تخيلت أني قد دفنتها مع عمر، كنت أبكي تقريباً بعد كل لقاء أرى سعداً فيه. أقاومه وأرد الصاع صاعين أحياناً، ولكني أبكي لاحقاً عندما أكون وحدي أو مع عمر.

عمر كان مُحرجاً في البداية من ملاحظات سعد، وكان ينبهني أن سعداً هكذا مع الجميع، معه ومع أمه ومع أبيه ومع زوجته سوسن أيضاً، وأنهم تعودوا جميعاً عليه ولم يعودوا يتضايقون من ملاحظاته. كان هذا صحيحاً. لكني لم أكن مستعدة لأن أبقى أنتقد وأتألم إلى درجة التعود، قلت لعمر إن ذلك قد يأخذني إلى طبيب نفسي قبل أن أتعود.

عندما لاحظ عمر تأثري من انتقادات سعد، بدأ يرد عليه بحدة بعد كل ملاحظة جارحة، وتوتر الأمر أكثر من مرة، ثم بدأ سعد يخفف من انتقاداته، لم يقطعها نهائياً، لكنها خفت، بقيت أحمل نفس المشاعر لسعد على أية حال.

كان عمر يتعامل مع انتقادات سعد على أنها حالة مرضية، يقول إن سعداً لم يكن هكذا تماماً إلى أن دخل قسم الهندسة المعمارية في جامعة بغداد، اختار العمارة ليدرسها رغماً عن كل نصائح الجميع بالاتجاه إلى دراسة الطب، يقول عمر إن شعور سعد بالتفوق تعزز في دراسة العمارة. بدأ الأمر بأن سعداً كان ينتقد كل تصميم لبناء يراه في أي مكان. بما في ذلك بيوت الأقارب والأصدقاء. ثم بدأ ينتقد التصميم الداخلي للبيت. الديكورات.. الألوان.. ثم صار الأمر على كل شيء. الملابس والأشكال وترتيب الأسنان وكل شيء.

كان عمر يقول إن سعداً يعتقد أن العالم كان يمكن أن يكون أفضل كتصميم، لكن الله اختار هذا التصميم لأن البشر لا يستحقون، عدا المعماريين طبعاً.

نقلت تفسير عمر لأمي، فقالت بثقة: يمكن أن يكون الأمر كما يقول، لكن عدم إنجاب سوسن سبب أقوى.

سوسن كانت ألطف من سعد بكثير. لكن لم تسنح لي الفرصة أن أكون لطيفة معها للأسف. سوسن وسعد تزوجا قبلي أنا وعمر بثلاث سنوات، رغم أن عمر هو الأكبر سناً. في السنة الثالثة كانا لا يزالان بلا أطفال.. حذرتني أمي بشدة من عينها، وعندما سقط حملي الأول بعد أسابيع صعَّدت أمي من تحذيراتها وتأكيداتها أن الأمر حدث بسبب عين سوسن، وشددت عليَّ ألا أختلط بها وألا أتحدث معها عن أي حمل آخر، وقد كان، أخفيت خبر حملي بمريم إلى أن بدت بطني واضحة على نحو لا يحتمل كذبتي عندما يسألونني «ألا يوجد شيء على الطريق؟». وأرد نافية.

عندما أنجبتُ مريم، جاءت سوسن للمباركة، وتصرفت أمي على نحو لا يمكن إصلاحه، فور دخول سوسن الغرفة هبت أمي وهي تقرأ المعوذتين وبصوت عالٍ، واستمرت أمي في قراءتها طيلة الجلسة تقريباً مرات بهمس ومرات بصوت واضح، ثم قامت وجلبت بخور الحرمل وهي تحترق في صحن

مررته فوق رأسي عدة مرات وهي تشرح لسوسن أهمية الحرمل في طرد «العين الشريرة» والحسد.

كانت سوسن ذكية وقوية، قالت إنها تحب رائحة الحرمل، لأن جدتها كانت تستعمله كثيراً، وسألت أمي عن مكان شرائه وسعره كما لو أنها مهتمة بالأمر، لكن كان ثمة انكسار في عينيها لا يمكن أن يُخفى مهما حاولت، أحسست أنها تحبس دمعتها بصعوبة. انتهزت سوسن فرصة حضور ضيوف آخرين وخرجت مسرعة كما لو أنها تريد أن تطلق دموعها.

لاحقاً عاتبت أمي على ما فعلته: «زودتيها يا أمي»، فأسكتتني بحسم: بنتك كانت ذكراً في البداية، رأيت في المنام أنكِ حامل بذكر، لكنها عين سوسن هي التي حولتها إلى بنت.

رغم شهادتها الجامعية وعملها الطويل في سلك الإدارة والتعليم، لكنها كانت مقتنعة تماماً أن مريم كانت ذكراً قبل أن تصيبها عين سوسن. كانت تلمح أحياناً إلى أن أبي ربما يكون قد «توفي» نتيجة عين زوجة عمي.

وعندما حدث ما حدث لعمر، صاحت أمي وهي تلطم: عين سوسن.

مسكينة سوسن.

كلنا مساكين.

* * *

عندما قال لي سعد إنه انفصل عن سوسن تظاهرت بأني لا أعرف.

بالتأكيد كنت أعرف، لكني كنت محرجة من كل شيء.

ما كان يمكن أن يمر شيء كهذا على أمي، وهي تعيش أيضاً في السويد، مثل سوسن.

في الحقيقة حتى لو كانت سوسن تعيش في القطب الشمالي، كان خبر طلاقها سيصل لأمي بالتأكيد. أمي تقاعدت منذ زمن بعيد ولكنها بقيت محتفظة بشبكة علاقات أخطبوطية في كل مكان ومع كل من مر في حياتها المهنية من مديرات ومدرسات ومشرفات ومعاونات، بل وأحياناً مع أمهات الطالبات. لدى أمي أكثر من 20 مجموعة واتس آب نشطة وتحرص على متابعتها والرد على ما يقال فيها، وقد نظمت هذه المجموعات على نحو يجعل الأمور تحت السيطرة، هناك مثلاً مجموعة للمديرات والمشرفات والمعاونات، أي كل من تعتبرهن أمي في مرتبة الند الوظيفي لها، وهناك مجموعة أخرى تضم المدرسات أيضاً، وما يقال هنا ليس بالضرورة يقال بنفس الطريقة هناك، إذ لكل مقام مقال، وهناك مجموعة لأمهات الطالبات اللواتي تكونت معهن علاقات مميزة، وهناك أيضاً تصنيفات فرعية لهذه المجموعات، فهناك مثلاً المجموعة العامة التي تضم «السنة والشيعة» والتي يحرص الجميع فيها على الوحدة الوطنية إلا فيما ندر، وهناك مجموعة موازية يكون الحرص فيها على هذا أقل، وذلك عبر تمرير نكت وتعليقات قد تثير حساسية، وهناك مجموعة الجارات، ومجموعة الأقارب، ومجموعات تشارك فيها بصفة «خلية نائمة» تراقب ما يحدث من حوارات، ومجموعة تضمني وتضم حيدر، ولكن حيدر لم يشارك ولا مرة في أي تعليق، ورغم ذلك فأنا من يستلم التقريع واللوم لو تأخرت في الرد عليها لأكثر من أربع ساعات.

بكل الأحوال: أمي لديها شبكة أخبار وتواصل تمتد من ارخيتة في الكرادة الشرقية إلى لوس انجيلوس في كاليفورنيا، ومن ماليزيا إلى كندا مروراً بعمان ودبي وبيروت ولندن وكل الدول الإسكندنافية.

بالتأكيد أعرف عن طلاق سوسن وسعد.

* * *

لكن شبكة تواصل أمي لم تخبرني إن كان سعد لا يزال كما كان.. وهل عليَّ أن أواجه سعداً وانتقاداته وملاحظاته من جديد؟

هل سيزيده العمر إلا تنمراً؟ سعد كان المتنمر الأول قبل اختراع هذا المصطلح بالعربية. كان متنمراً بالفطرة. والآن عليَّ تحمُّل ما سيقوله عني وعن مريم وعن كل شيء فينا، عليَّ أن لا أشوش على مريم في تعارفها مع أهل أبيها.

يحتاج الأمر إلى دعوة في بطن الكعبة لكي يتحقق.

الله كريم.

سعد 2



طمأنني الحجي ثامر، متعهد الحج والعمرة، إلى أن الحصول على التأشيرة للعمرة أمر مضمون تماماً، ولا يستغرق أكثر من عشرة أيام للحصول عليها، الإجراءات روتينية تماماً ولا تعقيدات فيها.

لكن التأشيرة نافذة لمدة شهر فقط من تاريخ صدورها..

«إذا كنت تريد أن تقضي رأس السنة في مكة، فلا معنى للحصول على تأشيرة الآن، لأنها ستسقط خلال شهر، حدد الموعد الذي ترغب في السفر فيه وسأرتب لك الأمور، لديَّ مجموعة ممتازة من العروض، الفندق في مكة مُطل على الحرم مباشرة، تفتح النافذة لتجد الكعبة منورة أمامك، منظر خرافي، دقيقة واحدة عن الحرم و3 دقائق عن الكعبة، مشياً على الأقدام وليس بالسيارة.. بـ 250 دولاراً فقط لليلة.. فندق خمس نجوم ولكن والله يستحق عشرة.. خدمة ولا في قصر شعشوع.. لا أحدثك عن الإفطار في الفندق.. بوفيه خرافي.. الفندق في المدينة، خمس نجوم أيضاً، يبعد أقل من 100 متر عن الحرم المدني، دقيقة واحدة عن مسجد النبي.. تخيل أنك ستمشي على نفس الأرض التي مشى عليها الرسول مقابل أقل من 200 دولار لليلة، والله تستحق أكثر.. شعور خرافي».

منظر خرافي وبوفيه خرافي وشعور خرافي، وبالتأكيد أسعار خرافية.

كان الحجي ثامر يتعمد التركيز على حرف الألف في كلمة «خرافي» كما لو أنها ستكون أكثر إقناعاً لو قيلت هكذا.

لم يكن يحتاج لذلك معي على الأقل. في النهاية كان الحجي ثامر يريد أن يحصل على أفضل صفقة ممكنة وهذا حقه تماماً، ولم يكن عندي مشكلة في

ذلك، كان يختار الفنادق الأغلى والأسعار الأعلى وسيحقق هامش ربح أكبر، المهم أن يحصل على التأشيرة ويقدم لنا خدمات تجعل رحلتنا مريحة».

«المهم هو أن تحدد الموعد الذي ترغب أن تكون فيه في مكة، أقدم لك التأشيرة على هذا الأساس».

هكذا قال الحجي ثامر بعد أن حذرني من أصحاب حملات العمرة النصابين الذين «يضعونك في أبعد مكان ويقولون لك إن الأجر على قدر المشقة».

لم أكن لأذهب إلى سواه بكل الأحوال. لم تعد لديَّ القدرة على الشك في الناس وتدقيق كل ما يقولون. لو حدث الأمر قبل عقدين من الزمان لكنت وضعت دراسة مقارنة عن عروض العمرة واستقصيت حقيقة خدمات كل منها، الآن لا أريد غير أن أذهب، وكل ما كان السعر أعلى كانت الخدمة أفضل.

أرسلت لميادة رسالة نصية أخبرها أني أحتاج لمعرفة موعد محدد لتواجدهم في مكة، وكم يوماً تريد أن تكون في مكة وفي المدينة.

ردت بعد قليل: حيدر لم يحدد موعد بدء إجازته بعد، لكنها غالباً خلال العشرة أيام الأخيرة من السنة، مريم لا تريد الذهاب إلى المدينة لكني أنا أرغب، يكون ذلك خلال أيام بقاء مريم في مكة، في وسط الرحلة ربما.

لم أفهم لماذا لا تريد مريم الذهاب إلى المدينة. بدا ذلك غريباً جداً. لكني لم أعلق على ذلك. خفت أن تسيء ميادة فهمي، كعادتها.

ميادة لم تستلطفني يوماً. بل أعتقد أنها كانت تكرهني منذ البداية. كانت حساسة وتسيء فهم نكتي وتعليقاتي وتأخذ الأمور بشكل شخصي جداً، دخلت العائلة وهي متوجسة وخائفة من الرفض لأنها شيعية، لذا كانت تفسر كل ما أقول على نحو خاطئ تماماً، ثم أخذت تتوهم أن سوسن تحسدها وتكيد لها، وزاد هذا من توتر علاقتها مع الجميع، وخصوصاً معي ومع سوسن.

لم أتقبلها أنا أيضاً. لم أفهم ما الذي جعل عمر يحبها من الأساس. كانت عادية جداً، مقبولة الشكل، تعتبر سمراء.. «فلوسها»[1] بشعرها وطولها كما كانت سوسن تقول. كانت طويلة فعلاً، أقصر قليلاً من عمر، مع الحذاء تبدو أطول، رغم أن عمر لم يكن قصيراً.

عندما خطبها عمر، جلست خالتي تتحسر على عمر وحظه «طبيب وأبيض أشقر وعيونه خضر، يحصل على ملكة جمال لو أراد، وبعد كل هذا يأخذ هذه، شيعية وسودة».

لم تكن ميادة سوداء البشرة، كانت سمراء فقط وقد يعدها البعض «حنطية»، لكن كانت خالتي ستقول ذلك عن أي واحدة مقارنة بعمر. عمر الذي يقدسه الجميع لدرجة أنهم يعتبرون أن عينيه خضراوان، رغم أنهما ليستا كذلك تماماً، هما عسليتان تقريبا. أنا عيناي عسليتان أيضاً، لكن لم يقل أحد عنهما إنهما خضراوان أو أي شيء. المجد للأخضر، أو لعمر أياً كان لون عينيه.

لم أكن أعرف حقيقة شعور أمي نحو ميادة، لكن بالنسبة لها كل ما يريده عمر يتحقق بلا شك، عمر يحبها؟ نحبها جميعاً ونصفق لها. نحن نصفق لعمر على أشياء أقل من ذلك بكثير، نصفق له إذا عطس، فكيف بمن أحبها واختارها لتكون زوجته؟ ولا كلمة يمكن أن تسيء لها ما دام عمر يمكن أن يغضبه ذلك.

قالت أمي لخالتي وهي تعتبر أنها تعدد إيجابيات ميادة «إذا كان على الشكل فهي لطيفة، عمر أحلى منها ولكنها لطيفة، وأنت تعرفين القاعدة: الرجال الوسيمون يتزوجون من فتيات مقبولات الشكل فقط ولسن جميلات.. والأخلاق أهم، وأهلها شيعة محترمون و«أهل أول»[2] ومعروفون بأخلاقهم في

---

(١) فلوسها: ميزتها الأهم.

(٢) أهل أول: تعبير يستخدم للدلالة على أصالة الناس المتحدث عنهم

الكرادة، أمها مديرة مدرسة وأعرفها منذ زمن، وأبوها كانت سمعته ذهب بالسوق، وجدها كان عنده نص الكرادة، أخوها حيدر صديق عمر من أيام المدرسة، مثل الأخوة بالضبط».

فكرة «شيعة محترمون» كانت تلخص أشياء كثيرة في رأس أمي، لكنها كانت مستعدة لردم كل هذه الأشياء في سبيل عمر. كنت واثقاً تماماً أن جهة ميادة كانت تحتوي على حوارات مماثلة، وربما أقوى، لأن ابنتهم ستتزوج سنياً.

بالغت أمي بعدها في مجاملة ميادة بمناسبة ومن دون مناسبة كي تؤكد لها أنها مرحب بها ومقبولة تماماً، وأعتقد أن ذلك زاد من شعور ميادة بأنها غريبة، وبالتالي زاد من حدة تفاعلها لكل تعليق أو نكتة أقولها، بل أعتقد أنها حرضت عمر عليَّ لكي يرد على كل ما أقول، وكان ذلك يعني وقوف الجميع ضدي.

لست متأكداً أني نفس الشخص الذي كانت ميادة تكرهه قبل عشرين عاماً.. لكن هل ميادة لا تزال نفس الشخص؟ هل ستعي أنني تغيرت؟ هل ستحضر معها كل عقدها إلى مكة وتعيد نفس القصة؟ أم أن مجرد التفكير بالذهاب للعمرة ودعوتي وأبي للذهاب يعكس أنها تغيرت.

كل ما أريده هو أن لا تشوش على تعامل مريم معي..

أو صورتي عندها.. لو كانت هناك صورة من الأساس.

* * *

أبلغت كمالي أن تهيئ أبي للذهاب إلى المركز الصحي صباحاً لإجراء التطعيمات الضرورية للعمرة.

كان لوالدي روتينه الذي يصعب تغييره. روتين أن لا يفعل شيئاً. يبقى سارحاً طيلة الوقت، يعيش في عالمه الخاص، أي محاولة لجذب انتباهه ستقابل منه

بالصدود والانزعاج. نرى أحياناً انفعالات على وجهه، أحياناً يكون مطمئناً، أحياناً يكون حزيناً، جزعاً، أحياناً يبكي، وأحياناً يبتسم، وأحياناً يضحك، وأحياناً كثيرة يتحدث بالفصحى مع أشخاص لا نميزهم.. ولكن في أغلب الأحيان لا شيء. لا شيء تماماً.

دخل أبي في هذا العالم بالتدريج، بدأ ينسى بعض التفاصيل بعد حادث عمر، صغيرة أولاً، ثم بدأت تكبر.. بعد أقل من سنة توفيت أمي، فكان أثر ذلك أكبر عليه، وقف في مجلس العزاء حسب الأصول ولكن بعد يومين من انتهاء العزاء بدأ يتصرف كما لو أن أمي لا تزال حية، وأنها خرجت منذ قليل للسوق، وأنها تأخرت لأنها ستجلب بعض الحاجيات أو أنها ذهبت لخالتي - التي توفيت قبلها - أو أنها كانت هنا للتو.

بعدها عاد عمر إلى الحياة، وعادت مريم إلى البيت، وهو رجع إلى رتبته العسكرية وحياته الوظيفية قبل التقاعد وأنا أصبحت طبيباً مثل عمر وتخصصت في جراحة الجملة العصبية.

بنى في عقله عالماً مثالياً بديلاً لعالمنا، واستقر وانعزل فيه.

لفترات طويلة كان يفقد صلته بنا تماماً، لا يعرف من أكون ويعاملني كما لو كنت غريباً عنه، في أحيان كثيرة كان يتحدث عن كونه قد سُجن مظلوماً وأنه لم يُذنب بشيء، رغم أنه لم يُسجن في حياته من قبل، تعرض لتحقيق وأحيل إلى التقاعد إثر التحقيق، لكن لم يتم توقيفه أثناء التحقيق. أغلب وقته كان يقضيه وهو يمسك كتاباً من مكتبته أو رسالة الدكتوراه التي حصل عليها في الستينيات من القاهرة، يتأمل الصفحات لساعات كما لو كان يتأمل في الفراغ، ولا شيء يدل على أنه يقرأ فيها، لكن بين فترة وأخرى يقلب صفحة.

* * *

عندما خرجنا للذهاب إلى المركز الصحي في حي الإسكان، والذي نتبعه حسب التوزيع الجغرافي، كان والدي قد لبس بذلة رسمية من ثلاث قطع، وربط بنفسه ربطة العنق، بالطريقة المعروفة باسم ربطة وندسور بحذافيرها، ودون أن يخطئ فيها بأي مقدار.

ينسى اسمي ومن يكون، لكنه لا ينسى كيف يربط ربطة العنق؟.

حيدر 2

بدت أميلي مرتاحة عندما قلت لها أني سأذهب إلى العمرة مع ميادة ومريم في الكريسماس.

أزعجني هذا. هل أصبح وجودي مزعجاً لهذه الدرجة؟

قالت لي: ربما هذا الأمر في هذا التوقيت بالذات هو ما تحتاجه هايد.

هايد، هكذا تناديني أميلي منذ أن تعارفنا. كنت أضحك من الأمر في بدايته وأقول: دكتور جايكل ومستر هايد.

لم أكن أدري أن هذه النكتة ستتحول إلى حقيقة. بين سيد حيدر، ابن حجي مرتضى الباقر، ابن الكرادة العريقة، وبين دكتور هايد باكر.

فتحت قنينة الفودكا التي جلبتها معي وأنا أكرر ما قالته ببطء كما لو أني أتأمل في كلماتها، كلمة كلمة.

صببت الفودكا في قدح حتى آخره.

نظرت أميلي إلى القدح الممتلئ وقالت: ليس هذا ما اتفقنا عليه..

أشرت بيدي أن تتوقف وأنا أقول: لقد شاهدت صورة سارة اليوم في الإنستغرام، لذا لا تحاضري عليَّ ما يجب أو لا يجب أن أفعله.

لم أقل لها إني شاهدت الحلم، مجدداً.

وضعت يدها على كتفي وطبطبت عليه: تمالك نفسك يا هايد، عليك أن تتقبل الأمر ولو بالتدريج.. اذهب إلى هذه الإجازة، وعندما تعود ستكون أهدأ، وبعدها ستتقبل الأمر، هل تذكر كيف عارض أهلك زواجنا في البداية. ثم مع ولادة سارة أمطرونا بالهدايا؟ أنت تعيش «متلازمة الأب الشرقي» وسيمر الأمر سريعاً.

ليت الأمر بهذه السهولة. للمرة الأولى منذ عرفت أميلي، أشعر أنها غير قادرة على فهمي مهما حاولت أن أشرح لها، أن يصالحني أهلي لأني تزوجت من أجنبية لا يشبه أبداً الوضع مع سارة الآن.

قالت أميلي مؤكدة: قرار صائب هايد، اذهب إلى مكة وخذ وقتك في التأمل بعيداً عن كل شيء.

هي على حق، لكنه ليس هايد الذي يحتاج إلى الذهاب.

بل حيدر.

حيدر الذي ظننت أني دفنته منذ زمن طويل.

* * *

عندما دخل صدام إلى الكويت في أغسطس 1990، كنت قد أنهيت امتحانات السنة النهائية من كلية الطب في جامعة بغداد وسافرت قبل ظهور النتائج إلى لندن لزيارة خالي، كانت هذه فترة قصيرة فتح فيها السفر للعراقيين بعد منعه لسنوات طويلة أثناء حرب إيران.

عندما ذهبت، لم أكن أنوي أكثر من قضاء بعض الوقت الممتع في لندن، والعودة بعدها إلى بغداد، أدخل في نظام التدرج الطبي مثل بقية زملائي في الدفعة، كنا نأمل أن يعود نظام البعثات الدراسية الذي كان قوياً قبل حرب إيران، كان لدينا أمل. لم نكن نعرف أن صدام سيزج بنا في حرب مع العالم أجمع.

ذلك الصباح، صدمت فيه بصور الغزو، لقد فعلها صدام، بعد ساعات بدأت الصورة تتضح أكثر، أدركت أن صدام سيدخلنا في حرب تكون حرب إيران بالمقارنة معها مجرد «عركة أطفال»، أدركت أني هربت من المركب الغارق في الوقت المناسب، وقررت أن لا أنظر إلى الخلف. انتهى. العراق انتهى بالنسبة لي.

كنت في الرابعة والعشرين، لا أزال قادراً على التأقلم والاندماج في المجتمع دون مشاكل كبيرة، أمدني خالي في لندن وأهلي في بغداد بالمال الذي ساعدني على الصمود ريثما أؤدي الامتحانات المطلوبة لمعادلة شهادتي كطبيب.

عندما تعرفت على أميلي بعد سنتين، كانت تدرس الصيدلة، أحببتها، وعشنا معاً قرابة العامين قبل أن نقرر الزواج.

قالت أمي بعصبية على الهاتف: تتزوج واحدة سلمتك نفسها قبل الزواج؟

ضغطت على نفسي كي لا أقول لها إن مجتمعنا الشرقي مليء بقصص بكارة تم رتقها قبل الزفاف بأيام، وأنها كمديرة مدرسة ثانوية للبنات كانت تعرف كيف أن الكثير من البنات في مجتمعنا يبدين العفة والطهارة ولكن واقعهن السري مختلف تماماً، على الأقل الأمر هنا واضح وصريح.

قلت لها: أميلي تحبني وأحبها يا أمي، وستكون مخلصة لي، تأكدي من ذلك.

سألتني كمحقق في الأمن: هل كانت عذراء يوم أسلمتك نفسها؟

كذبت عليها: نعم، ماذا تظنين، هي ابنة عائلة محترمة، بنات العوائل هنا محافظات جداً.

كانت تلك كذبة بيضاء من أجل راحة أمي. لكني لم أشعر بأي شيء في داخلي تجاه الأمر، لم أشعر أن عذرية أميلي كانت مشكلة بالنسبة لي.

كانت مشكلة لأمي، وكذبت من أجلها.

لكن يومها عرفت أن حيدر قد انتهى إلى غير رجعة.

أو هكذا ظننت.

* * *

تعرض هايد إلى اختبارات عديدة، نجح فيها كلها بتفوق، مثبتاً أن حيدر قد مات بالفعل. أول صديق لسارة، أول موعد لها مع شاب، أول سهرة في النادي الليلي، أول كأس، أول مرة ترجع مخمورة..

كل مرة كان هايد يتصرف كأي رجل بريطاني أبيض، بل أقول إني ربما بالغت في التصرف ببرود، ربما كان لديَّ خوف من أن يُفهم الحرص الأبوي الطبيعي على أنه بقايا لرجل شرقي متخلف. أمها هي التي كانت تمارس نوعاً من الرقابة والنصائح بأن يكون كل شيء «آمناً»، جزء مني، من بقايا حيدر أعتقد، كان يحاول أن لا يفهم بالضبط ما تعنيه كلمة «أمان» هنا.

كان كل شيء على ما يرام، هايد وحده منفرداً بالسلطة، وكل شيء تحت السيطرة.

إلى الفصح الماضي.

جاءت سارة من سكنها في مانشستر، وألقت بالقنبلة.

القنبلة التي اكتشفت معها أن حيدر كان نائماً فحسب.

وقد استيقظ.

أحمد 2

في الأيام التالية زادت الرائحة على نحو ينذر بالخطر، لم نعد نستطيع الخروج من القبو، وحتى القبو صارت الرائحة فيه لا تطاق. قال إسحاق إنه سيخرج ليستطلع الأمر، لعلنا نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر.

نظرت له بقلق من يعرف أن إسحاق هو فرصته الأخيرة في النجاة، فطمأنني قائلاً: لا يوجد صوت في الخارج، لا أعتقد أن الخطر الآن خطر التتار، بل هو خطر الوباء الذي يمكن أن يأتي مع هذه الرائحة.

تلثم إسحاق وخرج في فجر اليوم الرابع عشر ووعد أنه لن يتأخر.

كان إسحاق أخاً لي في الرضاعة، أمه مولاة تركية لأمي وأبوه مملوك رومي لها. بقينا معاً ونحن صغار، وأعتقتهم جميعاً عندما كبرت قليلاً، فزادهم ذلك ولاءً وحباً لي، وبقي إسحاق معي في كل الظروف، درس الفقه والنحو وعلم الكلام في المدرسة المستنصرية عندما أنشأها أخي الخليفة المستنصر، درست فيها أيضاً لكنه كان أبرز وأشد انكباباً على التحصيل.. كان يريد أن يعمل بعد تخرجه في ديوان الخليفة، وقد حصل على ذلك بيسر لتفوقه، ولأن أغلب من في الديوان يعرفونه ويعرفون ولاءه، ثم طرده الخليفة المستعصم بعد أن سجنني، إذ عده عيناً لي ومعيناً على أطماعي بالخلافة، لم يكن المستعصم مخطئاً تماماً في إدراك أطماعي، لكنها كانت مجرد آمال، كنت أرى نفسي أحق بالخلافة منه، لا أكثر، ولم يكن لإسحاق أي شأن في ذلك.

كان إسحاق أيضاً شجاعاً يجيد الفروسية والقتال كما أجيدهما، ولم أكن أشك لحظة في ذكائه أو ولائه، بقائي في الحبس كل هذه السنوات جعلني أجهل الكثير مما يحدث في الخارج، بينما كان إسحاق منخرطاً في الحياة والتجارة وطلب العلم.

عند منتصف النهار عاد إسحاق مهرولاً، فتح لثامه وأخذ يسعل بشدة حتى ظننت أن روحه ستخرج.

جلبت له الماء فرفض أن يشرب ولكن غسل وجهه به.

تلك الساعات التي قضاها إسحاق خارج السجن بين الفجر ومنتصف النهار كانت كفيلة بجعله يبدو أكبر بعقدين من الزمان الصعب.

ماذا رأيت يا إسحاق؟ قلت بصوت مرتجف وأنا لا أرغب حقاً بسماع الجواب.

بقي إسحاق يهز رأسه كما لو أنه عاجز عن جمع الكلمات وإيصالها إلى لسانه.

تمالك أنفاسه قليلاً ثم قال: علينا أن نخرج من هنا مولاي.. الوباء سيأخذنا حتماً معه، إن لم يكن عبر الهواء، فبالماء، كل الآبار حولنا مليئة بالجثث، حتى دجلة، ألقيت الجثث فيه حتى أن بعض المناطق يمكن عبورها مشياً على الأقدام.

الجثث؟ جثث من بالضبط يا إسحاق؟ هل هي لجند الخليفة؟ قلت بصوت مرتجف.

هز رأسه نافياً: لا.. رجال.. نساء.. كبار.. صغار.. أطفال.. سكان بغداد بلا تعيين.. أكوام تلو الأكوام.. أكوام من الرؤوس المقطوعة.. تليها أكوام من الجثث بلا رؤوس.. تليها أكوام من الجثث كاملة.. الدم متجمع في كل مكان وأكوام من الذباب والهوام على كل الجثث.

لمن تعود الجثث؟ للرعايا أم لعلية القوم؟ سألته وأنا لا أزال أتمسك بأمل.

نظر لي نظرة لوم وعتب، وقال: كل الجثث تتشابه مولاي عندما تقطع رؤوسها.

قلت مع نفسي إنه محق، كل الجثث تتشابه.

ثم أكمل: سيوف التتار لا تفرق حقاً بين علية القوم وعامتهم، وإن فرقت، فسيهمها الفتك بعلية القوم أكثر.

أطرقت مفكراً بما قال، هو محق مرة أخرى.

«هل تحدثت مع أحد؟ هل من أخبار عن الخليفة المستعصم وأولاده؟».

«لم أر أيَّ حي يا مولاي، لكن رأيت الكلاب والجرذان تنهش في الجثث».

شعرت برجفة تجتاحني. الكلاب والجرذان.

«هل عرفت أحداً من القتلى؟».

«نعم عرفت أستاذ دار الخلافة، محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي، وشيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين بن علي النيار، رأيتهما معلقين على باب القصر».

«لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمهما الله» غمغمت مع نفسي.

«علينا أن نغادر عند حلول الظلام يا مولاي، القمر سيكون بدراً الليلة وسيساعدنا هذا على التنقل، هذه المنطقة فيها تلال من الجثث، يبدو أنهم جمعوا الناس فيها وقتلوهم، هناك تلة كبيرة جداً أمام القصر، وثانية بعده بقليل، وثالثة أمام المسجد الكبير، ورابعة في المدرسة المستنصرية، وخامسة بينها وبين النظامية، وسادسة في النظامية، وهناك أمام المستنصرية كوم الجثث النازل حتى دجلة والذي يكاد يصير جسراً إلى الرصافة، الوباء سيحدث في أي وقت مولاي، علينا الابتعاد قدر الإمكان».

«أين سنذهب؟ وكيف نعرف أن المكان الذي نقصده ليس مثل هنا؟».

«نذهب إلى الشماسية مولاي، إلى بطريرك السريان مكيخا الثاني في كنيسة دار الروم، أعرفه جيداً وسيمنحنا الأمان، وبساتين الشماسية ستشتت الرائحة وتخفف أثرها، ننتظر هناك إلى أن تستبين الأمور».

«ولماذا تعتقد أن البطريرك بأمان أو يستطيع أن يمنحنا الأمان؟».

«لأن زوجة هولاكو دوقوز خاتون نسطورية على مذهب البطريرك، وقد قدمت الأمان للنصارى في المدن التي اجتاحها التتار قبل ذلك، وغالباً ستكرر ذلك معهم في بغداد».

«أليست دار الوزير مؤيد الدين في الكرخ أقرب؟ ألا تعتقد أنه يمكن أن يمنحنا الأمان؟ الشماسية تتطلب مسير يومين إذا مشينا فقط في الليل».

«مولاي، الوزير مؤيد الدين غالباً مع هولاكو، إن لم يكن معه منذ البداية، فهو معه الآن، ونحن لا نعرف ما الذي حدث للخليفة أو أولاده حتى الآن.. البطريرك لا مصلحة له في إلحاق الأذى بنا، بينما الأمر مختلف مع الوزير الذي قد تكون له أطماعه، علينا أن نتجنبه تماماً».

سكتُّ. لم يكن لدينا خيار آخر على ما يبدو.

قال إسحاق: «سنتحرك في الظلام، نتجنب ناحية كلواذي قدر الإمكان، فربما لا يزال يعسكر التتار بالقرب منها، نتجه صوب نهر الفضل وقنواته إلى أن نصل الشماسية».

«أين سنختبئ عندما يعلو النهار؟».

«لعل جدك المنصور لم يعرف أن القنواتِ التي أمر بحفرها تحت الأرض لإيصال الماء إلى أهل بغداد ستكون مخبأً لواحد من أحفاده».

لم يعرف جدي المنصور هذا.

ولم يعرف أيضاً، ولا إسحاق كان يعرف، أن هذه القنوات، ستكون مليئة بأهل بغداد وقد هربوا من التتار.

مريم 3

عدلت من النبذة التعريفية الخاصة بي على الإنستغرام. أفعل ذلك دوماً. أشعر أني أتغير وأتطور باستمرار على نحو يجعل تعديلات النبذة تعبر عني بينما أنا أنضج.

أضفت كلمة «روحانية» على النبذة، فصارت كما يلي: «**مريم، معمارية، شرقية وغربية معاً، كوزموبوليتان تستخدم الحد الأدنى، تفكر بالحد الأقصى، نباتية، روحانية، مولودة في عالم يستحق إعادة تصميم.**

هل أفكر خارج الصندوق؟ أي صندوق منهم؟!

لم أكن روحانية. على الأقل ليس كما تفهم أمي الكلمة. أمي تفهم هذه الكلمة بطريقة واحدة فقط: دينية.. ليس أنا. بتاتاً. ولكن قررت أن أحاول هذه الصفة مؤقتاً لكي أدخل في الدور الذي عليَّ أن أعيش فيه خلال تجربة الرحلة إلى مكة. بطريقة ما العمارة نوع من التمثيل، لكي أكون معمارية حقاً عليَّ أن أعيش المكان والتجربة والفضاء والمساحة، عليَّ أن أتوحد مع التفاصيل، لذلك فإن عليَّ أن أحاول قدر الإمكان أن أكون روحانية، رغم أني لا أعرف ماذا يعني هذا بالضبط، لكي أستخلص الحد الأقصى من التجربة على نحو يمكنني من استلهامها في رؤيتي وتصميمي.

لكن ماذا يعني ذلك أصلاً؟! لست من هذا النوع، يخيل إليَّ أن الناس يولدون روحانيين أو لا يولدون. وأنا لست روحانية، لم أمر بأي تجربة روحية من قبل، ولست متأكدة من أني سأفعل، لا أعتقد أن لديَّ «البرامج» الخاصة بها. ولدت بسوفت وير مختلف، وكل شيء على ما يرام. لكن عليَّ الآن أن أحاول تحميل بعض البرامج التي تساعدني في ذلك.

كنت أؤمن بوجود «روح» بلا جدال، لكن لم أكن روحانية. أعتقد أن الفرق يكمن في أن الروحانية تتطلب تواصلاً مع هذه الروح، أنا أعرف الكثير عن «وسائل التواصل»، كل جيلي يعرف هذا أكثر من أي جيل مضى، لكن التواصل مع الروح لم يكن مما نعرفه.

لم أكن ملحدة إطلاقاً، ولم أكن لا أدرية أيضاً، ولكني لم أكن «مؤمنة» بالمعنى الذي تفهمه أمي من الكلمة، كنت أؤمن بوجود «شيء ما»، قوة كبيرة في هذا الكون، الأديان وسائل تواصل مع هذه القوة، وهذا لا يجعلني ضدها ولكنه لا يجعلني مع واحد منها أكثر من سواه.

أمي لم تكن متدينة كثيراً، لكنها كانت مؤمنة بمعنى عام، مؤمنة بتفاصيل كثيرة عن الحساب والجنة والنار لا أجد نفسي منجذبة لها. لا أرفضها. ولكن لا أجد أنها تعنيني كثيراً. يبدو أنها تحتاج إلى برنامج آخر لا أملكه، ربما كان نفس برنامج الروحانيات.

أمي تصوم رمضان، وتصلي فيه، وتقرأ القرآن. علمتني الصلاة في رمضان عندما كنت في العاشرة، وطلبت مني أن أجرب الصيام. وجربته. كان منهكاً جداً في تلك السنة. قرابة 18 ساعة. فلم أكمل. لاحقاً أخذت أصوم أياماً متفرقة. أول يوم، ويوم آخر أنساه دائماً ضمن الأيام الأخيرة، تذكرني هي به. عدا التعب في الساعات الأخيرة، كنت أجد الصيام مفيداً لجسدي، أتخلص خلاله من كل السموم، وهو أمر أقدره كثيراً كنباتية، وكنت أفهم أيضاً الجانب الاجتماعي في تجمع العائلة عند كثيرين، لكني لم أجد روحانية فيه. حتى الصلاة، قمت بها عدة مرات، في مناسبات مختلفة، لم أجد الكثير فيها. حاولت أن أقرأ في البوذية، وأن أجرب «اليوجا».. لكن لم أجد الكثير أيضاً. ربما تركيبتي النفسية والعقلية لا تعرف الوصول إلى هذه المناطق.

بالنسبة لي، كانت الرياضة لها فائدة تشبه فوائد الروحانية لآخرين.. أن أقوم برياضة الجري بينما أستمع لموسيقى الترانس في سماعات أذني، كان ذلك يخلصني من الكثير من طاقتي السلبية.

بطريقة ما، هذا كان أقرب شيء أعرفه للصلاة، بالمعنى الذي يفهمه الناس من الشعائر.

ولم أكن منتظمة في ذلك أيضاً، للأسف.

لكن العمارة كانت «روحانيتي» الخاصة التي أوصلتني إلى «نيرفانا»[1] من نوع خاص، في لحظات خاصة ونادرة، منحتني رعشات داخلية لا يمكن إلا أن أكون قد استشعرتها من خلال «روحي». «الهرم الزجاجي» لمتحف اللوفر في باريس، متحف غوغنهايم في بيلاو إسبانيا، الفرن الشمسي العملاق في أوديلو فرنسا، كلها منحتني شعوراً لا يمكنني وصفه.

ولكنه يشبه الوصف الذي يتحدثون فيه عن الخشوع في الصلاة.

* * *

لكي أدخل في المزاج الروحاني لجأت إلى غوغل لعلي أجد بعض الإرشادات.

وجدت عناوين تبدو «واعدة» جداً. مثل «خمس نصائح صغيرة لتكون روحانياً». لكن المحتوى كان يمكن أن يكون مجدياً لو بدأت بتطبيق النصائح منذ عمر السبع سنوات. أن أحب كل الناس، أن أشكر كل شيء، أن أعيش على نحو صحي، أن أتأمل.

وكانت هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لي، مثل: دع الروح تقودك! إذا كنت أعرف كيف يحدث ذلك لماذا أبحث عبر غوغل عن إرشادات للروحانية!

لدي 4 أيام فقط قبل موعد السفر لكي أكون روحانية، وهذه النصائح كان يجب أن تبدأ قبل سنوات.

بدا لي الأمر مثل بحث الفتيات عن أي طريقة لتخفيف 10 باوندات من أوزانهن قبل موعد ليلة السبت القادمة.

بل ربما أصعب.

---

(١) النيرفانا: أعلى مرحلة من مراحل التخلص من المعاناة والانفصال عن المحيط الخارجي في البوذية وتحدث بعد حالات تأمل طويلة.

على اليوتيوب وجدت مئات نتائج البحث عن الروحانية، شاهدت مقطعاً رائجاً بملايين المشاهدات، لكني شعرت منذ اللحظة الأولى أن المتحدث كان دجالاً، شاهدت مقطعاً آخر وتكرر عندي نفس الشعور. ربما أنا أشك أكثر مما يجب لكي أتأثر بهذه «الروحانيات»؟

قررت أن أقرأ عن المناسك والطقوس التي تؤدى خلال العمرة، أبحث عن معانيها وأهدافها، عن تاريخها، وماذا يريد الناس منها أن تحقق لهم.

بحثت في الإنترنت، وجدت كمية كبيرة من المقالات والكتب، فقدرت أن الحصول على المعلومات خلال أيام أربعة يبقى أسهل من البحث عن زر التحويل إلى الروحانية.

* * *

أرسلت لي « كلوي» - صديقتي في الثانوية والتي تدرس الآن في جامعة تيسايد في نفس ميدلزبره - رسالة على الإنستغرام.

«هل من خطة للكريسماس؟ سنذهب إلى حفل «Kings of Leaon» في الـ 23 من ديسمبر، جنيفر اعتذرت قبل قليل، ففضلت أن أخبرك».

بالتأكيد، آتي دوماً كخيار أخير بالنسبة لهن. في النهاية اسمي مريم بكر آغا.

«لا للأسف، لن أكون هنا».

«أها إجازة خارج البلاد.. أين؟».

«مكة، في العربية السعودية».

أرسلت كلوي وجهاً يتفكر.

ثم قالت: هل أنت جادة؟

رددت: نعم، أخطط لذلك منذ فترة.

استلمت ثلاثة وجوه مصدومة.

ما الأمر؟ كتبت لها، وقد بدأت تستفزني.

«أليس هذا هو المكان المقدس للمسلمين الذي تذبح فيه الحيوانات؟».

«نعم، هو المكان المقدس لنا، والذبح لا يحدث دائماً، فقط في موسم معين».

«ألا تزالين نباتية يا مريم؟».

«نعم، لا أزال، أنا فيغان أساساً، لماذا؟».

«لا أعرف، كنت أعتقد أنكِ يجب أن يكون لديك موقف مختلف، على الأقل يمكن مقاطعة المكان».

«لماذا لا تقاطعين كل الفنادق والخطوط الجوية والمطاعم التي تقدم اللحوم أيضاً؟ لماذا مكة بالذات التي عليَّ أنا أن أقاطعها؟».

«لا ليس الأمر هكذا أبداً، لكني لم أكن أعرف أنكِ متدينة، أو أي من أسرتك، هل ستضعين النقاب؟».

يا للسؤال. لم يكن النقاب وارداً، ولا الحجاب. لكن مجرد معرفتها أني سأذهب لمكة جعلتها تنزل كل ما ذهنها من أفكار جاهزة عليَّ.

«ربما سأفعل، عليكِ أن تنتظري إلى حين عودتي لمعرفة الأمر».

جوابي صدمها أكثر، كانت تريد جواباً من نوع: بالتأكيد لا، ماذا تظنين، هل جننت؟ لو كنت أتحدث مع زميلة مسلمة لربما قلت لها ذلك. لكن مع كلوي، لن يحدث.

كتبت: أياً كان ما ترتاحين له، المهم أن لا يكون قد حدث تحت ضغط.

يا للدراما. كما لو كنت قد أخبرتها أني سأنضم إلى داعش.

كتبت لها: بالتأكيد، لا تقلقي، إنجوي ملوك ليون.

كتبت لي: أنتِ أيضاً، إنجوي.. مكة.

ميادة 3

صرخت مريم بصوت مرتفع «بحق يسوع يا أمي».

فكرت بمنظرها وهي تصرخ هكذا أمام الكعبة بين جموع المعتمرين. غالباً ستكون العواقب وخيمة.

قلت لها: إياكِ ثم إياكِ أن تقولي «بحق يسوع» هناك في مكة. إياكِ.

ردت بعصبية: كيف أخفيت عني أن عمي معماري؟!

كانت تسأل عن عمها وجدها بينما كنت أعد حقيبة السفر، حاولت أن أتجنب هذا التفصيل تحديداً في أسئلتها، لكن كنا سنصل له بكل تأكيد.

«لم أخف شيئاً، أنتِ لم تسألي، هناك فرق».

«حقاً؟ هل أنتِ جادة أمي؟ لم تتذكري الأمر عندما قررت أن أدرس العمارة؟ كل تلك المناقشات وقتها عن مجال دراستي لم تتذكري خلالها أن تقولي له إنه كان معمارياً.. بل ولديه دكتوراه في العمارة.. هل كان هذا هو السبب الذي حاولتِ دفعي فيه بعيداً عن هذا التخصص؟».

«مريم، هل يمكن أن تضعي خيالك في تصميماتك فقط؟ لا تستخدميه في تفسير كل شيء يدور بيننا».

«هذا ليس خيالاً، محض منطق، لقد أخفيتِ ذلك عني عمداً». قالت وهي تضغط على أسنانها بعصبية.

«والآن علمتِ، ماذا تغير؟ كيف يمكن أن يؤثر الأمر عليكِ؟» قلت وأنا أعلم أن لا شيء سينفع معها.

«سيختلف بالتأكيد، تقييمي لعائلة أبي التي لا أعرف عنها شيئاً سيكون مختلفاً لو علمت أن عمي كان معمارياً. نحن المعماريون لدينا رؤية مختلفة

للأشياء، حتى لو كانت رؤى كل معماري تختلف عن الآخر، إلا أن مجرد الاختلاف يمنحنا رابطة مشتركة، كيف تحرمينني من معرفة ذلك عن شخص من أسرة أبي؟». قالت كما لو أن كلمة تقولها كانت بديهيات لا يختلف عليها اثنان.

هذا بالضبط ما كنت أحاول أن أهرب منه عندما كنت أحاول أن أدفعها بعيداً عن العمارة، وعندما لم أخبرها عن عمها. هذه الخطابات طيلة الوقت. النقد المستمر لكل شيء. الشعور بالفوقية. كنت خائفة من تكرار تجربة سعد. خائفة أن تكون الدراسة المعمارية هي السبب في هذا. حتى الآن لا أعرف إن كانت الجينات أم دراسة العمارة هي التي تجعلهم هكذا. ربما الاثنان معاً.

«أنا آسفة مريم، الخطأ خطئي، لديكِ الآن فرصة لتتعرفي على عمك وعلى الرابطة السرية التي تجمعكما». قلت هذا على أمل طي الصفحة.

«هل كان معمارياً جيداً؟». سألتني متجاهلة سخريتي.

«لا أعرف، يقولون كان جيداً لكن هذا لم يكن مهماً بالنسبة لي». وددت أن أقول لها إنه ربما كان معمارياً جيداً، لكنه كشخص لم يكن يُطاق، وهذا ما كان يهمني كزوجة لأخيه.

«أرجو أن لا يكون تفكيكياً». قالت مريم بجدية.

لم أكن أعرف إلى أي مدرسة معمارية ينتمي سعد، كانت بعض تعليقاته «مفككة» لي بالفعل لكن وصف «التعقيدي» أو «الحلزوني» سيكون أقرب له، لو كان هناك مدرسة بهذا الاسم.

قلت لها: مريم، هذا عمك، هل يمكن أن تتعاملي معه أولاً على هذا الأساس، اعتبريه مثل بقية البشر، مهندس مدني أو مهندس حاسبات أو محاسب أو طبيب، لا تحاولي إدخال كلمات «الفضاء» و«المساحة» و «روح المكان» و «ملمس المكان» إلى العلاقة مع الأقارب، أو إلى العلاقات من أي نوع».

هزت مريم رأسها بيأس كما لو أنها تقول «لا فائدة منك» وقالت: ليت الأمر بهذه السهولة يا أمي، ماذا عن جدي، ماذا كان يعمل؟».

قلت لها: كان عسكرياً، ودرس في الكلية العسكرية.

كما لو حدست أن هناك تكملة للقصة، سألتني: أين؟

قلت باستسلام: في بغداد وساندهرست وأكمل الدكتوراه في...

قاطعتني: ساندهرست؟! الأكاديمية الملكية العسكرية في ساندهرست؟

«نعم، هل يوجد غيرها؟». حاولت أن يبدو الأمر طبيعياً.

«نفس الأكاديمية التي يدرس فيها أعضاء العائلة المالكة وقادة الدول في العالم؟».

قلت وأنا أتظاهر بتعديل الأغراض في الحقيبة: نعم، ولكن الدكتوراه أخذها من القاهرة على ما أعتقد.

قالت مريم: هذه المرة فعلاً بحق يسوع يا أمي. بحق يسوع ومحمد وبوذا وكل الآخرين.

قاطعتها: بوذا ليس معهم.

سألت: هل كان من رجال صدام؟

هززت رأسي: إطلاقاً، وكان يعتبر من «المغضوب عليهم» بدرجة ما، إذ أعطى محاضرة فُهِمَ منها أن قرار حرب إيران لم يكن صائباً من الناحية العسكرية، فأحيل إلى التقاعد.

قالت بلوم: كيف يمكن أن تنسي أشياء كهذه عن أهل أبي؟

هززت رأسي بأسى: والآن ماذا؟ هل ستحبينهم أو تحترمينهم أكثر لأن جدك تخرج من ساندهيرست ولديه دكتوراه؟ هل كنت ستحبين أبي أقل لأنه لم يكمل دراسته، كيف تفكرين؟!

ردت بحدة: ليس هذا هو الأمر، لكني أستحق أن أعرف عن جذوري.

رددت بغيظ: عرفتِ الآن.. ما الذي اختلف؟

قالت: لا أفهم لماذا لم تخبريني بشيء عنهم.. لا أصدق أنكِ نسيت.

«ولماذا سأتعمد ذلك؟».

هزت رأسها وقالت: أياً كان. كنت أستحق أن أعرف.

«العالم لا يدور حولك طيلة الوقت مريم، أنتِ فهمتِ أن الأمر يتعلق برغبتي في أن لا تعرفي أنتِ، ربما الأمر لا يتعلق بك، بل بي، برغبتي في أن لا أتذكر».

عالمي كان يدور حول مريم طول الوقت. لهذا السبب تحديداً لم أتحدث لها.

«أستحق أن أعرف». قالت بإصرار.

تستحق؟ هل نحصل دوماً على ما نستحقه؟ مريم في هذا العمر البريء الساذج تتوهم أنها ستحصل على ما تستحقه.

«الحياة أكثر تعقيداً من أن تتوقعي الحصول على ما تستحقينه.. الأمر ليس بالورقة والقلم».

«ماذا يعني هذا؟».

«يعني أنني مهما قلت لكِ، فلن يمكنك أن تتخيلي كيف كان الأمر في بغداد عندما قُتل أبوك، وكيف كان الأمر بالنسبة لي، فجأة أصبحت وحيدة ومسؤولة عنكِ بعدما كان أبوك يفعل كل شيء، هل كنت أستحق هذا؟ هل كان أبوك يستحق هذا؟ لا أعتقد».

سكتت مريم واحتضنتني كما تفعل دوماً عندما لا تجد ما تقوله.

أكملت أنا: ما حدث في بغداد بقي جرحاً ينزف في داخلي. موس عالق في بلعومي. لا أستطيع أن أخرجه، ولا أستطيع أن أبتلعه. لم يكن أمامي سوى

أن أسكت عن أي شيء، أي ذكرى أتحدث عنها كانت تنكش جرحي، تحرك الموس».

ثم همست لها: لم أتعمد إخفاء شيء عنكِ. لكن تعمدت أن أتجنب ألمي.

سألتني: هل التأم الجرح؟

«ليس تماماً. سأكذب لو قلت إن الألم لم يتغير، وأن وجعي بعد كل تلك السنوات لا يزال هو هو، الجرح لم يعد ينزف، هذا صحيح، لكن الندبة التي خلفها شوهتني. غيرت مني. أصبح وجعها مختلفاً».

«ما الذي تغير الآن؟ لماذا تريدين الآن مواجهة كل ما فات؟».

«لأن عدم مواجهته تسببت بجرح آخر، وأخشى أن يكون هذا الجرح ليس عندي فقط هذه المرة».

احتضنتني مريم بشدة وبكينا معاً، اعتذرت مريم مني، واعتذرت منها أيضاً.. كنا بحاجة لهذا كله، البكاء والأحضان والاعتذار.

نامت مريم معي، قبل أن تنام سألتني: هل أحببتِ أبي؟

قلت لها: نعم.

عادت تسأل: كثيراً؟

هززت رأسي بـ «نعم» ولم يخرج صوتي.

لم أقل لها إني لا أزال أفكر فيه، لا يمكن أن يكون قد مر يوم واحد عليَّ طيلة هذه السنوات دون أن أتذكره ربما عشر مرات.. أتساءل: كيف يمكن أن يكون شكل حياتنا معاً؟ وهل كنا سننجب المزيد من الأطفال؟ أتساءل: كيف سيكون شكله لو بقي حياً؟.. كبرت أنا وزاد وزني، وبقي هو في ذاكرتي شاباً وسيماً إلى الأبد، بالضبط كما كان عندما أحببته بصمت منذ أن كنت في الثانوية عندما رأيته في الصور مع أخي، ثم أحببته أكثر وهو يركض معنا

في مستشفى «مدينة الطب» لإنقاذ أبي، لم أقل لها إني أخذت صمتي إلى الكاظم، باب المراد، وتوسلت لله به أن يكون عمر من نصيبي.

لم أقل لها إني لا أزال أحلم بعينيه فأبكي في حلمي، عيناه اللتان تعلقت بهما منذ رأيته أول مرة، تلك الخضرة الداكنة في عينيه قيدتني وشدتني إليه.. راح هو وبقيت أنا مقيدة.. لم أقل لها إني لا أزال أحياناً أستيقظ من النوم ولا أجده، فأعتقد أن لديه خفارة في المشفى.

لم أقل لها إني أحياناً، حتى اليوم، أفكر إن كان هذا الذي حدث كله كابوس، وأني سأستيقظ منه، لأجده بجانبي.

لا أصدق أن كل عمري معه، مر بسرعة، مثل ليلة ويوم.

غفى رسمك بعيني من الصبا لليوم، وطيوفك ضيوفي بصحوتي والنوم، ونثرت العمر بدروبك وأقول تدوم، ما ظنيت، ما ظنيت، عشقك عشق ليلة ويوم، ليلة ويوم.

* * *

قالت لي مريم أكثر من مرة، إنها لن تتزوج زواجاً تقليدياً مثل زواجي أنا.

لم أسمع أبداً بقصة زواج مثل زواجي. أحببت عمر دون أن يعرف عن وجودي أصلاً. كان صديقاً لأخي الذي يكبرني بـ 7 سنوات، وكنت بالنسبة له طفلة، لا مراهقة حتى! بينما كان هو شاباً في أوائل العشرينات تتمناه أجمل فتيات كليته، تعلقت به أولاً من صوره مع أخي حيدر في الجامعة، تعلقت بعينيه بشغف مراهق، وعندما كان يأتي إلى حيدر في بيتنا كنت أتلصص عليهما من ثقب الباب، وأنسج في ذهني حكايات وقصصاً وأفلاماً ومسلسلات وأغاني، لم ينتبه أي أحد لكل هذا، ولم أخبر عمر بكل هذا حتى بعد زواجنا. تقمصت حتى النهاية دور البنت الرزينة التي تفاجأت باهتمام صديق شقيقها بها!.

عندما سافر حيدر انقطعت أخبار عمر تماماً، كنت لا أزال في الثانوية العامة وفكرت في أن الوسيلة الوحيدة التي تقربني منه هي أن أدخل كلية

الطب أو طب الأسنان، أو حتى صيدلة، أي شيء من المجموعة الطبية يجعل هناك أملاً ولو ضئيلاً بأن تلتقي دروبنا مرة أخرى.

لكن معدلي لم يأت بأي شيء في المجموعة الطبية، وانتهى الأمر بي إلى هندسة الحاسبات، وكان عليَّ أن أطوي صفحة أحلامي بعمر.

بعد عامين، أصيب والدي بجلطة ونقلناه إلى مستشفى مدينة الطب، وهناك التقى دربي بدربه مجدداً، لكن كنت قد أصبحت فتاة جامعية يمكن أن ينظر لها عمر. رغم سوء وضع والدي، إلا أن موقف عمر ورجولته ومساعدته لنا نقل مشاعري من المراهقة الساذجة إلى الحب الحقيقي. تمنيت أن لا يختفي من حياتي بعد وفاة أبي، وذهبت إلى الإمام الكاظم أحمل مرادي هذا، كان الأمر يبدو شبه مستحيل بحسابات الواقع والمنطق، زواج سني بشيعية يمكن أن يحدث في حالتين: وجود سوابق في العائلة، أو قصة حب جارفة - أو حتى غير جارفة - المهم أن يكون هناك حب، أما عندما لا تكون هناك قصة حب ولا تكون هناك سوابق مماثلة في عائلة الفتاة، فالأمر صعب. ولم يكن لديَّ سوابق في أسرتي. ولم يكن يبدو على عمر أنه سيصبح روميو فجأة.

لكن عمر لم يختف بعد وفاة والدي، أخذ أولاً يتواصل مع ميثم باستمرار ويمر على والدتي ويسألها إن كنا بحاجة لشيء، مرة دواء الكوليسترول ومرة لفحص السكري، بالتدريج أصبح يزورنا أكثر وصرت أشعر أن مشاعرنا ربما تكون متبادلة. ثمة شيء في عينيه كان يقول لي ذلك، واحترمت جداً أنه كان يراعي حساسية كوني شقيقة صديقه. أحببته أكثر وأكثر. ثم جاء اليوم الذي فاتحني فيه.

ثم تقول مريم: لن أتزوج زواجاً تقليدياً مثلك!

بالنسبة لي، كانت قصة زواجي مثل قصص ألف ليلة وليلة. لا شيء فيها تقليدياً.

ليتها كانت قصة تقليدية، بنهاية مختلفة عن التي حدثت.

رحمة الله عليك يا عمر.

سعد 3

«أيام معدودات» تفصلني عن اللقاء بمريم.

أقضي الوقت في التفكير بالأمر كطفل يخطط لإجازته. في الحقيقة، كنت أقضي اليوم في أحلام يقظة متواصلة.

كان الأمر رائعاً لدرجة أني كنت أخاف أن تتصل ميادة في أي وقت لتلغي السفرة، أن يحدث أي طارئ فيطيح بأحلامي أرضاً.

بل إني كنت أستيقظ في الليل وأراقب أبي في نومه لأرى إن كان لا يزال يتنفس.

كنت أخاف أن يموت في هذه الفترة تحديداً، فلا يعود بإمكاني أن أذهب إلى مكة.

وكنت أشعر بتأنيب ضمير على كل الجبهات.

كنت أرغب في الذهاب إلى مكة منذ أكثر من عشر سنوات، لكن هذا كان خارج كل الإمكانات، لم يكن من الممكن أن أترك أبي، لا مع الخادمة ولا مع أي أحد، كنت وحدي معه، أفعل كل شيء له، الخادمة تقريباً للطعام فقط والبقاء معه عندما أخرج. لم يكن من الممكن أن أصطحبه معي إلى العمرة، لم يكن هذا قد ورد في ذهني أصلاً.

بعد الذي حدث لعمر، ووفاة أمي ومغادرة سوسن، وجدت نفسي محاصراً بكل شيء، بفشلي وعقمي، وكل ما حدث حولي. كنت محاصراً وأتساءل: هل إلى خروج من سبيل؟

وكان الدين هو المنفذ من ذلك الحصار.

قبل هذا كله، كنت غير مكترث به من الأساس، وكنت أعيش حياة بعيدة عن الدين، دون عداء. كنت ببساطة لا أرى أني بحاجة له. كنت مكتفياً بنفسي، كانت «الأنا» عندي أكبر من أن تحتمل فكرة الخضوع لأحد حتى لو كان الله. وأسوأ من هذا كانت (الأنا) أكبر من أن تقبل أن تؤمن بما يؤمن به «الناس العاديون»، وكل الناس كانوا عاديين بالنسبة لي.

عمر هو المتدين في العائلة، هو أول من أخذ يصلي بانتظام ويذهب إلى المسجد عندما يستطيع، جعل أمي تصلي، وأقنعها لاحقاً بالحجاب، وجعل أبي يصلي أيضاً. كان هذا بعد زواجه بميادة بسنة تقريباً، ولم يحاول حسب علمي أن يجعل ميادة تتحجب.

كنت أصوم رمضان، وأصلي فيه - بتقطع - بحكم العادة، كان كل من في البيت يفعل ذلك قبل أن يكتشف عمر الدين.. سبق لي أن شربت البيرة والويسكي بعدد مرات الأصابع لا أكثر، كما كانت لي تجربة واحدة قبل الزواج. تجربة واحدة مدفوعة الثمن ومقرفة للغاية. لم أعتبرها مقرفة لأنها كانت كبيرة أو معصية، بل لأنها كانت رخيصة، كنت أرى نفسي أعلى وأرقى من أن أفعل ذلك.

لكن عندما حدث ما حدث، وجدت نفسي بالتدريج أذهب إلى الله مليئاً بالطعنات والكدمات والخناجر، لا، لم أكن منكسراً، كلمة الانكسار مخادعة، كنت محطماً، كنت مجرد بقايا، ذهبت إليه زحفاً، كان يمكن أن أذهب إلى اتجاه معاكس تكون فيه نهايتي، لكني زحفت إليه زحفاً، أملاً في أن ينقذني، أن يجعلني أواصل الحياة، أن يجعلني أملك ما أحيا من أجله، أن يجعلني أصمد على الأقل كي أعتني بأبي.

كنت أزحف إلى الله، في الوقت الذي كان فيه كثيرون يتركونه. كنت أمشي إليه عكس السير.

كعادتي، عكس السير.

لكي أكمل الزحف كان عليَّ أن أتصالح مع إحساسي بالفشل، أن أتنازل عن أحلام معمارية شاهقة كانت في بالي، لم يعد بإمكاني تحقيق شيء منها في العراق، كان ذلك واضحاً منذ زمن بعيد، على الأقل منذ الحصار الذي كان لا بد أن يؤثر على العمران والبناء، قررت السفر، لكن فكرت أن وضعي في الخارج سيكون أفضل لو أني حصلت على الماجستير، بعد الماجستير فكرت أن الدكتوراه ستكون أفضل، لا أدري إن كان هذا جزءًا من تأجيل السفر أو تأجيل مواجهة الواقع كما كانت سوسن تقول، لكن زاد الأمر تعقيداً بعد سقوط بغداد في 2003، سافر مشرفي على رسالة الدكتوراه، ثم اغتيل المشرف البديل، كان الكل يختفي، يهرب أو يقتل، كما لو كنت أحمل لعنتي معي.

وعندما حدث ما حدث لعمر، كنت قد أنهيت رسالة الدكتوراه قبلها بأشهر وأعددت أوراقي وأوراق سوسن للسفر، وكنا نؤمل بمستقبل مختلف.. وفجأة وجدت كل شيء ينهار ووجدت نفسي وحدي المسؤول عن أمي وأبي، ثم أبي وحده وقد تدهور ذهنه وأصبح عاجزاً تماماً عن الاعتناء بنفسه.

ثم ذهبت سوسن.

تكالب كل شيء عليَّ، وأكثر الأشياء مرارة في فمي كان ذلك الشعور بالفشل الذي يخنقني حرفياً، لم أحتمل فكرة أني انتهيت لأكون رجلاً في الأربعين من العمر، دون زوجة أو ذرية أو حتى أمل بذرية، يعيش مع والده شبه المقعد في منزل مساحته 800 متر مربع في شارع الأميرات، لديه ثلاث شهادات جامعية لا يعمل بأي منها، ويعيش عالة على ريع عقارات ورثها أبوه عن جده.

كان عليَّ أن أتصالح مع وضعي الجديد، مع الشعور المرير بالفشل، لم يكن من الممكن الاستمرار في الاعتناء بأبي ومواصلة الحياة بشكل عام وهذا الشعور يقتلني.

لجأت أولاً إلى طبيب نفسي. لم يكن لديه أريكة كما تخيلت ولم يستمع لكل ما قلته، كنت لا أزال أتحدث له عن عقمي ولم أذكر شيئاً بعد عن عمر أو أمي أو سوسن.. كتب شيئاً على الوصفة، وقال لي: أراك بعد شهر إن شاء الله.

زولوفت 50 ميلغرام، وفاليوم 5 ميلغرام.

ولا كلمة أخرى.

لم أذهب له بعد شهر. بقيت على نفس الأدوية بنفس الجرعة أكثر من سنة. خلال هذه السنة كنت قد أصبحت أهدأ وأكثر تصالحاً مع ظروفي. أو «تبلداً» تجاهها.

لكن الأهم من هذا أن هذه الوصفة جعلتني أرى نفسي على حقيقتها: مجرد شخص فاشل مليء بأوهام عن ذاته المتضخمة، كان تقييمي لذاتي في أدنى درجاته، وقادني هذا إلى المهدئ الأكبر والأهم: الدين.

ساعدني الدين على تقبل ما وصلت له للخروج من شعوري القاتل تجاه كل شيء. أجبرت نفسي على أن أتعامل مع كل ما مررت به على أنه عقوبة مستحقة عن كل غروري وعجرفتي ونظرتي الفوقية للعالم أجمع، وآمنت أن الحل الوحيد لتخفيف العقوبة هو الاقتراب أكثر من الله.

ساعدني الإيمان بالدين في أن أتقبل ما أنا فيه. يا رب، هذا ما قسمته لي، وهذا ما كتبته لي، وهذا امتحانك لي، أعني على اجتيازه.

ولكي يحدث ذلك كان عليَّ أن أتخلص من أمور كثيرة.

بعد قرابة شهر من الانتظام بالصلوات شعرت بشعور غريب جديد يملؤني، شعرت بالهدوء والسكينة، كمن فاق من بنج عميق. كان الأمر يشبه مفعول الأدوية المهدئة والمضادة للاكتئاب، ولكن من دون الشعور بالذنب الذي كان يزعجني مع الأدوية.

أحسست أن هذا هو الشعور الطبيعي الذي كان يجب أن يكون عندي من الأساس، حاولت أن أتذكر كيف كانت حياتي قبلها، كيف كنت أمضي كل هذا الوقت قبلها، لم أذكر، صدقاً لم أذكر، بقيت لثوانٍ أحاول أن أتذكر كيف كان يمضي اليوم دون كل هذا الذي أفعله.

خلال فترة، تحولت من شخصية عصابية خارجة من روايات ديستوفسكي، إلى شخص يبدو طبيعياً، بسيطاً، يقضي الوقت في الاعتناء بوالده والذهاب إلى المسجد والقراءة.

هل كان الأثر الأكبر في هذا للأدوية ولكني أفضل أن أعزيه إلى الإيمان؟

ربما. لكن ما الفرق؟

المهم أني استطعت مواصلة الحياة من دون أن أدمن على الخمر أو من دون أن أحاول الانتحار، ومن دون أن أسبب المزيد من الأذى لأحد، وأن أستمر في العناية بأبي.

* * *

ذهبت للحجي ثامر، قلت له على الهاتف أني أريد أن أمر عليه للمكتب لأمر مهم.

لا أزال مسكوناً بعقلية أن كل ما نقوله على الهاتف مسجل وهناك من يراقبه. ربما كان هذا اليوم حقيقياً أكثر من أي وقت مضى.

سألته بعد أن أخرج الموظف الذي كان يعمل على الحاسوب وتأكدت أن لا أحد يسمعنا: حجي، أنا محتاج أن آخذ معي بعض المجوهرات.

«مجوهرات؟ ذهب يعني؟ هل تريد أن تبيعها هناك؟ والله لو أمسكوا بك لأصبحنا فرجة، أقل شيء يصادرونها ويسفرونك ويضعونك في قائمة المنع، وربما يضعونني ومكتبي معك في المنع، الناس تشتري من مكة وتبيع خارجها وليس العكس يا أبو سعود[1]».

حاولت إفهامه أني أوصل «إرث» ابنة أخي القادمة من لندن والتي سأراها في مكة بعد غياب سنوات طويلة، وكان يحاول إقناعي أن أشتري لها ما أريد من هناك وربما من الأفضل أن تختار هي بنفسها!

(١) أبو سعود: كل سعد يكنى « أبو سعود» في العراق

«ما أريد أن آخذه له قيمة معنوية، ولا يمكن أن أشتريه من هناك، هو عقد لجدتها المرحومة أمي، وهذه فرصة لكي أعطيها إياه».

«يمكن إدخال أي شيء كمصوغات مما ترتديه النساء عادة، ونستطيع أن نطلب من إحدى السيدات معنا أن ترتديه وتمر به في المطار ثم تعطيك إياه، «لو خُليت قُلِبت»[1] يا أبو سعود، ومتأكد أن هناك أكثر من سيدة مستعدة للمساعدة في ذلك».

أدركت أني لم أشرح الأمر بشكل جيد، أخرجت علبة كنت أحملها معي في حقيبة اليد، وفتحت العلبة أمام الحجي ثامر: هل يمكن لواحدة من الحاجّات معنا في الحملة أن ترتدي هذا الطقم؟

كان طقماً ماسياً مكوناً من عقد، قرطين، وإسورة. ورثته أمي عن أمها، وكانت تقول إن جدها ابتاعه من نبلاء روس في إسطنبول فروا من روسيا بعد الثورة البلشفية.

وكان هناك عقد ذهبي آخر، يحمل اسم مريم بالعربية والإنجليزية، صممته بنفسي وأخذته إلى الصاغة في الكاظمية وشارع النهر والمنصور، إلى أن وجدت من اقتنع أنه يمكن أن ينفذه بشكل جيد.

نظر الحجي ثامر إلى العلبة المفتوحة بفم مفتوح وقال كما لو كان يحدث نفسه: «كما في الأفلام!» ثم نظر لي وقال: هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تبيعها في مكة؟

هذه المرة بدا لي الحجي ثامر كما لو كان يريد أن يكون شريكاً في الصفقة.

قلت له: لا بالتأكيد، هذا إرث المرحومة وأنا أريد أن أوصله لمن يستحقه، لا أكثر.

أحسست أن الحجي ثامر يشعر بالندم لأنه لم يطلب مني أرقاماً أعلى على خدماته في مكة والمدينة، لا بد أنه سيعوضها الآن في خدمة «توصيل المجوهرات إلى مكة».

---

(١) لو خليت قلبت: مثل شعبي يعني أن الأرض لو خليت من الأخيار لقلبها الله.

قال لي: سأتدبر الأمر إن شاء الله، فقط أحضر لي «هذه الأشياء» - وأشار إلى العلبة - قبل ليلة من السفر.

ثم قال: سيكلفك ذلك بالتأكيد ولكن..

قاطعته: بالتأكيد، لا مشكلة.

حيدر 3

قالت لي فاي، المعالجة النفسية التي نصحني بها الدكتور بينيت: كيف تشعر اليوم هايدر؟

قالت ذلك مع ابتسامة أكبر مما يجب. شعرت أنها تريد أن تطمئنني أن الـ 120 باوند التي سأدفعها في نهاية الساعة لن تذهب سدى.

شتمتها وشتمت بينيت أيضاً ولكن قلت لنفسي إن عليَّ إعطاء هذا العلاج النفسي فرصة. لم أكن مؤمناً تماماً به، لكن يبدو أن عليَّ أن أجربه، العقاقير التي يصفها لي الدكتور بينيت كانت في البداية جيدة، خففت من نوبات الذعر التي كانت تنتابني، وخففت من حدة أعراض الاكتئاب وتشتت الذهن والأرق التي كنت أعاني منها، لكن، لا يزال هناك ذلك الشعور المرير في داخلي بكراهيتي لذاتي، شعور لم أتخيل أني يوماً سأعرفه فضلاً عن أن أعاني منه، أو أن أزور معالجة نفسية لأتحدث لها عنه.

قلت لها إني بخير بشكل عادي، كما لو كنت أرد على سؤال في مصعد المستشفى.

قالت لي: هل رأيت ذلك الحلم مجدداً؟

اللعينة! ليتني لم أتحدث عن هذا الحلم، ستفتح كل الملفات والقضايا وتدخل أنفها المعقوف في كل صغيرة وكبيرة. لا أصدق أني أدفع لها كي تفعل ذلك!

«نعم، رأيته عدة مرات، باختلافات بسيطة».

منذ أشهر وأنا أرى أبي في المنام. مرات أراه كما أذكره في طفولتي، ومرات أراه وقد شاخ وكبر كما لم يحدث أني رأيته، أكثر المرات رأيته وقد أعطاني

ظهره، وهو يسقي حديقة بيتنا في الكرادة، حاولت أن أقترب منه وأحدثه لكنه كان يدور بحيث لا أرى إلا ظهره، لم يكن يشيح بوجهه عني، كان يتجاهلني.

وفي كل مرة كنت أستيقظ بمزاج سيئ، ويكون يومي كله سيئاً للغاية.

«كيف كانت علاقتك بأبيك هايدر؟».

«كانت طبيعية تماماً، جيدة، كنت أحبه وأحترمه، علمني أشياء كثيرة، كان كريماً وعطوفاً، كان عصبياً أيضاً وكنا نتجنب إغضابه».

«ماذا كان يحدث عندما يغضب؟»

فكرت: كان يحدث ما يعتبر جريمة في هذا البلد.. جريمة «عنف منزلي» تحتاج إلى «محامي» ليستعمل القانون لتبرير أن هذا العنف كان «عقوبة مناسبة».

«كان وقتاً مختلفاً ومكاناً مختلفاً، الأمر عندنا لم يكن يؤخذ على النحو الذي ينظر إليه هنا، فلنقل إن المجتمع هناك كان يعتبر ذلك أمراً طبيعياً، على الأقل أحياناً، لم يكن الأمر يؤثر على مشاعرنا تجاه الأب أو علاقتنا به». قلت وأنا أحاول أن أشرح لها أن مشكلتي ليست مع أبي، وبالتأكيد ليست مع تأديبه لي.

ابتسمت فاي متظاهرة بالتفهم «بالتأكيد، حتى هنا وحتى الآن، هناك من يبرر الأمر ويدافع عنه».

قلت لها: بالتأكيد، الآباء يريدون مصلحة أبنائهم، هذا طبيعي جداً.

ردت كما لو كانت قد أوقعت بي: الفرق أننا نسمع هذه الحجج من الآباء عادة، وليس من «الضحايا»، هل فكرت بهذا الأمر من قبل؟

هكذا أصبحت ضحية لأبي، إذا استمر الأمر على هذا النحو سأكون مازوشياً بعد قليل.

«لا، لا أرى الأمر على هذا النحو إطلاقاً، بل أرى أن كل ما فعله كان من أجلي ومن أجل مصلحتي». قلت بحدة وأنا أفكر أن مصلحتي بالنسبة له

كانت دراستي أولاً وأخيراً، دراستنا جميعاً، كانت لديه مشكلة مع كونه لم يكمل الدراسة بسبب وفاة أبيه، وأظنه لذلك اختار أمي وقد كانت جامعية ومدرسة للغة العربية عندما تقدم لها، كان يريد أن يعوض ذلك بزوجة تدفع أولاده دفعاً إلى الدراسة، وقد فعلت وبشدة. كان يفخر بي لأني أول من دخل كلية الطب في الأسرة كلها، لم يكن في آل الباقر كلهم طبيب قبلي، كانت شدته بالأساس منصبة على حماية مستقبلي الدراسي، عندما دخلت كلية الطب أصبح متساهلاً أكثر، وعندما اطمأن أن ما كان يمكن أن يدفعه إلى ضربي أيام الثانوية لم يعد يؤثر على نجاحي أصبح يغض النظر أكثر.

«هل يمكن أن تعد المرات التي ضربك فيها أبوك على نحو ترك فيها ضربه أثراً على جسمك؟» قالت فاي وهي تحاصرني، كنت أعرف أن هذا الضرب تحديداً هو الذي يعتبر جريمة هنا.

تذكرت العلامات المهمة، عندما اكتشف أني أدخن، عندما وجد شريط فيديو إباحي في حقيبة مدرستي، عندما قالت جارة لنا أني عاكست ابنتها، عندما سرقت سيارته السوبر صالون الجديدة وذهبت لأدور بها حول «ثانوية دجلة للبنات»، عندما استدعاه معاون المدير في ثانوية كلية بغداد.

كنت أستحق الضرب في كل تلك الحالات، حسب مفاهيم أبي طبعاً، باستثناء أن الفتاة هي التي بدأت بالمعاكسة، وأن استدعاء المعاون كان لكل أولياء الأمور في الخامس ب، لأن مدرس الفيزياء شكا الشعبة كلها، أغلب أولياء الأمور أصلاً لم يحضروا.. أبي جاء راكضاً وهو يعتقد أن الأمر جاد وحقيقي ويتعلق بمستواي الدراسي، وكانت النتيجة أنه ضربني ضرباً مبرحاً لأني سودت وجهه.

قلت لها بثبات وأنا أنظر بعينيها مباشرة كي لا يفضح جسدي الكذبة: «لا، لم يكن ضربه من هذا النوع، لم يكن يترك أثراً».

قالت لي: هذا عظيم، دعني أسالك شيئاً آخر، في المرة السابقة أخبرتني أنك عندما كان أبوك على فراش الموت لم تستطع الذهاب إلى إيران».

قاطعتها بحدة: العراق! العراق وليس إيران!!

كنت أضيق ذرعاً بالصورة الذهنية عند العرب الذين يتوهمون أن كل الشيعة موالون لإيران تلقائياً، ثم تأتي هذه الغبية لتقول إيران بدلاً عن العراق.

كنت عدائياً جداً في ردة فعلي على ما يبدو، لذا بان عليها الحرج وهي تصلح الأمر: «آسفة جداً، خطئي بالتأكيد، خطي ليس جيداً، تعرف أنه حرف واحد فقط الذي يفرق بين البلدين».

قلت في نفسي: أعرف أيتها الساقطة الغبية.

أكملت: «عندما لم تذهب إلى العراق أثناء احتضار أبيك، هل تذكرت تلك المرات التي كان يضربك بها؟ هل مر الأمر في ذهنك؟».

تباً لك يا ساقطة. سببتها بأقذع ما أعرف من ألفاظ بالعربية والإنجليزية. استعرضت معجم السباب في قلبي. الآن تريد أن تجعل الأمر كما لو أني لم أذهب إليه وهو يموت لأنه ضربني عندما كنت في الثانوية! تريد أن تجعل الأمر كما لو كان تصفية حسابات، وأن الأمور هكذا انتهت وعليَّ أن أطوي الصفحة.

فكرت للحظات أن أقوم عن مقعدي وأضربها. تخيلت عناوين الصحف صباح الأحد القادم: طبيب استشاري مسلم يضرب معالجته النفسية.

فكرت أن أقول لها إنها على حق، وكيف لم يخطر ببالي الأمر، وأنها معالجة عظيمة ثم أقوم وأخرج.

لكن فكرت أنها ربما ستصدق ما أقوله وتعتبره إنجازاً لها.

قلت لها وأنا أتميز غيظاً: أخبرتك في المرة السابقة أني لم أستطع الذهاب لوجود خطر عليَّ، لعلك كتبت ذلك خطأً في ملاحظاتك، آنذاك لم يكن لديَّ جواز سفر بريطاني، لو ذهبت للعراق لألقي القبض عليَّ بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية، وكنت سأسجن وربما تقطع أذني، فهمتِ؟».

الطريقة التي قلت «فهمتِ» بها، كانت أقرب إلى «فهمتِ يا غبية؟».

كتبت شيئاً في أوراقها، لا بد أنه شيء عن كوني عدوانياً جداً في هذه الزيارة، وقالت: آه فهمت أنا آسفة.. لم يكن ذلك واضحاً لديَّ.

قلت في نفسي: ولن يكون أبداً.

* * *

وجدت نفسي أقود السيارة بعيداً عن ميدلزبره. كنت أحتاج إلى وقت أنفرد فيه بنفسي.

تذكرت تلك الأيام العشرة التي سبقت وفاة أبي.

19 حزيران 1993، السبت، أستيقظ على رنين الهاتف، صوت عاملة البدالة من بغداد يقول: عيني، مكالمة من بغداد.

لم تكن هناك اتصالات دولية مباشرة من المنازل آنذاك، منذ أن قصفت البدالات في الحرب قبل سنتين من هذا الوقت. من يريد أن يتصل بالخارج عليه أن يذهب إلى البدالة المركزية ويعطي الرقم الذي يرغب بالاتصال به ويقف بالدور لينتظر تحصيل عاملة البدالة الرقم له.

سمعت صوت أمي على الطرف الآخر، منذ أكثر من أربعة أشهر لم أسمعه، كان أخي ميثم يتصل عادة، أما أمي فكان وقت دوام البدالة لا يناسب عملها، وكان الذهاب إلى الدوام المسائي بعد عملها ليس يسيراً. فكرت أن العطلة الصيفية قد بدأت وصار بإمكانها الذهاب إلى البدالة صباحاً.

صحت بأمي: مشتاق يا أمي، كيف حالكم جميعاً؟

صوتها كان مختنقاً جداً وهي ترد، قالت: الحمد لله، لكن صوتها كان يقول أيضاً أن هناك شيئاً خلف المكالمة.

«أبوك يمّه حيدر بالإنعاش من ثلاث أيام».

ثم انفجرت باكية.

لم أر أو أسمع أمي تبكي من قبل. مديرات المدارس لا يبكين. ولا حتى مدرسات اللغة العربية. دوماً قويات وحازمات، مات والدها وكنت صغيراً ولا أذكر أنها بكت، حزنت ولطمت في العزاء مع اللاطمات وارتدت السواد لسنة أو أكثر، لكن لا دموع، على الأقل ليس أمام أحد، الست سعاد الدباغ لا تبكي ولا تظهر ضعفاً أمام أي شخص.

لكن هذه المرة كانت تعول وتبكي. حتى كلامها تغير، لم أسمعها تقول «يمه» من قبل، على الأقل ليس هكذا.

أخذت ميادة منها الهاتف، أبي أصيب بجلطة قلبية قبل ثلاثة أيام، هو حالياً في الإنعاش في مدينة الطب، في غيبوبة، لم يستيقظ ولم يتكلم، صديقي عمر بكر آغا يعمل حالياً في مدينة الطب وهو معهم خطوة بخطوة، ويقول إنه سيكون بخير، ويريد نقله إلى مستشفى الشهيد عدنان أو إلى دار التمريض الخاص إذا بقيت أموره مستقرة.

كنت أفكر في نفس الوقت أن كل مكاتب حجز الطيران مغلقة لأنه السبت، لكني أستطيع أن أكون خلال بضع ساعات في هيثرو، إذا كنت محظوظاً سأجد حجزاً على الملكية الأردنية التي تنطلق عند منتصف الليل، غداً صباحاً أكون في عمان، ظهر الإثنين أكون في بغداد.

خطفت أمي الهاتف من ميادة وهي تقول كما لو أن قلبها أخبرها بما أفكر به: «وِداعة أبوك الذي بين الحياة والموت في المستشفى، «لا تجي»، يحبسوك حبيبي إذا جيت، احنا موجودين وصديقك عمر الله يعطيه الصحة والعافية ما مقصر أبداً».

أخذت ميادة الهاتف من أمي وقالت بحدة لم أعهدها في صوتها عندما تحدث شقيقها الأكبر: حيدر، لا تأت، «مو ناقصين» يلزموك على الحدود.

سمعت صوت أمي تقول لها: قولي له «وداعة[1] أبوه» الذي بين الحياة والموت لا يجي.

(١) وداعة فلان: أي بمعزته باللهجة البغدادية، ويعتقد أن المعنى مشتق من الوديعة.

أقسمت عليَّ بمعزته عندي، وقالت - أنه بين الحياة والموت - وطلبت مني أن لا أذهب.

ذهبت إلى لندن بكل الأحوال، وجاءت معي أميلي التي راعها منظري بعد المكالمة، كنا نعيش معاً منذ أشهر فقط، وقرّب كل ما حدث بيننا بشكل كبير.

ذهبت إلى بيت خالي في لندن، كنت أريد أن أكون بقرب أي أحد من عائلتي، لم يكن ممكناً الاتصال المباشر ببغداد، لكن خالي قال إنه يعرف موظفاً في القنصلية العراقية يمكنه أن يفعل ذلك لنا، كان علينا الانتظار إلى يوم الإثنين الذي بدا بعيداً كيوم القيامة.

يوم الإثنين اتصلت مائة مرة ببيتنا ببغداد ولم يرد أحد. اتصلت ببيت خالتي فردت ابنتها وقالت لي إن الكل في المستشفى ولم تكن تعرف شيئاً آخر.

اتصلت ببيت عمر، كنت أحفظ رقمه عن ظهر قلب منذ أن تعارفنا في الصف الأول متوسط في كلية بغداد، وكان عمر بلا شقيقات، وهذا يجعل من دخولنا نحن الذكور أسهل وبلا أي كلفة أو حرج.

ردت أمه على الهاتف وعرفت صوتي فوراً، شهقت وبكت وهي تتحدث معي، قالت لي إن أبي قد نقل إلى دار التمريض الخاص لأن الخدمات فيها أفضل، قالت لي إن الحصار أثر كثيراً على توفر الأدوية ولكنها سمعت عمر يتحدث أمس عن شراء أدوية عن طريق عمان. قلت لها أن تخبرني باسم أي شيء وأنا أرسله لهم، فقالت إن عمان أسرع أكيد وكل شيء متوفر، لكنها ستذهب الآن إلى المستشفى وتخبرهم أني اتصلت وتسألهم إذا كانوا بحاجة إلى شيء.

ليومين قامت أم عمر بهذا الدور، تذهب إلى دار التمريض الخاص، تأتي لي بالأخبار مفصلة، ماذا قال د. مصطفى سليم وماذا قال د. حكمت الشعرباف وماذا اقترح د. عادل سليم، لم يكن هناك غير أنه لا يزال في غيبوبة، كلمة «مستقر» أصبحت تعني لي أنه على الأجهزة، لا أكثر.

في آخر مكالمة سألتها بخجل عن أخبار عمر، فقالت لي إنه قُبِلَ في البورد

العربي للجراحة، أخبرتها أن توصل له اعتذاري لأني لم أتواصل معه منذ أن غادرت، فقالت لي «حبيبي أنتم أخوة».

في اليوم التالي قصف الأمريكان مبنى المخابرات في بغداد، وانقطعت الاتصالات تماماً، موظف القنصلية رفض أصلاً أن يستقبلنا. رجعت إلى غلاسكو حيث كنت أدرس آنذاك، وقال لي خالي إنه سيحاول الاتصال عبر القنصلية عندما تهدأ الأمور.

في الأربعاء التالي، 30 حزيران، اتصل بي خالي ليقول لي: البقية بحياتك. اللي خلف ما مات.

لطمت يومها بأشد مما ضربني أبي طيلة حياته.

لم أزر قبره إلا بعد أكثر من عشر سنوات.

عندما ذهبت لأدفن أخي ميثم، عام 2005.

* * *

أوقفت السيارة أمام حسينية في نيوكاسل، قرابة 40 ميلاً من ميدلزبره.

فكرت ربما أنهم هنا لا يعرفونني، الحسينيات القريبة من ميدلزبره أغلب روادها يعرفونني.

أردت أن أتحدث مع أحد لا يعرف من أكون، ولا يعرف نسبي ولا أصلي وفصلي.

دخلت الحسينية فهبت عليَّ رائحة عطر خاص.

في أقصى القاعة جلس رجل معمم، اقتربت منه، بدا أصغر مني في السن ولكن وجهه كان وضيئاً ويشبه صور الإمام الحسين الملصقة على المدخل. سلمت عليه وجلست أمامه وقلت له: لديَّ سؤال مولانا.

ابتسم وقال لي بلهجة عراقية فيها لكنة أخرى لم أميزها: أولاً عطر فمك بالصلاة على أبي الزهراء وآله..

صليت على النبي وآله..

ثم أشار لي: ثانياً.. اذهب وصلِّ..

وقفت لأصلي. منذ دهور لم أفعل. كنت أحضر كل سنة مجلس العزاء الحسيني الذي يقام في ميدلزبره، وكانت هذه هي صلتي الوحيدة الباقية بالدين، لكن لم يكن حضور العزاء يتطلب الصلاة. حاولت أن أتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي صليت فيها فعلاً، لم أذكر.

وقفت لأصلي وأنا مرتبك، لم أكن أدري إن كان سبب ارتباكي هو تقصيري في الصلاة، أم أنه كان لأني خشيت أنه يراقبني وأن أخطئ في حركات الصلاة.

صليت وذهبت إليه مجدداً.

لم يكن لديَّ سؤال. كنت أريد أن أتحدث فقط.

قلت له: أنا ضائع يا مولانا.

تحدثت وتحدثت، عن كل شيء، لا، ليس كل شيء بالضبط، لكن تحدثت أكثر بكثير مما فعلت مع فاي، وكان يفهمني، ينتمي إلى نفس البيئة، كنت أرى في عضلات وجهه أنه يفهم ويشعر بما أقول، بل ربما كان قد يمر بنفس ما أمر به أو يخافه على الأقل.

بعد أن انتهيت من الحديث، أمسك الرجل بيدي وقال لي: يقول الإمام علي عليه السلام: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. وأنت قضيت حياتك نائماً، والآن انتبهت.. قبل أن تموت.

ما فات مات، ولكن لديك القليل من الوقت، ربما هو «الوقت الضائع»، حاول أن تصلح فيه من نفسك أولاً.. يجب أن تعتبر كل ما حدث لك نعمة لك لا نقمة، لأنها أيقظتك.

ارتعدت.

هل ما فعلته سارة نعمة؟

لم أقتنع بما قال. لكني خرجت مرتاحاً أكثر بكثير من خروجي من عند فاي.

على الأقل لم أفكر بضربه.

أحمد 3

كل ما قاله إسحاق عما رآه في بغداد لم يكن يشبه ما رأيته عندما خرجنا.

وضع إسحاق اللثام على وجهي وقال لي: «علينا أن ننتبه عندما نسير، وأن نحاول أن نسرع للابتعاد عن أكوام الجثث».. وحذرني من شدة الرائحة.

فتح إسحاق باب السجن دفعاً وساعدته فيه، بدا لي كما لو أن هناك من يدفع في ظاهر الباب، ولم أستطع تبين هذا الشيء، فتحنا الباب بما يسمح بخروجنا معاً.. رغم اللثام، غمرتني الرائحة الكريهة كما لو كانت ريحاً مسلطة عليَّ، ارتددت وكنت على وشك الرجوع إلى السجن مجدداً، مد إسحاق يده وجذبني بشدة، لم ينطق بكلمة، استمر بجذبي بينما كنت أتعثر وأنا أتلمس خطواتي خارج السجن، دون أن أنظر فهمت أني أتعثر بالجثث الملقاة على الأرض.

عندما تحدث إسحاق عن وجود تلال وأكوام من الجثث والرؤوس المقطوعة، حسبته يبالغ. لم أشك بوجود عدد كبير من الجثث في الشوارع، لكن ما رأيته كان مختلفاً تماماً. تمنيت لو أن القمر لم يكن بدراً الليلة، تمنيت لو أني تخيلت أن هذه التلال لم تكن أجساداً لبشر، بل كانت مجرد تلال ظهرت في بغداد في هذه السنوات العشر التي قضيتها في الحبس، لكن البدر جعلني أرى، رأيت بعض الوجوه، كانت لا تزال محتفظة بملامحها، وكان فيها مزيج من الدهشة والذهول والعتب، لم يسمح لي إسحاق أن أطيل النظر «هيا يا مولاي، علينا أن نسرع». قال بحزم، وخيل لي أنه قال في نفسه: سترى جثثاً كثيرة، لا تعجل.

بدت الرصافة غريبة عني كما لو أني لم أعش فيها معظم حياتي، لم تكن نفس الرصافة، رائحة الموت، الكلاب تنهش في الجثث، الدور والأبنية مدمرة، الأبواب مخلعة، رائحة الحرائق في كل مكان امتزجت برائحة الجثث والدم.. وكانت هذه هي الرصافة المترفة التي تملأ العطور والبساتين أرجاءها.

كانت خطة إسحاق هي الابتعاد عن دجلة وجانب الكرخ الغربي، لأن التتار ربما تركوا الرصافة أو خففوا وجودهم فيها، لكنهم متواجدون حتماً على الجسرين اللذين يربطان الرصافة بالكرخ، كان يمكن الذهاب إلى الشماسية من ناحية دجلة، والمرور بمحلة الزاهر ثم بترب الخلفاء ومشهد أبي حنيفة النعمان وقصر الرصافة ومقبرة الخيزران، ثم الاتجاه شمال شرق إلى سهل الشماسية ودار الروم، لكنه رأى أن ذلك سيكون خطراً - قال إننا لا نعرف ماذا فعل التتار بالمقابر ولا نعرف إن كانوا لا يزالون هناك -، وربما أنهم لا يزالون يعسكرون في قصر الرصافة.. ففضل أن نتبع نهر المعلى الذي يصب في دجلة، وصولاً إلى نهر الجعفرية الذي يصب في سهل الشماسية، وسيجعلنا هذا ندخل الشماسية من ناحيتها الشرقية، عكس الطريق المعتاد الذي يمر من سوق العطش التي تفصل بين الشماسية والرصافة.

كان طريقنا يمر أولاً من باب سوق الثلاثاء نحو محلة المخرم أشد أحياء الرصافة ترفاً والذي فيه أكثر بيوت تجار بغداد وأعيانها وأثريائها، سألت إسحاق لماذا نمر به رغم أنه قد يكون هدفاً للتتار بثرائه وسكانه أكثر من سواه، فقال «لا بد أنهم قد قضوا وطرهم منه الآن».. وكان محقاً مرة أخرى.. كانت المحلة قد خربت وحرقت تماماً. جامع السلطان أيضاً كان قد أحرق تماماً، حتى سقطت قبته ومنارته، وامتدت النار إلى الدور خلفه التي كانت دور السلاطين البويهيين والسلاجقة، بحدائقها المحيطة بها، بدت الآن أرضاً جرداء كأن لم تكن.

الأحياء التي تلت ذلك كانت أقل ثراء وترفاً، وهي أحياء طوسج نهر بوق، مساكن صغار الجند والكسبة وعامة الناس، وأسواق صغيرة تقع بينها، لم أكن أعرف هذا الجزء من الرصافة من قبل، وبدا لي أنه الأقل تضرراً ودماراً..

كان إسحاق يبحث عن مكان معين قرب مسجد يقع في نهاية السوق، ويبدو أنه أخطأه، دار قليلاً حوله ثم عدنا إلى بداية السوق كما لو كان يبحث عن شيء، قال مفسراً دون أن أسأله إن الفجر قد اقترب وآن أوان الدخول إلى القنوات المائية لتجنب خطر رؤية جند التتار لنا، وقال إنه يذكر وجود قناة آخر السوق قرب المسجد.

عدنا مرة أخرى إلى نفس المسجد وإسحاق يحاول أن يتذكر إن كان قد أخطأ في موقع القناة وقد بدأ يظهر عليه النزق والتوتر مع اقتراب الفجر أكثر، وفجأة سمعنا صوت بكاء طفل رضيع.

بدا الصوت غريباً جداً في المدينة التي لفها الموت من كل الجهات، هل ثمة جهة لم يغزها الموت هنا؟

قال إسحاق فوراً: لا بد أنه في القناة، نحن في المكان الصحيح، لا بد أن مدخل القناة قد أزيل.

بدأ إسحاق يبحث في الطريق المجاور للمسجد كما لو أنه يتلمس شيئاً فقده في الأرض، وفجأة سمعنا صوتاً مكتوماً آخر، كما لو كانت بداية صرخة أوقفها أحدهم، ساعد هذا الصوت إسحاق على تحديد مدخل القناة، فوجده قد غُطي بأكوام من سعف النخيل. أزاح السعف بسرعة وهو يشير لي، دلفنا أنا وهو إلى القناة بينما شعرنا بوجود حركة سريعة وأصوات خائفة بدت لي غير آدمية، ثم سمعنا أصواتاً تقول كلمات لم أفهمها.. بلغة أعجمية، بينما صاح إسحاق بصوت عالٍ: لا تخافوا، مسلمان عربيان..

هدأت الحركة قليلاً وسمعنا صوتاً يقول: أعد السعفات إلى مكانها..

فعل إسحاق ذلك، ولبثنا مدة قبل أن نتعود على الظلام، كان المكان ضيقاً ورائحته خانقة، وعندما بدأت أشعة الشمس تتسرب من بين السعف الذي يغطي المدخل بدأنا نتبين المكان، كان نفقاً طويلاً تراصف الناس على جانبيه، بينما يمر الماء في الوسط، كانت الوجوه تبدو كما لو أن الحياة فارقتها، ثمة شيء مات فيها ولكنها تنتظر أن يأتي التتار بسيوفهم لينهوا الأمر كله.

جاء رجل نحونا وهو يكاد يزحف، أشار لي إسحاق أن لا أنطق بكلمة، قال الرجل: من أين جئتما؟

قال إسحاق: كنا في قناة نهر عيسى.

سأل الرجل: هل كانت النفخة مسموعة هناك؟

«أي نفخة؟» سأله إسحاق باستغراب.

«نفخة الصور» قال الرجلِ مستغرباً «ألستما مسلمين؟ سمعتها أنا بأذني، وسمعها غير واحد هنا أيضاً، لقد قامت القيامة، انتهى كل شيء، نحن هنا ننتظر العرض على الحساب، لقد انتهى كل شيء».

ميادة 4

أخبرني حيدر ليلة السفر أنه لن يصحبنا في القطار إلى مطار هيثرو، لكنه سيأتي عبر الطائرة لأن لديه ما ينهيه في المشفى. بدا لي مضطرباً وليس على ما يرام، ولكنه أكد أنه سيأتي في الموعد ولن يحدث ما يقلقني.

كنت أحتاج هذا الوقت وحدي مع مريم، أربع ساعات مع ابنتك التي في العشرينات من عمرها أمر لا يمكن تحصيله بسهولة، ورحلة القطار من ميدلزبره إلى هيثرو مروراً بدارلنغتون وكنغز كروس ثم بادينغتون أمر قد يوفر هذا، إلا إذا وضعت السماعات في أذنيها وانفصلت عن العالم الخارجي تماماً.

طائرتنا إلى جدة تنطلق في العاشرة مساء، وآخر قطار يخرج من ميدلزبره في الساعة الحادية عشرة صباحاً، لذا سيكون هناك متسع من الوقت مع مريم، وكنت أحتاج أن أعترف لها ببعض الأمور.

كنت آمل أن تستجوبني هي، لأعترف فوراً بكل شيء.

قلت: إن لم تسألني هي بعد أن نستقر في القطار، سأفتح أنا الأمر.

وصلنا إلى محطتنا الأولى ولم تسأل.

في الطريق بين دارلنغتون وكنغز كروس قلت: سأنتظر قليلاً ثم أبدأ.

الطريق بين المحطتين قرابة الثلاث ساعات، مضت منها ساعة ومريم بين هاتفها وسماعتها، لا يبدو عليها أنها ستخرج من عالمها.

تشجعت، أشرت لها أن تزيح سماعتها، أزاحتها ونظرت لي، لم أكن قد أعددت ما أقول، نظرت لي باستغراب، قلت لها: سترين جدك وعمك لأول مرة غداً، كيف هو شعورك؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة وأرادت وضع السماعات مجدداً: لم يكترثا بي طيلة هذه السنين، لمَ عليَّ أن أكترث فجأة، سأراهما وسنرى ما يحدث.

قلت بصوت جاد: أحببت أن أحدثك في هذا الأمر، ليس الأمر كما تظنين على الإطلاق.

أنزلت مريم السماعات من أذنيها وقالت: ماذا تقصدين؟

قلت: نعم، أحتاج لتوضيح بعض الأمور، لم أتحدث عن أهل أبيك يوماً خيراً أو شراً كما تعرفين، لكنهم في الحقيقة يستحقون أن أتحدث.. هم يحبونك جداً يا مريم..

سألت: لِمَ لَمْ يحاولوا التواصل معي؟

أنزلت عيني وقلت: حاولوا، لكني لم أكن مستعدة.

اتسعت عينا مريم: هل رفضتِ أن يتواصلوا معي؟

هززت رأسي بأسف وقلت: معنا. أنا وأنتِ، لكنهم كانوا يريدون التواصل معكِ طبعاً.

نظرت مريم إلى النافذة وقالت: هل يتعلق الأمر بالحضانة مثلاً؟ هل كنتِ خائفة من مطالبتهم بي؟

لا تزال مريم تحسن الظن بي إذن.

قلت لها: أبداً، لم يكن هذا هاجساً في أي وقت، لم يتحدث أحد بهذا الأمر ولم يحاولوه.. بالأساس القانون العراقي لا يتيح لهم ذلك حتى لو تزوجت، ما دامت أمي على قيد الحياة.

قالت: إذن، فقط لم تكوني تريدين أن تخوضي في الذكريات؟

هززت رأسي: شيء كهذا، أنا آسفة جداً.

هزت رأسها: لو أرادوا فعلاً لتواصلوا، نحن في عصر السوشيال ميديا.. أسهل شيء إرسال رسالة.

فكرت: هل أخبرها؟ هل ستسامحني؟ ساعدني يا رب، ثم وجدت نفسي أقول: في الحقيقة لقد تدبرت هذا الأمر.

«تدبرتِ الأمر؟ كيف؟ هل طلبتِ منهم أن لا يتواصلوا معي عبر وسائل التواصل؟».

«شيء كهذا». قلت وأنا أقول في نفسي إنها لن تسامحني أبداً لو عرفت أنني تسللت وحظرت كل من يمكن أن يمت بصلة لعمها على الفيس بوك والإنستغرام. لن تسامحني أبداً. لست بحاجة لهذه الجبهة الآن.

سكتت وبدا عليها التفكير، كانت لا تزال تحت تأثير موقفي العاطفي من عدم فتح صفحة الماضي، تخيلت أنها كانت توازن بين هذا وبين مكالمتين أو 3 مكالمات من عمها كل سنة مع بعض بطاقات الأعياد.

قلت لها: حب العائلة في العراق له أشكال كثيرة، ربما لا توجد هناك ثقافة بطاقات الأعياد كثيراً، ولكن هناك أشكال أخرى، تعرفين كيف دعمك خالنا أول مجيئنا إلى انجلترا، ربما ينسى خالك أن يعبر عن حبه كما نريد، لكن لديه طرقه.

سألتني مريم: وكيف عبر عمي أو جدي عن حبهما لي، إذا لم يكن هناك بطاقات مرسلة أو اتصال عبر الهاتف؟

قلت لها: هذا ما أريد أن أخبركِ به.

* * *

توفيت جدتك بعد أبيك بسنة تقريباً، أصيبت بجلطة دماغية بعد شهر تقريباً من حادثته، وتوفيت بعدها بأشهر.

كنا وقتها في أشهرنا الأولى في بريطانيا.

بعد حوالي سنة من وفاتها حاول عمك التواصل معي عبر الهاتف، وأخبرني أنه يريد وكالة مني له بخصوص حصتك من الإرث باعتباري الوصية عليك..

أرسلت الوكالة.. بعد فترة تواصل لكي يرسل لي حصتك، رددت عليه أن يتواصل مع أخي حيدر ويحول الحصة من خلاله.

كنت أعرف أن لجدتك بيت في حي الجامعة[1] ببغداد، وقدرت أن عمك قد باعه وبعث بحصتك منه.. لم أكن أعرف الأسعار في بغداد آنذاك، ولكني قدرت أن ما سيرسله عمك سيكون نجدة لنا، في وقت صعب جداً.

قاطعتني مريم: ماذا؟ إرث لي أنا من جدتي؟ ألا يأخذ الذكور كل شيء؟

هززت رأسي نافية: كلام فارغ، حسب القانون العراقي تأخذين تقريباً حصة أبيك كاملة، ثلث التركة، يأخذ جدك الرُبع، والمتبقي بينك وبين عمك سعد بفارق قليل جداً.

«لم أكن أعرف هذا». قالت مريم.

«لكن عندما وصل التحويل، كان المبلغ مختلفاً جداً عن توقعاتي». قلت بهدوء.

«ماذا تقصدين؟ سرقنا عمي؟!». قالت مريم باستغراب.

«على العكس، لقد حوَّل المبلغ كاملاً، تنازلا عن حصتيهما لكِ، مبلغ البيت كاملاً حُول إلى خالك». قلت وأنا أرفع حاجبي، كما لو أني لا أصدق حتى الآن.

«واو.. كم كان المبلغ؟».

«300 ألف باوند، اشتريت منها المنزل في ميدلزبره، والباقي في البنك لدراستك».

«بيتنا من هذه الأموال؟».

«نعم، ماذا كنتِ تظنين؟».

«لم أظن أي شيء، كنت أصغر من أن أفكر بهذا، وربما تصورت أنكِ ورثتِ عن جدي، تقولين إنه كان ميسور الحال».

---

(١) حي الجامعة، حي راق في بغداد الكرخ، تأسس على توزيع أراضي سكنية لأساتذة الجامعات.

«نعم، لكنه مات في التسعينيات، معظم إرثه ضاع على أشياء صغيرة، وجدتك ترفض بيع البيت حتى الآن، علماً أني لن أحصل إلا على أقل من الربع، موقعه ممتاز لكن مساحته لم تكن كبيرة جداً».

«بحق يسوع أمي، أنت لم تحاولي الاتصال بهم وشكرهم على الأقل؟ ماذا دهاك؟».

«الأمر معقد». قلت وأنا أعرف أن تصرفي هو ما عقد الأمر.

«لم ترسلي حتى برسالة شكر؟».

هززت رأسي نافية.

«أمر لا يصدق». أظنها قالت كلمة قبيحة في سرها. الحمد لله في سرها فقط.

«لم يكن الأمر كما تعتقدين فقط لعدم رغبتي في الخوض في الماضي، كنت شخصاً آخر يا مريم صدقيني، هذه السنوات في الغربة أنضجتني، كنت لا أزال أتصرف بطريقة طفولية عنيدة، وكنت عاجزة عن مواجهتهم والاعتذار عما فعلت».

«ماذا فعلت؟».

«لم أعزهم في وفاة جدتك مثلاً، ولا حتى رسالة ولا اتصال».

«جدتي التي اشتريت البيت بإرثها.. عظيم.. ماذا بعد؟».
«في آخر أيامي في بغداد، قلت أشياء فظيعة، أشياء لئيمة وحقيرة جداً، أشياء لم أعتذر عنها وصارت حاجزاً بيني وبينهم، عندما لم أعتذر في وقتها صار من الصعب أن أعتذر لاحقاً، ثم بدا أمر الاعتذار بعد أن حَوَّل سعد الإرث سخيفاً جداً وانتهازياً جداً».

«قلتِ أشياء حقيرة وأنتِ منهارة وقت حادث أبي؟ من يلومك على هذا؟».

«قلتها أثناء الحادث وبعد الحادث. كررتها بطريقة بشعة جداً. لم يلمني أي أحد ولم أسمع أنهم ذكروا الأمر لأحد، لكن عليَّ أن أعيش مع ما قلته».

«ماذا قلتِ؟».

هززت رأسي وقلت: لا أستطيع.

* * *

في مبنى رقم 5 التابع لمطار هيثرو، كنا جالسين بانتظار التحاق حيدر بنا.

مالت عليَّ مريم وسألتني: على مقياس من واحد إلى عشرة، حيث واحد يعني حقير قليلاً، و10 يعني حقير جداً، ما مستوى حقارة ما قلتِ؟

قلت دون تردد: 12.

سألتني مجدداً: على مقياس من واحد إلى عشرة، حيث واحد تعني «لست محقة» وعشرة تعني «محقة جداً»، كم كنت محقة فيما قلتهِ؟

قلت دون تردد أيضاً: سالب 10.

«شكلك خربت الدنيا يا أمي».

هززت رأسي موافقة: نعم، بالفعل. أنا آسفة.

مريم 4

سألت المضيفة عن توفر خدمة الواي فاي، فقالت لي أن أربط حزامي فوراً لأننا على وشك الإقلاع، سألتها مجدداً بينما أربط حزامي فقالت لي إن الخدمة غير متوفرة على الرحلة، وأكدت لي أن هذا كان قد وُضِّح أثناء الحجز، كما لو كان لتقطع أي باب للجدال.

كنت أريد أن أصور فيديو أثناء الرحلة وأبثه على السناب تشات، كما فعلت في القطار وفي محطة بادينغتون وفي الانتظار في المطار، لم أقل أين وجهتنا، فقط تلميحات عن قضاء إجازة الكريسماس في مكان يجمع بين «الروحانية والمعاصرة، الأصالة والعولمة».

فتحت كاميرا هاتفي وقلت: «ست ساعات بدون إنترنت على طائرة سعر التذكرة فيها 600 باوند، كم نجمة نعطي لخطوط الطيران في رأيكم؟ أراكم بعد الهبوط، إن وصلنا بالأساس». كان صوتي مسموعاً جداً.

قالت لي المضيفة بصوت حازم: «اغلقي الهاتف لو سمحت». مع نظرة تقول: أنا أكرهكِ جداً.

بادلتها نظرة معناها: ليس أكثر مما أكرهكِ.

قالت لي أمي: اقرئي آية الكرسي.

قلت لها: لا أحفظها يا أمي.

قالت: إذن اقرئي الشهادتين.

كان حوار آية الكرسي والشهادتين ثابتاً في كل مرة أركب فيها طائرة مع أمي.

قلت لأمي متأففة: ست ساعات دون إنترنت؟ هذا أقرب شيء أعرفه عن الجحيم.

ظهرت ابتسامة شريرة على وجه أمي وهي تقول: اللهم لا شماتة.

أمي وجيلها يتظاهرون بالشكوى من إدماننا على الإنترنت رغم أنهم مدمنون مثلنا. بعد قليل ستبدأ في مراجعة رسائل الواتس آب وقراءة حتى القديمة منها.

جلس خالي بجوار النافذة لكي يسند رأسه عليها، جلست أمي على الممر لكي تحصل على مساحة أوسع لساقيها، جلست بينهما، كما لو كنت عالقة بين عالمين.

* * *

اختارت أمي من الشاشة مقابلها فيلم «The Notebook». تراه ربما للمرة الألف وستبكي عليه للمرة الألف.

«أمي، ألم تحفظي هذا الفيلم؟ والله لو عرف الأبطال كم مرة شاهدتِه لخرجوا لك من الشاشة وقالوا لك ارحمينا».

«هششششش» أسكتتني بإصبعها وهي تضع السماعات في أذنيها. لقد سمعت ذلك مني تقريبا ألف مرة أيضاً.

كنت أريد أن أقرأ على الآيباد، لكني مررت سريعاً على قنوات التسلية، لم يستوقفني شيء، عدت إلى كتبي على الآيباد، ثلاثة كتب مفتوحة أقرأ فيها على التوازي، أمي تقول لي دوما إن قراءة أكثر من كتاب في وقت واحد ليس طبيعياً، ربما ليس طبيعياً بالنسبة لجيلها، لكني من جيل نشأ على النوافذ المتعددة المفتوحة على شاشة اللاب توب، متابعة أكثر من شيء في وقت واحد هو الأمر الطبيعي بالنسبة لي. قراءة كتاب واحد فقط أمر ممل.

الكتب الثلاثة كانت عبارة عن: كتاب رائع عن العمارة المعاصرة في مكة، وكتاب آخر عن معاني الشعائر في العمرة والحج، وثالث عن الحجاب وهوية المرأة.

كنت أتمنى لو أني استطعت التحدث مع نزرين الآن عن الحجاب، بعد قليل سأرتديه وسأبقى مرتدية له طيلة عشرة أيام. قالت لي نزرين قبل أيام إنه تحدٍ آخر عليَّ أن أتأقلم معه، أن أحمل «علامة تميزني كأنثى»، كنا أنا وهي ضد أيٍ تمييز من أي نوع، كان لدينا قاسم مشترك مهم، موروث عائلي يضع مكانة «أدنى» للمرأة ضمن بيئة متحررة إلى حد بعيد، جعلنا هذا أكثر تحسساً تجاه أي تمييز للأنثى، وكان «الحجاب» في مقدمة هذه المميزات للمرأة في الموروث، عائلياً لم يكن لديَّ أي مشكلة في الأمر، ليس لديَّ أي محجبة في الجزء الذي أعرفه في عائلتي، جدتي ترتدي غطاء للشعر، رأيت أكثر من صورة لزوجة خالي ميثم وهي ترتدي غطاء الرأس كذلك، لكن ذلك قبل ذهابها للسويد.. شاهدت الكثير من الصور لأمي وهي لا تزال في العراق دون غطاء للرأس، سألتها إن كان ذلك يعد «تحرراً» هناك وإن كانت قد واجهت مشاكل بسبب ذلك، فضحكت وهي تقول «جدتك المحجبة الآن كانت ترتدي الميني جوب في الكرادة في الستينات ولم تتعرض لمشكلة، ما تسمعونه في الإعلام مشوش جداً ومنحاز، ألم تري صورة تخرجي، 8 فتيات فقط محجبات في الدفعة، من 32 فتاة، والذكور أقلية أصلاً! وكان هذا في عام 95!».

شرحت لي أن الأمر زاد لاحقاً «بسبب الحصار»، لم أفهم كيف يمكن لحصار اقتصادي فرضته الأمم المتحدة أن يؤدي إلى زيادة ارتداء الحجاب، قالت لي إن الأمر معقد، لكن الحصار جعل الناس يتجهون إلى الدين، وقامت الحكومة بـ «حملة إيمانية» لكي تحتوي الأمر ويكون تحت إشرافها بحيث لا يخرج «عن طوعها وسيطرتها» وخلال هذا بدأ الحجاب ينتشر، والناس تتحدث أكثر فأكثر عن أجره وثوابه، تحجبت الكثير من صديقاتي وقريباتي اللواتي لم يكن هناك حجاب في أسرهن من قبل، أصبحت البيئة مشجعة أكثر فأكثر على الحجاب، وربما «ضاغطة» في بعض المناطق، لكني لم أسمع عن فتاة أجبرها أهلها على الحجاب بالشكل الذي يوحي به الإعلام».

سألتها إن كان أبي قد طلب منها أن تتحجب.

«كان يلمح إلى ذلك، والدك كان يصلي بانتظام منذ أن عرفته، أفضل مني بكثير من هذه الناحية، كنت أصلي بشكل متقطع، وكثيراً ما كنت أغير موضع السجادة فقط لكي أوهمه أني صليت، مع الوقت أصبح يتحدث لي بإعجاب عن زوجة صديقه التي تحجبت أو الطبيبة زميلته التي تحجبت، عندما كرر الأمر أكثر من مرة قلت له إنه خطبني وأنا غير محجبة، وعليه أن يتحمل نتيجة اختياراته، إن كان يريد مني أن أرتدي الحجاب فعليه أن يقنعني وعندما أقتنع فقط سأرتديه، لم يفعل أكثر من وضعه بعض الكتيبات عن الحجاب وأقراص سي دي دعوية، للأمانة زاد التزامي بالصلاة وقتها، لكني لم أجد في نفسي القوة على ارتداء الحجاب، بعد سنوات، عند سقوط بغداد وفوضى القاعدة والميلشيات والحواجز المسلحة الوهمية وغير الوهمية صرت أضع الحجاب في السيارة وأرتديه عندما نخرج، لأسباب أمنية تماماً، لكن قبلها لم يكن الأمر مشكلة أبداً».

كانت لديَّ تجربة مع الحجاب، لم أخبرها بها. لا أحد يعرف عن تفاصيلها غير نزرين.. كنت أؤمن تماماً أن الحجاب أداة لقمع المرأة وقهرها ووو... إلى آخر كل ما تقوله الناشطات عنه، لكن لأنه لم يكن قريباً لي أو لأي من أفراد أسرتي أو صديقاتي في المدرسة، لذا فهو لم يكن «قضيتي» يوماً.

في شيفيلد، كنت أرى بعض المحجبات من كليات وأقسام أخرى، بعضهن بريطانيات من أصول آسيوية، وبعضهن كن طالبات من دول أخرى، لم أقترب كثيراً، لكن لم أشعر أن أي واحدة منهن قد «أقسرت» على لبس الحجاب.

قالت لي نزرين يومها على السكايب: إنه القمع من الداخل، هذا أسوأ حتى من القمع الخارجي، يتعرضن لغسيل دماغ مبكر جداً بحيث يصبح الأمر مزروعاً في أدمغتهن.

كنت مقتنعة بذلك تماماً نظرياً، لكني في باحة الجامعة كنت أجد أنهن لا يشبهن الصورة التي في ذهني عن «الفتاة المقموعة»، كن ناجحات دراسياً،

لديهن حياتهن الاجتماعية، وكثيرات منهن يتخرجن ويصبح لهن حياة مهنية ناجحة، لا ينسجم ذلك كثيراً مع «الفتاة المقموعة».

قالت نزرين «ربما كن يعوضن عن هذا القمع عبر التفوق في الدراسة أو العمل؟ قمع هنا ونجاح هناك».

لكن أليس هذا ما يحدث مع الجميع بطريقة أو بأخرى؟ ألا نهرب من مشاكلنا ونعوضها في أماكن أخرى؟

قالت نزرين «صحيح، لكنهن لا يهربن منها، بل يحملنها على رؤوسهن».

لم يكن الأمر مُهمًّا كثيراً لي على أي حال، لم يكن لدي صديقة محجبة، كان الأمر مجرد نقاش لا أكثر.

لكن في سنتي الجامعية الثانية، حدث ما جعلني أتعامل مع الحجاب لا على أنه «علامة قمع» بل على أنه «هوية وتحدٍ أيضاً».

أحد الأساتذة الزائرين في الجامعة، في مادة التصميم، علق على البصمة الإسلامية في تصميم كنت قدمته، بعد عدة ملاحظات سلبية قال شيئاً إيجابياً عن التصميم، ثم سألني: هل أنت مسلمة؟

أجبته بالإيجاب، فقال: جيد إذن أنك لا تضعين شيئاً على رأسك. أولئك اللواتي يضعن هذا الشيء لا قدرة لهن على الخيال والإبداع، هذا الشيء الذي على رؤوسهن يعكس أن أجنحتهن قد قصت، لا يمكنهن التحليق كما فعلتِ.

تعليق كهذا - بهذه الصراحة - كان نادراً جداً، كان يمكن أن أستمع إلى تلميحات عن المسلمين، لكن ليس بهذه الصراحة، وخصوصاً من أستاذ جامعي. كان يمكن لي أن أقدم شكوى بحقه، لكن شعوري بالإهانة كان مما لا تداريه شكوى. شعرت بالإهانة، كما لو أنه صفعني. فكرت أني لو نظرت إلى المرآة الآن لوجدت آثار أصابعه.

في المرة التالية لتقديم تصميم آخر، كنت حريصة أكثر على إظهار البصمة الإسلامية، وعلى التحليق كما أسماه، وعلى الإتقان، لم أكن قد قررت أن أفعل شيئاً غير أن أقدم عملاً أفضل.

لكن صبيحة يوم التقديم، شعرت أن هذا غير كاف، كنت على وشك الخروج من غرفتي وقد أتممت ارتداء ملابسي، عدت أدراجي، ودون تفكير وضعت على رأسي غطاء للرأس، نظرت إلى نفسي في المرأة، عدلته وخرجت.

كان هناك صمت عندما دخلت القاعة، وكان واضحاً أن الرسالة قد وصلت للأستاذ.

سألني بعض الأصدقاء، لماذا فعلت ذلك، فأجبت فوراً بأني لن أسمح له أن يهين هويتي، حتى لو كنت غير مرتبطة بمظاهر الدين وشعائره.

لا أنكر أن البعض قد تغيرت معاملته لي بعد الموقف، أخذ مسافة أبعد مني، لكن البعض الآخر أظهر احتراماً أكثر.

طيلة هذا الفصل كنت أحضر هذا الدرس محجبة.

لكن الآن الأمر مختلف، بعد قليل ستمر الطائرة غرب مكة، وسيكون عليَّ أن أرتدي الحجاب.. لن يكون حجاب تحدٍ، ولن يكون هوية بين الألوف التي ترتديه..

التحدي سيكون لي شخصياً، لمفاهيمي التي ترفض القمع والتمييز على أي أساس.

«عشرة أيام، تحملينه على رأسك». قلت لنفسي مشجعة.

ثم فكرت: «عشرة أيام!؟ كثير جداً».

حيدر 4

«نبيذ أبيض من فضلك» قلت للمضيفة.

نظرت إليَّ مريم وميادة، تظاهرت مريم أنها لم تنتبه وكان هناك شبح ابتسامة ساخرة على وجهها.

ميادة كانت تنظر لي بلوم وعتب، رفعت سماعتها وقالت: حيدر! حتى بالطريق للعمرة!

رفعت يدي كما لو أني لا أريد أن أناقش الأمر وقلت لها: قدح واحد أخير، عشرة أيام دون كحول.

أعادت السماعة إلى أذنيها وحركة الامتعاض على شفتيها، وواصلت مشاهدة الفيلم.

لم يكن لدي سنام لأخزن الكحول فيه وأستخدمه في الأيام العشرة القادمة، لكني كنت متوتراً جداً، وكنت أحتاج إلى النبيذ لتخفيف الأمر، مرت عليَّ لحظات وأنا أشعر أن قرار العمرة كان خاطئاً جداً. فكرت أن ألغي الأمر، لكني لم أرد أن أخذل مريم وميادة. لم أكن أريد أن أزيد طناً على شعوري بالذنب تجاه كل شيء.

شربت النبيذ دفعة واحدة. كما لو أن شربه دفعة واحدة هو الحل الوسط بين شربه وبين التخلص منه في آن واحد. شربته وانتهى.

حاولت أن أنام قليلاً، بدأ مفعول الكحول يسري في داخلي، تجاوزت تماماً ومنذ مدة أن أنتظر شعور «السعادة» من الكحول، كل ما أريده هو الخدر، أن أستسلم لنفسي، أن تخف المعركة في داخلي. كل ما أريده هو أن أعود كما كنت، هايد. ولو تخلصت من حيدر تماماً.

وضعت العصابة على عيني، أغلب المسافرين كانوا يحاولون النوم. أسمع صوت ميادة تبكي على الفيلم كالمراهقات، صوت محرك الطائرة، صوت طفل يبكي من بعيد، صوت جرس النداء للمضيفة، كل شيء يخفت بالتدريج، يتسرب مني.

أرى نفسي أمام شباك الإمام الكاظم، قريب منه جداً حد الالتصاق، أسمع صوتاً يقول في أذني: سلم على جدك حيدر، ألتفت لمصدر الصوت، لكني لا أرى أحداً، عشرات الناس يدورون حول الشباك، أعرف الصوت، هذا صوت أبي، لكني لا أراه.

أدور حول الشباك، بين جدي في مرقده خلف الشباك، وبين أبي بين الجموع، لا أرى أياً منهما، لكني أسمع صوت أبي يردد ويطلب مني أن أردد خلفه الدعاء الذي يقرؤه من كتيب. أدور بوجهي أبحث عن أبي، لا أجده، يخيل لي أني أرى أمي، أركض لها، ليست هي، كل النسوة يرتدين عباءة سوداء كالتي ترتديها، كلهن يتمسحن بشباك الإمام، أصيح باسمها واسم أبي. لا أسمع صوتي. أسمع صوت بكائي فقط. وضجيج زوار الإمام.

أسمع صوت ميادة وأشعر بها تهزني: حيدر، هل أنت بخير؟

أزيح العصابة عن عيني وأنظر إلى ما حولي، أقول: كان كابوساً.

تهز رأسها وتقول: كله من الزقنبوت[1] اللي شربته، هل هذا وقته الآن؟ خذ اشرب الماء الآن.

أبلع ريقي وأشرب.

«هل تذكرين عندما كنت صغيراً، ذهبت مع أمي وأبي إلى الإمام الكاظم وضعت هناك؟».

---

(١) الزقنبوت: أصل الكلمة تعني السم، لكنها تقال اليوم عن كل أكل أو شرب في حالة ذم من يتناوله، أو على أي طعام يتناوله الشخص وهو متكدر.

قالت ميادة: سلام الله عليه، نعم أذكر أمي تحكي القصة، كان ميثم يقول لك إنهم جلبوا واحداً آخر مكانك، وأنك لست حيدر ابنهم، الله يرحمه، طلبت روحه الرحمة.

قلت لها: حلمت الآن بهذا، حلمت عندما ضعت هناك.

نظرت لي بقلق وقالت: «خير، أكيد خير، الإمام الكاظم بالحلم أكيد خير».

«لكني كنت ضائعاً» قلت لها كما لو لأذكرها أن الحلم ليس لطيفاً.

قالت لي «لكنهم وجدوك بعدها، إذن خير».

أرجعت السماعة إلى أذنيها وضغطت على الشاشة لتكمل مشاهدة الفيلم، كانت عيناها متورمتين من البكاء عليه.

مددت يدي عبر مريم وهززت ميادة «هل تذكرين كتاب الأدعية الذي كانت أمي تقرأ منه، ماذا كان اسمه؟».

«لديها اثنان مفضلان، الصحيفة السجادية ودعاء كميل، أي منهما تقصد؟».

«السجادية نعم. السجادية».

«هل تريده؟ لدي منه نسخة في الحقيبة، لدي دعاء كميل أيضاً إن أحببت».

«السجادية».

قامت ميادة وأخذت حقيبتها من الكابينة وأخرجت منها «الصحيفة السجادية» وهي تقول: اذهب وتوضأ الأول. كله آيات. لا يمسه إلا المطهرون.

قبل أن أقوم قالت مريم: دموع على الـ notebook ونبيذ أبيض وكتاب أدعية وعمرة في الكريسمس، كيف يمكن لعائلة أن تجمع تناقضات أكثر؟

عادت ميادة إلى الفيلم وهي تقول لمريم: اكرميني بسكوتك ودعيني أشاهد الفيلم، سينتهي الآن وترتاحين.

سعد 4

كان أبي مضطرباً للغاية من فكرة السفر، حاولت أن أشرح له مراراً أننا سنذهب إلى مكة لأداء العمرة وأننا سنلتقي هناك بمريم ابنة عمر وبميادة، وكان يبدو عليه الارتياح للأمر لدقائق، ثم يسألني إن كان «الطريق آمناً» و«إن كان من يعرفنا هناك».. ثم ينسى الأمر برمته، كتبت له على قصاصات ورقية مثبتة على المنضدة أمامه وعلى المرآة وعلى علبة الأدوية «سنذهب إلى مكة لأداء العمرة»، جعلت كمالي تكرر ذلك له أيضاً، كما تركت له مشاهد من شعائر العمرة على اليوتيوب بحيث تعيدها له كمالي باستمرار، وكان خلال ذلك كله يتحمس أحياناً ويقوم بالتلبية أو يتحدث عن وقائع تاريخية ارتبطت بالعمرة، وأحياناً يبدو منفصلاً تماماً عن أي شيء.

في الليلة التي سبقت السفر سألني إن كانت أمي قد أعدت لنا حقائب العمرة، فقلت له إن أمي ماتت منذ عشر سنوات. استنكر ذلك وقال لي إن هذا فأل سيء وأنها كانت موجودة قبل قليل وكانت تحضر لنا تجهيزات السفر، ثم طلب مني أن أنادي عمر «لأنه لا فائدة مني». على الأقل هذه المرة كان يعرف من أكون. لم أخبره هذه المرة أن عمر مات قبل أمي لأنه لا فائدة من ذلك. في عالم أبي لا يموت أحد. حتى والده ووالدته اللذين ماتا منذ نصف قرن لا يزالان على قيد الحياة، بل ويزورانه أحياناً. كان عالماً مثالياً تماماً، لا موت فيه، ولا فيه من يحزنون.

اضطرابه الأكبر كان في المطار، بدا مشوشاً جداً من إجراءات التفتيش المعقدة في مطار بغداد، ثلاث مراحل، في كل مرة كانت تزيده تشوشاً، خاصة أن المرحلة الأخيرة تتطلب أن يقوم عن كرسيه، ويسير من خلال الجهاز الكاشف للمعادن، مررت معه طبعاً وأنا أسنده من كتفيه، كان الموظفون

عموماً ألطف من المتوقع، وساعدني أكثر من واحد منهم في حمله ووضعه على كرسيه.

بعد انتهاء الإجراءات، قال لي هامساً: تغيرت «المدائن»[1] كثيراً.

غريبة. ما الذي ذكره بالمدائن؟ معسكر الرشيد قريب من المدائن، وأذكر أن هناك مطاراً عسكرياً قديماً هناك، لعله هو الذي شوش الأمر عنده، فاعتقد أننا في المدائن.

«لسنا في المدائن بابا. المدائن في جنوب شرق بغداد. مطار بغداد في الاتجاه المعاكس تماماً، شمال الغرب، في «أبو غريب»[2].

بدا منزعجاً من كلامي وتمتم بضيق «طريق الحج من المدائن».

هل كان الطريق البري يمر من المدائن؟ غريبة. يبدو لي عكس الاتجاه. لكن لم أجادل.

«صحيح بابا، لكننا سنذهب بالطائرة اليوم».

بقي منزعجاً مضطرباً وكأنه لا يصدقني، كنت قد جلست قربه ووضعت يدي على يده وأنا أفركها وأقرأ له الآيات. بقيت كذلك إلى أن سمعنا نداء التوجه إلى الطائرة.

عندما صعدنا الطائرة، هتف عمار مساعد منظم الحملة: الصلاة على محمد وآل محمد.

وتعالت الصلوات من الطائرة التي حجزت كاملة لحملة العمرة.

ثم جاء فاضل المساعد الآخر للحملة وهتف: الصلاة على محمد وعلى آل محمد.

---

(١) قضاء المدائن، أو « سلمان باك» جنوب بغداد، وكان سابقاً عاصمة الدولة الساسانية ومقراً لكسرى.

(٢) قضاء يقع شمال غرب بغداد، وكان يتبع محافظة الأنبار سابقاً، وفيه السجن الشهير الذي حدثت فيه انتهاكات الجيش الأمريكي، كما يضم مطار بغداد الدولي.

وتعالت الصلوات مرة أخرى.

كانت هذه إشارة بحيث يعرف كل شخص في الحملة، وبطريقة تحاول أن تكون لبقة، أين يذهب إذا احتاج إلى مساعدة.

عمار، الذي نادى بالصلاة على «محمد وآل محمد» شيعي، وإليه يتجه الشيعة.

فاضل، الذي نادى بالصلاة على «محمد وعلى آل محمد» سني، وإليه يتجه السنة. وهكذا فإن حرف الجر «على» هنا يملك دلالات ورموزاً طائفية لم تخطر في بال أي من واضعي معاجم اللغة العربية يوم وضعوها.

لم يكن الأمر يعني لي الكثير، سأطلب المساعدة من الحجي ثامر إن احتجتها.. وكانت السنوات الأخيرة قد شهدت انخفاضاً في استخدام هذه الرموز والدلالات، لكنها بقيت كما لو كانت «حفل تعارف» بحيث يعرف كل شخص حدوده في التعليقات الناقدة أو المازحة. سابقاً كنا نتبادل النكات كل فئة عن الأخرى على نحو ودي وطبيعي، بعد «الطائفية» أصبح الأمر لا يحتمل ذلك. النكات ضمن كل فئة لوحدها.

مر من أمامي الحجي ثامر وهو يشير لي بعلامة النصر كما لو أنه قد فتح عكا باعتباره قد نجح في تمرير «الهدية» - كما أصبح يسميها - من مطار بغداد، فأشرت له بإبهامي بعلامة الإعجاب بشجاعته وحنكته وأنا أقول في نفسي إن الأمر ليس صعباً في مطار بغداد، والفتح الحقيقي في مطار جدة.

عندما بدأت الطائرة بالإقلاع أمسكت بيد أبي وأخذت أمسح عليها. كان هادئاً تماماً. كل اضطرابه كان من الإجراءات التي فيها موظفون رسميون. أمر غريب بالنسبة لعسكري وصل لرتبة لواء.

عندما استوت الطائرة في الجو، بدأنا بارتداء ملابس الإحرام تبعاً لتعليمات الحجي ثامر، ثم فاجأنا والدي جميعاً ببدئه في التلبية:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

كان صوته واضحاً، حنوناً، طريقة تلفظه كانت تبدو كما لو أنها قادمة من مكان آخر، كما لو من مذياع قديم، أو من مسلسل تاريخي، أو من عصر آخر.

أخذ الجميع يلبون بعد أن بدأ أبي التلبية.

تظارف الحجي ثامر قائلاً: الحجّي «مذاكر» من ورانا.

أحمد 4

قبل فجر اليوم الثاني وصلنا إلى كنيسة دار الروم في الشماسية، لم نتحدث مع أي أحد قبل ذلك، المناطق التي مررنا بها كانت أحياء مهجورة وبساتين احترق نخيلها في معظمه. كانت هنا بعض الأديرة الأكثر أهمية مثل دير درمالس قرب دار أحمد بن بويه، ودير سمالو على نهر دجلة، لكن إسحاق قال إن الناس ربما لجأت إليها وإلى البساتين المحيطة بها، لذلك فربما يكون التتار لا يزالون قربهما، كما كان يأمل إسحاق أن يجد البطريرك مكيخا فيها.

في الطريق إلى دار الروم سمعنا بعض الأصوات من هنا وهناك، لكن إسحاق أشار لي أن نمضي دون أن نقف عند شيء. في النفق الذي قضينا فيه نهارنا أمس، تجنب إسحاق الكلام مع أي أحد. كان الناس مقتنعين تماماً أن القيامة قد قامت. جعلهم هذا ينتظرون الموت أو الحساب دون مقاومة. بعضهم قال إن الخليفة المستعصم قد صعد إلى القمر.

كنيسة دار الروم كانت من أقدم وأوسع كنائس بغداد، بنيت عندما انتقل النصارى من المدائن جنوب غرب بغداد إلى بغداد عند بناء المدينة في عهد المنصور.

دق إسحاق الباب الخشبي الضخم في مدخلها، ولم يفتح أحد، فذهب إلى باب خلفي وطرقه بشدة وقال شيئاً بالسريانية بصوت مرتفع، سمعنا رداً من خلف الباب، وقال إسحاق شيئاً بالسريانية مرة أخرى، عقب ذلك صمت وأشار لي إسحاق أن أصمت تماماً. بعد قليل سمعنا صوتاً مختلفاً وقال شيئاً بالسريانية مجدداً، دار حوار بين إسحاق والصوت من خلف الباب. ثم بدأنا نسمع صوت إزاحة المزاليج.

همس لي إسحاق بسرعة «قلت لهما إننا مسلمان تنصرنا منذ مدة وأن البطريرك يعرف بأمرنا».

رفعت حاجبي بدهشة لكنه نظر لي بحزم وأشار إلى عنقه. سنذبح لو لم أسمع كلامه.

فتحت الباب ودخلنا بسرعة وكان هناك حراس يحملون سيوفاً تأهباً لأن يكون الأمر كله خدعة، أو أن معنا المزيد ممن يريدون اقتحام البيعة.

باحة الكنيسة كانت مليئة بعوائل تفترش أرضها، الرجال والذكور في منطقة مكشوفة في الباحة، وثمة مكان مغطى بالخيام لا بد أن النساء فيه. أغلب الرجال كانوا لا يزالون نياماً، وبعضهم قد استيقظ للتو، ربما بسبب الطرق على الباب.

كانت أنظار المستيقظين مصوبة نحونا بذهول، تقدم منا صبي وسألنا: هل جئتما من بغداد؟ ما الذي حدث لها؟

على الفور تكاثر السائلون: هل كنتم في الكرخ؟ هل مررتم بالمخرم؟ هل صحيح أن السوق الكبير قد احترق؟ هل الجثث في كل مكان؟

تبعت إسحاق وهو يسرع الخطى مع الشماس الذي قادنا عبر الباحة إلى درج صغير في آخر الباحة، هبطنا منه إلى سرداب طويل يقود إلى ممر فيه غرف صغيرة على الجانبين، فتح الشماس باب غرفة وِأدخلنا وأشعل القنديل فيها، كان ثمة فِرَاشان على الأرض مَحْشُوان بالقطن أَو الصُّوف للنّوم وجرة فيها ماء وصليب صغير معلق على الحائط.

سأل إسحاق الشماس شيئاً بالسريانية ودار بينهما حوار كدت أغفو أثناءه. قضينا الليل ونحن نمشي. وأمس لا أستطيع أن أقول إنه كان نوماً في تلك القناة المائية.

خرج الشماس وجلس إسحاق على الفراش وأسند ظهره إلى الحائط ووضع يده على جبهته.

همست له: ويحك يا إسحاق! كيف تقول إننا نصارى وأن البطريرك يعرف بأمرنا؟

لم يرد.

أعدت السؤال.

لم يغير وضعه. قال وكفه تغطي وجهه: لا تقلق من هذا. كنت مع البطريرك عندما نصبه الخليفة جاثليقا[1]، وحملت فوق رأسه عهد الخليفة، لن يغدر بنا.

سكتُّ وسكت. لكنه بقي في نفس الوضع.

سألته: ما الأمر يا إسحاق؟ ماذا هناك؟ هل سنلتقي بالبطريرك؟

أزاح يده عن جبهته. نظر لي فرأيت وجهه محتقناً، عينيه حمراوين.

«قتلوا الخليفة المستعصم وأولاده جميعاً، وكل بني العباس».

قالها مرة واحدة. لم أستطع فهم ما قاله في البداية. بدا عليه أنه لم يفهمها أيضاً. بل بدا أنه قد ازداد رعباً عندما سمعها بصوته.

هببت من مكاني: كيف؟ ماذا تقول؟

رأيت إسحاق لأول مرة مضطرباً. أخذ يرتجف وفكاه يصطكان ببعضهما.

اقتربت منه: كيف؟ ماذا قال لك الشماس؟ ماذا فعلوا بابن أخي؟

أخذ إسحاق يبكي. لم أره يبكي من قبل. حتى ونحن صغار.

احتضنني وأجهش بالبكاء وهو يقول: قتلوه ركلاً يا مولاي.

لم أفهم أول الأمر ما يقوله إسحاق. كيف يقتل أي رجل ركلاً. لعلي لم أسمع جيداً.

«ركلاً، تقول ركلاً؟».

---

(١) الجاثليق: منصب كنسي، ويسمى جاثليق المشرق، وهو المرجع الأعلى للمسيحيين من أهل بغداد.

«نعم، قيل لهم لو أريقت دماء الخليفة فستكون لعنة عليهم. وضعوه في سجادة وركلوه حتى الموت».

ارتعدت وأنا أتخيل المشهد. لو قتلوه طعناً لكان أهون.

«وأولاده؟». سألته.

«قتلوا جميعاً أمام عينيه، إلا الصغير مبارك، أهداه هولاكو عبداً إلى زوجته أولجاي خاتون».

فكرت، ليتهم قتلوه بدل أن يهدى كعبد إلى زوجة هولاكو، لم أعرفه إلا طفلاً صغيراً، لا بد أنه شب الآن.

«كذلك شقيقاته بنات الخليفة، أهدين كسبايا» أخفى إسحاق وجهه في صدري وهو يبكي. كنت لا أزال رابط الجأش.

«والأمراء من بني العباس؟».

«قتلوا كل من وجدوهم منهم. قال الشماس إنهم قُتلوا جميعاً. ونُبشت قبور الخلفاء أيضاً».

«متى حدث ذلك؟».

«أبناء الخليفة قتلوا فوراً، تأخر مقتل الخليفة إلى أيام بعد دخولهم بغداد، أسلمهم كل كنوز بني العباس ثم قتلوه».

«بغداد بلا خليفة منذ أسابيع». قلت ساهماً.

«الأرض كلها بلا خليفة يا مولاي».

أرعبتني الجملة. منذ خمسمائة عام وبنو العباس على الخلافة، منذ أكثر من ستمائة عام وهناك خليفة في الأرض. اليوم يذهب كل ذلك.

كانت هذه الكلمة مثل نفخة الصور..

لقد انتهى كل شيء. كل شيء.

الآن فهمت معنى أن تقوم القيامة.

ميادة 5

إجراءات مطار جدة كانت سريعة عكس ما توقعت مريم. كان هذا أول مطار لي في الشرق الأوسط منذ أن غادرت عمّان قبل اثنتي عشرة سنة وأنا أرملة للتو ومعي ابنتي ذات السبع سنوات. يومها أقسمت ألا أخطو بقدمي على أي مطار في هذه المنطقة بأسرها وها أنا أحنث اليوم بقسمي.

كان سعد قد أصر بأنه سيأتي بنفسه إلى مطار جدة ويصحبنا إلى مكة. قلت له إن ذلك غير ضروري وأننا سنأتي مباشرة إلى الفندق، لكنه أصر ولم أكن أرغب بافتعال مشكلة. بدا حيدر منزعجاً عندما قلت له إن سعداً سينتظرنا في المطار، لم أتحدث مع حيدر أبداً عن علاقته بسعد، كان صديقاً حميماً لشقيقه ولا بد أنه كان يعرفه، كان انزعاجه يدل على «طبيعة العلاقة»، لكني سألته: هل من مشكلة؟ فقال بصوت منخفض: ليس لي «واهس»[1] يتفلسف براسي هذا «القنقينة»[2]... «حوصلتي»[3] لا تستحمله اليوم.

إذن هو يعرفه جيداً.

أنا أيضاً، لم يكن لي مزاج لأحتمل فلسفة سعد ونقده لكل شيء. لكني كنت قررت أن أسايره لأنهي الأمور على خير. دربت «حوصلتي» على أن تتحمله. تحضرت لجملة من الانتقادات والملاحظات غير اللطيفة: ما هذا لقد كبرت. سأناديك خالة. كم صار وزنك. تبدين كالفيل، لكنك دوماً كنت كذلك، هاهاهاها، أمزح فقط، لا، الآن أنا أمزح، هاهاهاها.. إلى آخره. ثقل دم بلا حدود. سعد هو الرئيس الفخري لجمعية «ثقلاء دم بلا حدود».

---

(١) واهس: مزاج أو خلق.

(٢) القنقينة: الشخص كثير التدقيق والإلحاح على التفاصيل.

(٣) يستخدم العراقيون لفظ الحوصلة للدلالة على ضيق المزاج والحوصلة انتفاخ في مريء الطير يختزن فيه الغذاء.

كررت تنبيهي لمريم إلى أن عمها «كثير الانتقادات»، لكني لم أكن قلقة عليها منه. ستتدبر أمره. كنت قلقة أكثر عليه منها. بل كنت مستعدة للشماتة فيه مقدماً.

فوق حمل هم انتقادات سعد، كنت أحمل هم مواجهتي له. أول مواجهة لي منذ أن قلت فظاعاتي قبل ثلاثة عشر عاماً. وضعت نظارة شمسية كبيرة سوداء اللون على عيني، فكرت أنها ستساعدني على التهرب منه.

لكني كنت أعرف أن مشكلتي لم تكن في عينيَّ فقط لأخفيهما. كانت في صوتي وشفتيَّ وكلي عندما يتعلق الأمر بما قلته آنذاك. لم يكن هناك مهرب حقاً.

ما أن فتحت باب خروج «القادمين» على قاعة الانتظار حتى أخذت أبحث بين الوجوه عن سعد، لم أجده، عندما وصلنا نهاية الحاجز الفاصل لفت انتباهي شخص يرتدي ملابس إحرام ويحمل بيديه باقتي ورد أحمر اللون. كان المنظر غريباً، رومانسية العمرة هذه ليست متوقعة كثيراً.

بعد لحظات وجدت هذا الشخص يقف أمامي وهو يبتسم.

إنه سعد! لم أعرفه. بدا لي أنه قد كبر 30 عاماً على الأقل. كان أصلع تماماً (فهمت بعدها أنه لا يزال لديه بعض الشعر في رأسه، لكنه حلقه تماماً كجزء من شعائر العمرة الأولى في اليوم السابق)، ولديه لحية خفيفة اختلط شيبها ببقايا السواد. وكان أنحف بكثير مما عرفته.

بدا مختلفاً جداً حتى كأنه شخص آخر، حتى هذه الابتسامة، والورود الحمراء. سعد الذي أعرفه كنت أتوقع أن أراه وقد وضع نظرة الفيلسوف المتأمل شارد الذهن وهو يدخن الغليون لكي يبدو في مظهر المثقف العميق الذي يليق به. لكن ملابس إحرام وباقة ورد حمراء؟ هذا لم يكن ضمن توقعاتي.

كانت هناك عبارات من نوع «حمداً لله على سلامتكم» و «نورتوا جدة» أعقبها صمت متوتر قصير خجول من كل الأطراف. ثم قام سعد بإعطائي باقتي الورد واحتضن مريم بشدة.

«مريم مريمتي، عيني مريمة[1]» كان يردد كما لو كان يحدث نفسه. وكان صوته متهدجاً مختنقاً بدموع محتبسة.

ارتعدتُ. هكذا كان أبوها يدللها. وهكذا تجنبت أن أناديها طيلة هذه السنين. «مرمر» كنت أفضل أن أقول. مريمة ومريمتي كانتا لعمر.

طال احتضان سعد لمريم، توقعت أن تدفعه أو تقول شيئاً عن ذلك، هي تكره «إظهار العواطف» - بالأسلوب العراقي كما تقول - لكن رأيتها مستسلمة.

ثم التفت سعد لحيدر واحتضنه أيضاً كما لو كان يرى أعز أصدقائه بعد غياب. على وجه حيدر رأيت الاستغراب والفزع. أصبح بريطانياً ولم يعد يتذكر أن العراقيين يسلمون هكذا على أشخاص بالكاد يعرفونهم.

ثم التفت لي وخفت أن يحتضنني أنا الأخرى، لكنه أخذ باقة ورد من يدي وأعطاها لمريم: هذه لكِ.

قبل أن نصل إلى السيارة التي استأجرها سعد، كان يشرح لنا ما سنفعله وقد قرره سلفاً بالنيابة عن الجميع. سنذهب إلى الفندق، نضع الحقائب في الاستقبال، نصعد إلى الغرف لنتوضأ أو إذا احتجنا لشيء، نذهب لنسلم على «عمو»، ثم نعمل عمرة جميعاً.

«الآن؟ نريد أن نرتاح قليلا!» علق حيدر بتذمر وضيق.

لم يكترث سعد لذلك، قال: أنتم محرمون وسيكون كل شيء ميسراً، الجو أصلاً رائع هذه الأيام. سترتاح فعلاً بعد العمرة.

توقعت أن حيدر سيعارض ونشهد أول معركة قبل وصولنا إلى السيارة أصلاً. لم يحدث. تأجلت المعركة الأولى، إلى حين على الأقل. سألت سعداً

---

(١) مطلع أغنية تراثية شائعة.

إن كان قد ترك عمو بمفرده، وهل يمكنه تدبر أموره بنفسه، فقال إن هناك خدمة «خادم خاص» في الفندق وأنه طلبه ليبقى معه إن احتاج لشيء.

«ما شاء الله عليكِ يا ميادة، تبدين أصغر بعشر سنين».

هكذا قال سعد. فكرت أن أحدهم ربما قد لقنه هذه الجملة لكسبي. لا بأس. لا أبدو أصغر بعشر سنين بالتأكيد، مجاملة مفضوحة لكنها أفضل من تشبيهي بالفيل وتذكيري بزيادة وزني عشرين كيلو. كنت قلقة جداً من تعليقات سعد على زيادة وزني لدرجة أني فكرت بعمل دايت خاص للعمرة فقط للتخلص من تعليقاته.

قلت له كما لو أني صدقت مجاملته «لا أستطيع أن أقول لك الشيء ذاته يا سعد، كبرت كثيراً».

ضحك وقال «نعم، لقد هرمنا» ثم مد يده إلى رأسه كما لو ليتحسس شعره، ثم قال «والله كان هنا بعض الشعر أمس فقط، لكن حلقت عندما تحللت من الإحرام، أستطيع أن أريكم صورتي بالإحرام مع الشعر».

تقبلها إذن بسهولة، أو ربما يحتفظ بحق الرد لاحقاً.

التفت سعد إلى مريم: قالت لي أمك إنك تدرسين العمارة، تعرفين أن عمك أيضاً درس العمارة، أنا وأنت نستطيع أن نؤسس حلفاً ضد الجميع».

«إما أن نتحالف أو نكون في حالة حرب». ضحكت مريم وهي تتحدث مع سعد بسلاسة كأنها تعرفه منذ سنين.

«أستطيع أن أختصر التعارف.. بالنسبة لك، من هو المعماري المفضل عندك؟».

قالت مريم وقد أعجبها مسار الحديث «أكثر من واحد.. أولهم (فرانك غيري).. هل سمعت به؟».

«سمعت به! لن تصدقي يا مريم، كان عمرك 4 سنوات جلبت لك حلقة من مسلسل «آرثر» التعليمي، وكان (فرانك غيري) يظهر فيها وهو يصمم بيت الأشجار الخاص بآرثر».

«يا إلهي، لا أذكر أي شيء عن هذا، هل أنت من زرعت حب (فرانك غيري) فيَّ؟».

«لا، غالباً أنتِ وُلدتِ بهذا، المعماريون يولدون معماريين كما تعرفين، من سوى فرانك غيري؟».

«رينزو بيانو أيضاً».

«تنوع كبير! بيانو وحده معروف بتنوعه وعدم وجود هوية واحدة له، فكيف إذا جمعتِه مع غيري».

«ماذا لو عرفت المفضل الآخر؟!».

«دعيني أحزر، ما دمت قلتها هكذا.. لا بد أنه مختلف جداً عن هؤلاء».

«نعم، هذا صحيح».

فكر سعد قليلاً ثم قال «ربما أنتون غاودي أو سانتياغو كالاترافا؟».

«واو، فعلاً واو، أنتون غاودي، كيف عرفت؟! هل قلتِ ذلك له يا أمي؟».

لم أكن أذكر من هو غاودي أصلاً، تذكر مريم أسماء معماريين كثيرين ونادراً ما يبقى اسم واحد منهم في بالي. أقرب شيء لغاودي في ذهني هو اسم بطلة مسلسل مكسيكي في التسعينات.

«مجرد تخمين، لكن هذا يدل على أن اهتماماتك متنوعة جداً، شخصيتك ذات طيف واسع، وربما تجمعين متناقضات».

«أكثر مما تتخيل.. وأنت من هو مفضلك؟».

«محمد مكية، رفعة الجادرجي، ثم حسن فتحي، تعرفينهم؟».

«نعم، قليلاً، قرأت عنهم مؤخراً».

نظرت لهما. لقد كسبها. يريد أن يؤسس حلفاً معمارياً بينهما إذن. لا أذكر شيئاً عن حلقة آرثر لكنه كان يغرقها بأشياء كثيرة، كتب مصورة وهدايا وأقراص مدمجة. حلف معماري؟ لا بأس. المهم أن تنتهي الأمور على خير.

قاطع حيدر الحوار قائلاً لسعد «قل للسائق أن يخفف سرعته. هل هو مجنون؟».

كان محقاً. السائق بدا لي مجنوناً أنا أيضاً.

رن هاتفي. أمي تتصل. نسيت أن أتصل بها فور وصولنا. سأتلقى شر أعمالي.

«حسرة بقلبي مرة واحدة أقول لكِ شيء وتقومين به. مرة واحدة بس. ألم أخبرك أن تتصلي بي عندما تصلونَ؟».

«أهلاً أمي، نزلت الطيارة للتو حبيبتي».

«مائدة، موقع المطار يقول إنها نزلت منذ أكثر من ساعة.. لم لا تقولين أنكِ نسيتِ أمك فحسب؟».

هذا هو حظي. لماذا لم تكن أمي مثل بقية الأمهات عاجزة عن استعمال التكنولوجيا؟

«صحيح لكن هاتفي لم يعمل إلا الآن...».

«آخر ظهور لك على الواتس آب قبل 20 دقيقة. لم تفكري حتى في إرسال رسالة على الواتس».

لا فائدة. البحر من أمامكم وسعاد الدباغ من خلفكم.

«حيدر يريد أن يسلم عليكِ أمي، خذي».

يتغير صوتها فوراً وتتقمص شخصية أخرى تماماً.. أسمعها تتحدث مع حيدر بينما الهاتف معه..

«ها حبيبي حيدوري شلون سفرتكم».

حيدر هو الروح والريّة[1]، يمكن له أن ينسى الاتصال بها لأسابيع. لكن لا بأس.. إنه حيدوري الذي «طلعت به من الدنيا».

لا عزاء لك يا مائدة.

---

(١) الروح والرية: تعبير عراقي يستعمل لوصف المحبوب، ويعني الروح والرئة، أي أنه بأهمية الروح والتنفس للمتحدث.

مريم 5

قبل أي مطعم أدخله، أي متجر أتسوق منه، أي مكان أذهب له - حرفياً - لا بد لي أن أرى المراجعات المنشورة على النت، غوغل أو سواه، لقد بدا مطار جدة أفضل بكثير من توقعاتي المبنية على مراجعات سيئة للغاية في غوغل. ربما بالغت في سوء توقعاتي فجاء الواقع أفضل نسبياً، وربما كنت محظوظة بموظفين حسني المزاج في هذا الصباح.

وضع غطاء الرأس طيلة الوقت يبدو صعباً للغاية. أنا أتذمر في اليوم الأول وأمامي عشرة أيام كاملة. عندما كنت أرتديه كتحدٍ كان الشعور مختلفاً.

عمي سعد كذلك كان أفضل بكثير من المراجعة الوحيدة التي أعرفها عنه، عن طريق أمي.

في البداية، فكرة باقة الورد الحمراء رغم أنها قديمة ومستهلكة إلا أنها أعجبتني. احتضانه لي كان عفوياً، احتضنني بشدة كما لو أنه لا يريد أن يفلتني، ولوهلة شعرت أني أعرفه.. كما لو أني تذكرته من طفولتي، شيء غريب جداً، لكن غمرني شعور الديجا فو، عندما ترى شيئاً وتشعر أنك رأيته من قبل. لا تعرف كيف ولا تذكر أين. شيء ما في حضنه لي قال لي إني جربته قبل ذلك. لم أشعر معه بذكورية أو تسلط أو كره للنساء، بدا لي ظريفاً ومعقولاً، على الأقل كلقاء أول.

الجزء المعماري من الحوار أذاب كل ثلج محتمل، على الأقل في البداية، لا شيء مضموناً معنا، ربما نختلف في رؤيتنا لتصميم نراه صدفة، ويقود ذلك إلى أن نغير نظرتنا لبعضنا بعضاً. لكن كبداية، وخصوصاً مع توقعاتي المسبقة، الأمر كان ممتازاً. لديَّ شك بأن عمي قد تسلل إلى صفحتي في موقع

الجامعة أو واحدة من المدونات التي علقت عليها، كيف حزر غاودي؟ وإذا كان متأثراً بمحمد مكية وحسن فتحي، كيف يعرف كل هذه المعلومات عن مدارس مختلفة تماماً مثل غيري وبيانو؟ سأستدرجه لأعرف إن كان مهتماً بهذه المدارس بالفعل، أم أنه يقول ذلك ليجذب اهتمامي فقط.

حتى لو كان الأمر كذلك، حتى لو كان قد تسلل إلى صفحتي الجامعية ليعرف اهتماماتي، لم يزعجني هذا، بل أعجبني أنه يبذل جهداً للتقرب مني ولفهمي.

تفاءلت أيضاً بأن هاتفه «آيفون» مثلي، رغم أن من في سنه يفضلون عادة الأندرويد، مثل أمي وجدتي. الأشخاص الذين يكونون «Apple Persons»[1] لديهم رابطة تفاهم سرية فيما بينهم.

كل هذا مخالف لتوقعاتي المسبقة.

إما أن عمي هذا ممثل بارع جداً، أو أن أمي ظالمة جداً. أعرف أنها تتطرف في أحكامها أحياناً. أحياناً دائماً في الحقيقة. لكن إلى هذه الدرجة؟

أو لعله تغير؟ هل يتغير البشر إلى هذه الدرجة بالفعل؟

لم يبد عليه أيضاً أنه يحمل شيئاً سيئاً تجاه أمي بسبب ما قالته له قبل قرون، تلك الأشياء التي تبلغ درجة حقارتها 12 على مقياس الحقارة المكون من عشر درجات. أمي موسوسة وتبالغ كثيراً. ربما نسي أصلاً ما قالته.

أكثرنا توتراً كان خالي حيدر. لا يبدو بخير منذ فترة، ولا أشك أن الأمر يتعلق بسارة. قبل يومين راسلتني كلوي وقالت أشياء غير سارّة عنها. غير سارة بالنسبة لخالي على الأقل، وبالنسبة لأمي بالتأكيد. وكارثة كبرى بالنسبة لجدتي. سألتني كلوي إن كانت سارة قد تزوجت من صديقها؟ فأجبتها أني لا أعرف أصلاً إن كان لها صديق محدد. فقالت لي إنها سمعت أنها ربما تكون حبلى، وقد وضعت صورتها في الإنستغرام. لم يكن لديَّ إنستغرام سارة،

(١) الأشخاص الذين يستخدمون منتجات آبل فقط.

ولا حتى كلوي لديها. لكن شقيقة كلوي كانت صديقة قديمة لها. علاقتي أنا وسارة لم تكن قوية في أي يوم من الأيام. كانت تكبرني بستة أعوام وتعتبر في سن المراهقة عندما جئنا إلى ميدلزبره، ولم تكن تريد أن تحسب مع الأطفال في سني، لذا فقد انعزلت على نفسها تماماً في الفترة التي مكثنا فيها في بيت خالي، وبقي الأمر كذلك، ورغم أن أمي كانت تحب أميلي زوجة خالي، إلا أنها فضلت الاحتفاظ بمسافة معينة، مسافة عزلتني عن سارة وحياتها. الآن أفهم لماذا.

فكرت أن أنقل الخبر لأمي، لكني فضلت أن أؤجل الأمر، خفت أن يؤثر ذلك على الرحلة بشكل ما. كنت متأكدة أنها لا تعرف عن الأمر، لو عرفت لقدمت لي سلسلة محاضراتها المعتادة عن ضرورة «أخذ الحذر» و «عدم التمادي» في أي علاقة، وهي محاضرات أسمعها بين الحين والآخر بسبب أو بدون سبب.

لم يكن سقف توقعاتي عن مكة مرتفعاً أيضاً، إذ قرأت أن عمارتها الجديدة خالية من الروحانية، وكان هناك حديث عن «إن كنت تبحث عن الله فلن تجده في مكة...» وأشياء شعرية كهذه، لكن هذا الأمر لم يزعجني، فكرت بيني وبين نفسي أن هذا قد يكون تبريراً مناسباً لعدم شعوري بالروحانية، الخلل ليس فيَّ أو في مشاعري أو في مجسات استقبالي، الخلل في البنايات الشاهقة ونمطها المعماري، يمكننا أن نلومها على ذلك براحة ضمير.

ظهرت مكة فجأة من بين الجبال، فاجأتني كما فاجأني عمي باحتضانه لي، وشعرت أنها تحتضنني، كان يوماً مشمساً جميلاً، لا نرى مثله في ميدلزبره في أغسطس، صورت برج الساعة وقد ظهر شاهقاً من بعيد، ونشرت الفيديو على الإنستغرام، سألت: ها قد وصلنا مكان إجازة الكريسماس.. من يحزر أين؟

لم أكن أتوقع جواباً صائباً.. على الأقل ليس فوراً.

بعد دقائق وصلنا الفندق. خمس نجوم؟ من المدخل بدا لي 17 نجمة على الأقل. كان شديد الترف والرفاهية. حجزه عمي وقال إنه مُصرٌّ على دفع كافة

نفقاته للجميع، وأصر خالي حيدر أن ذلك ليس وارداً على الإطلاق وكادت تنشب مشاجرة. لم أكن معتادة على هذا النوع من الترف. عندما أسافر أنا أقضي الوقت في الهوستلز شبه المجانية. إذا رافقتني أمي نذهب إلى أرخص فندق أجده على tripadvisor. غالباً 3 نجمات، مرة قضينا ليلتين في ميلانو في فندق بنجمتين، لكنه لم يكن يستحق أي نجمة.

لم أكن قد استوعبت حجم رفاهية الفندق إلى أن وصلت إلى الجناح الذي حجزه خالي لنا. في الطابق الثاني عشر، أنا وأمي وخالي في جناح، وهو وجدي في جناح آخر ملاصق. في المصعد قال لنا خالي إن اسم الجناح «الكعبة بريميوم»، فتخيلت أنه ربما مجرد اسم يميز كل جناح أو كل طابق. كانت الخطة هي أن نذهب إلى الجناح فقط لنتوضأ، نسلم على جدي إن كان مستيقظاً، ثم نذهب مباشرة لأداء العمرة، وكان خالي متذمراً من الفقرة الأخيرة ولكن عمي تجاهل تذمره تماماً.

فتح عمي باب الجناح، كان شديد الأناقة والتميز حتى بمعاييري المعمارية، لكن المنظر على النافذة أخذ أنظاري فوراً، ذهبت فوراً لها، وجدت الكعبة أمامي. كان مشهداً يأخذ الأنفاس. لم أفهم هذا الجمال. لم أفهم لماذا هو جميل هكذا. أفهم جمال الطبيعة، البحر، الغابات، المروج الخضراء، الجبال الشاهقة، أفهم أن يتأثر المؤمنون بهذا المشهد، فهذا جزء من إيمانهم، لكن كيف يحدث هذا معي؟ ليس لديَّ هذا الرصيد من العاطفة الذي يجعلني أتحسس لهذا المشهد.

جاءت أمي وبعدها خالي إلى النافذة. سمعتهما يقولان «صلوات على محمد وآل محمد» بطريقة عفوية.

فلتت مني جملة: بحق يسوع المسيح، المشهد فعلاً واو.

سمعت صوت عمي يضحك: بحق يسوع أمام الكعبة؟ يبدو أننا سنقضي وقتاً ممتعاً مريمة.

التفتُّ له لأقول إن هذا مجرد «تعبير» أستخدمه دون أي معنى ديني، فوجدته يؤشر لي أنه يفهم ما أعني، لم أكن قد نطقت بعد، لكنه أشار لي أنه يفهم، وأحسست أنه فعلاً فهم ما سأقول. غمرني مرة أخرى شعور أني أعرفه منذ زمن بعيد جداً.

رجعت إلى المشهد الأخاذ أمامي، فكرت بأن هذا المشهد حصري فقط لأصحاب رؤوس الأموال.

قلت: أشعر كأنني رأسمالية.

ردت أمي: استمتعي بالأمر ما دمت تقدرين.

وصلني إشعار على الهاتف. تذكرت أني لم أصور المشهد، كان المشهد جميلاً لدرجة أني نسيت هاتفي. درجة جمال أي شيء يمكن أن تقاس بقدرة هذا الشيء على إلهائك عن هاتفك. على الأقل هذا هو مقياسي للأمور.

فتحت الكاميرا وصورت منتقلة من الأثاث إلى النافذة ثم إلى الكعبة وأنا أقول: و«الآن.. لحظة الحقيقة.. تادا.. سأقضي الكريسماس في مكة. ما رأيكم؟».

* * *

قال عمي إننا يمكن أن نذهب إلى جدي في جناحه قبل نزولنا إلى الحرم، قال أيضاً إنه ربما لا يزال نائماً، وأنه غالباً لن يذكرنا ولن يعرف من نحن. قالها بحرج وهو يضيف: أحياناً يتذكر جيداً. أحياناً لا يذكر أحداً.

فتح عمي الباب، نفس الجناح «الكعبة بريميوم». لكن الرائحة مختلفة جداً. ثمة عطر خاص في الغرفة، عطر أعاد لي نفس شعور الديجا فو. أذكر هذا العطر كما لو كان قادماً من فترة زمنية سابقة لا أذكر عنها شيئاً. لكني أذكرها. هل يكون للزمن رائحة؟

جدي جالس على مقعد قرب النافذة. يرتدي بدلة رسمية من 3 قطع وربطة عنق. منظره مهيب جداً كما لو كان في لوحة زيتية من ثلاثينيات القرن

العشرين. ألوان البدلة كانت تتماهى مع لون السماء والكعبة خلفه كانت تزيد بهاء اللوحة وهيبتها.

كان الخادم الخاص يقف مرتبكاً: «لقد أصر أن يرتدي هذه البدلة في انتظاركم».

«بابا، هذه مريم، ابنة عمر، تذكرها؟».

لم يرد جدي على سؤال عمي. ابتسم ابتسامة ملأت وجهه، وحاول الوقوف، فتح ذراعيه ليحتضنني، فأسرعت له واحتضنته.

بين أحضانه، عرفت أنه مصدر العطر.



حيدر 5

ملأني شعور بالحسد تجاه سعد عندما رأيته وهو يساعد أباه ويضعه في كرسي العجلة ويربت على يديه ويعامله بحنان.

أنساني المنظر كل شيء، حتى منظر الكعبة الذي أبهرني قبل دقائق.

سعد، هذا الدعي المتفلسف، أبو عقلين[1]، الذي كان يحرج شقيقه عمر بثرثرته وتطاوله على الجميع - الجميع بمن فيهم والداه - ينتهي ليكون هذا الابن البار الذي يرعى والده في شيخوخته وخرفه، وغالباً سيكون معه عند وفاته، بينما أنا، عجزت حتى عن الحضور في جنازة أبي.

ذكرني سعد بكل ما لم أفعل. لقد نجح فيما فشلت فيه فشلي الأكبر، ربما فشلي الذي قاد إلى كل ما أنا فيه الآن. هزني منظر سعد وأبيه، هذا السعد الذي كنا نتندر عليه أنجح مني بكثير.

نزلنا إلى بهو الفندق بينما سعد يشرح لنا عن مميزات الفندق وقربه من الحرم، وكيف أن العمرة التي أداها أمس كانت ميسرة جداً. سألته وكلي رغبة في أن لا يصاحبنا: هل ستعتمر مجدداً؟ ألم تعتمر أمس؟ ألا تريد أن ترتاح؟

قال: أمس عمرتان، هذه الثالثة، العمرة الثانية كانت لأمي. ثم أكمل بصوت خفيض: وهذه لعمر.

عمرتان وهذه الثالثة يا سعد. واحدة لأمك وثانية لأخيك. وها أنت تدفع والدك على كرسي العجلة. لعلك لن تعرف أبداً كم يمكنني أن أدفع لأكون مكانك.

---

(١) تقال لمن يعتبر خفيف العقل.

خطوات بعد خروجنا من الفندق كنا في الحرم المكي، الساحة واسعة رخامية بيضاء، يفترض أن تشعر بالهدوء والسكينة، لكني لم أشعر بهما، كان منظر سعد وهو يدفع أبيه على الكرسي مستفزاً جداً لي، سبقتهم وأسرعت الخطى، ركض خلفي سعد وأعطاني كتيباً صغيراً فيه إرشادات مبسطة عن مناسك العمرة، كما قال. لا يزال سعد يعتقد أنه يعرف كل شيء عن كل شيء. لكن لا بأس. أخذت الكتيب ووضعته في حقيبتي. هذا الكتيب سني بالتأكيد.

قال سعد: هذا الكتاب حسب مذهب أهل البيت، أخذته من مشرف الحملة الشيعي. لدينا مشرف شيعي وآخر سني حسب الأصول.

شكرته وأنا أسأل نفسي: أي لعبة يلعبها سعد؟ هل يريد أن يظهر بمظهر المعتدل اللطيف. يلعب غيرها.

لكن سعداً أكمل: قصدت بمذهب أهل البيت السيدة عائشة وسائر زوجات النبي وابن عباس.. هم الذين نقلوا لنا أحاديث العمرة.

لم يفقد لؤمه وجه النحس هذا. لم أرد الدخول في أي نقاش، فهممت أن أمشي دون إكماله، لكن سعداً ضحك وهو يمسك كتفي: أمزح معك يا دكتور، والله هذا الكتيب شيعي ومن شيعي، اطمئن. نسخة لك ونسخة لميادة.

يبدو واثقاً أن مريم سنية. لن يكف عن هبله هذا التافه.

قبل أن نصل إلى باب الملك عبد العزيز الذي ندخل منه إلى المسجد الحرام تصفحت الكتيب لأطلع على ما يجب أن أفعله، أدركت أن الوقت تأخر لهذا. كان يجب أن يعطيني سعد الكتيب في الطريق إلى مكة.

دخلنا المسجد، نزعنا أحذيتنا ووضعناها في أكياس توزع لهذا الغرض وحملناها معنا بناء على نصيحة سعد. هناك رفوف للأحذية ورغم ذلك هناك أحذية على الأرض في فوضى كريهة. لا أمل هناك في هذا الشرق الذي لن يتطور أبداً. «ماكو كل چارة»[1]. سنبقى في هذه الفوضى إلى الأبد.

(١) چارة: إصلاح أو علاج، أصلها فارسي، ماكو جارة أي لا علاج، وتلفظ بالجيم المثلثة مثل ch.

دخلت المطاف، وجدت نفسي أدخل بين جموع الناس، سمعت سعداً يؤشر لي إلى مكان ويقول «من هنا البداية، تحسب سبعة» وصوت ميادة يقول لي إنها ستسير خلفي، لكني لم أرد على أي منهما، فجأة ودون سابق إنذار وجدت نفسي أنظر مشدوها إلى الكعبة، رأيت في حياتي مباني عالية شاهقة كثيرة، مركز التجارة العالمي في نيويورك، الإمباير ستيت، أبراج بتروناس في كوالا لامبور، برج خليفة في دبي.. لكن لا شيء كان يشبه هذا.. أحاول أن أجد ما أقول للدعاء، لا أحفظ شيئاً غير «آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وكانت ميادة قد قالت إنه «مستحب» قبل قليل من دخولنا الحرم. كررته مائة مرة. ربما ألف. أنا في الطواف الثالث. أكاد أنهيه. أريد أن أدعو دعاء آخر، تذكرت أن الصحيفة السجادية معي في حقيبة يدي، أخرجها وأنظر إلى الفهرس، قرأت: الدعاء السابع: وكان من دعائه (عليه السلام) إذا عَرَضت له مهمّة أو نزلَتْ ملّهمة.. نعم لا بد أن يكون هذا..

اقرأ..

(... يَا مَنْ تُحَلُّ بِه عُقَدُ الْمَكارِه، وَيَا مَنْ يُفْثَأُ بِه حَدُّ الشَّدَائد، وَيَا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ الْمَخْرَجُ إلَى رَوْحِ الْفَرَجِ، ذَلَّتْ لِقُدْرَتِكَ الصِّعَابُ وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الاسْبَابُ، وَجَرى بِقُدْرَتِكَ الْقَضَاءُ وَمَضَتْ عَلَى إرَادَتِكَ الاشْيَاءُ، فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ. أنْتَ الْمَدْعُوُّ لِلْمُهِمَّاتِ، وَأَنْتَ الْمَفْزَعُ فِي الْمُلِمَّاتِ، لاَيَنْدَفِعُ مِنْهَا إلاَّ مَا دَفَعْتَ، وَلا يَنْكَشِفُ مِنْهَا إلاَّ مَا كَشَفْتَ.

وَقَدْ نَزَلَ بِي يا رَبِّ مَا قَدْ تَكَأدَنِيَّ ثِقْلُهُ، وَأَلَمَّ بِي مَا قَدْ بَهَظَنِي حَمْلُهُ، وَبِقُدْرَتِكَ أَوْرَدْتَهُ عَلَيَّ وَبِسُلْطَانِكَ وَجَّهْتَهُ إلَيَّ.

فَلاَ مُصْدِرَ لِمَا أوْرَدْتَ، وَلاَ صَارِفَ لِمَا وَجَّهْتَ، وَلاَ فَاتِحَ لِمَا أغْلَقْتَ، وَلاَ مُغْلِقَ لِمَا فَتَحْتَ، وَلاَ مُيَسِّرَ لِمَا عَسَّرْتَ، وَلاَ نَاصِرَ لِمَنْ خَذَلْتَ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، وَافْتَحْ لِي يَا رَبِّ بَابَ الْفَرَجِ بِطَوْلِكَ، وَاكْسِرْ عَنِّيْ سُلْطَانَ الْهَمِّ بِحَوْلِكَ، وَأَنِلْنِي حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا شَكَوْتُ، وَأَذِقْنِي حَلاَوَةَ الصُّنْعِ فِيمَا سَأَلْتُ.

وَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَفَرَجاً هَنِيئاً وَاجْعَلْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَخْرَجاً وَحِيّاً.

وَلا تَشْغَلْني بالاهْتِمَامِ عَنْ تَعَاهُدِ فُرُوضِكَ وَاسْتِعْمَالِ سُنَّتِك.

فَقَدْ ضِقْتُ لِمَا نَزَلَ بي يَا رَبِّ ذَرْعاً، وَامْتَلأْتُ بِحَمْلِ مَا حَدَثَ عَلَيَّ هَمّاً، وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى كَشْفِ مَامُنِيتُ بِه، وَدَفْعِ مَاوَقَعْتُ فِيه، فَافْعَلْ بِي ذلِكَ وَإِنْ لَمْ أَسْتَوْجِبْهُ مِنْكَ، يَا ذَا الْعَرْشِ الْعَظِيمِ..).

ضقت ذرعاً يا رب. ضقت ذرعاً. وامتلأت بحمل ما حدث عليَّ هما يا رب..

(... اللَّهُمَّ يَا مُنْتَهَى مَطْلَبِ الْحَاجَات، وَيَا مَنْ عِنْدَه نَيْلُ الطَّلِبَات، وَيَا مَنْ لا يَبِيْعُ نِعَمَهُ بِالاثْمَان، وَيَا مَنْ لا يُكَدِّرُ عَطَايَاهُ بِالامْتِنَان، وَيَا مَنْ يُسْتَغْنَى بِهِ وَلاَ يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَيَا مَنْ يُرْغَبُ إِلَيْهِ وَلا يُرْغَبُ عَنْهُ.

وَيَا مَنْ لا تُفنى خَزَآئِنَهُ الْمَسَائِلُ، وَيَا مَنْ لاَ تُبَدِّلُ حِكْمَتَهُ الْوَسَائِلُ. وَيَا مَنْ لاَ تَنْقَطِعُ عَنْهُ حَوَائِجُ الْمُحْتَاجِينَ وَيَا مَنْ لا يُعَنِّيه دُعَاءُ الدَّاعِين تَمَدَّحْتَ بِالْغَنَاءِ عَنْ خَلْقِكَ وَأَنْتَ أَهْلُ الْغِنَى عَنْهُمْ، وَنَسَبْتَهُمْ إِلَى الفَقْرِ وَهُمْ أَهْلُ الْفَقْرِ إِلَيْكَ...).

ضمن الدعاء كتب (أن يذكر حاجته كذا وكذا).. كذا وكذا؟ كيف ألخص الأمر بكذا وكذا؟ بل كيف أصلاً سأجد الشجاعة لأقول ما يجب عليَّ أن أقوله.. يعرف كل شيء، سبحانه، لكن كيف أقول هذا بلساني عنده.

جاء وفد من معتمرين أفارقة، يتجهون إلى الحجر الأسود، كنت على بعد أمتار فقط، أخذوني معهم كموجة جارفة لا يقف أمامها شيء، حاولت المقاومة، لم أكن أستطيع أن أقترب منه أكثر وأنا محمل بعاري هكذا، لست مستعداً لذلك، ربما لن أكون مستعداً أبداً، لكن مقاومتي لم تُجد، وجدت نفسي فجأة أرتطم بشيء صلب. إنه جدار الكعبة. أنا أمسك ستارها بيدي.

وجدت نفسي أقول: أحمل عاري إليك يا عليم بما أريد أن أقوله.. يا رحمن.. يا رحيم.

وجدت نفسي أهمس: سارة يا رب، سارة حامل من صديقها، ولا تنوي الزواج، تريد أن تنجب بلا زواج ولا عقد من أي نوع. وهو لن يسلم. لا يعتقدان أن الزواج مهم. سارة ستنجب سفاحاً يا رب، أحمل عارها يا رب، أحمل وزر تربيتي لها، أحمل عاري، أحمل الثمن الباهظ الذي دفعته والذي لم يخطر في ذهني سابقاً، أنت تعرف أني أتعذب، وأن ما بيدي حيلة، يا رب المحتاجين، أحتاجك.. أدفع حياتي الآن عذاباً في كل لحظة.. يا رب، لا أعرف ماذا أريد بالضبط.. ساعدني فقط.. حتى التنفس أصبح شاقاً.. ساعدني يا رب.

* * *

جاءت سارة في عيد الفصح الماضي وقد مهدت أن لديها خبراً مهماً ستعلن عنه.

جاءت ومعها لوك، صديق لها منذ الجامعة، كان مقرباً منها، ولم تكن أول مرة تأتي به إلى تجمع عائلي، ولم يكن الوحيد الذي يأتي معها. كان هناك بيرت، ديكلان، جوشوا، وآخرون لم يستمروا كثيراً. علاقتها بجوشوا وبيرت - على الأقل- كانت جادة. لكن لا شيء بعد ذلك.

على مائدة عيد الفصح، أميلي أعدت الـ Baked Ham الذي تحبه سارة، مع بطاطا جرسي رويال، وخروف الربيع الذي نعرف أن لوك يحبه.

قبل أن ننتهي من الوجبة، دقت سارة بالملعقة على قدح الماء أمامها لتجذب انتباهنا جميعاً، لم يكن هناك داع لذلك، كنا أربعة أشخاص فقط، هي ولوك، أنا وأميلي. حركة سينمائية سخيفة ولم تكن مبشرة بخير أبداً.

قالت سارة: لدي إعلان مهم، أنا ولوك.

هي ولوك؟

هل من الممكن أنه عرض عليها الزواج وأنها وافقت مثلاً. لوك! مستحيل.

أمسكت أميلي بيدي وكأنها كانت تتوقع ما سيحدث.

قالت سارة دون مزيد من التشويق: أنا ولوك، ننتظر طفلاً.

قالتها بفرحة، كما لو كانت تنتظر هذا الطفل بعد عشر سنوات زواج وخمس محاولات فاشلة لأطفال الأنابيب.

«هل هذه مزحة؟» قلت جاداً. كان لديَّ أمل أنها كانت تمزح، وأن هذا الموقف كله يتم تصويره عبر كاميرا خفية لنضحك عليه لاحقاً.

تغيرت ملامح سارة، قالت: أنا جادة جداً، أحب طفلي ولن أجعله مادة مزاح.

أمسكت أميلي بيدي مجدداً وضغطت عليها كما لو لتقول لي أن أهدأ.

«لا بد أنكِ جننتِ» قلت وأنا أنهض من مقعدي.

«جننت، جننت بالتأكيد». كررت.

قالت بصوت مرتفع: هل كنت تفضل أن أقتله؟ هل هذا سيكون أفضل بالنسبة لك؟

في الحقيقة هذا صحيح، لو أنها أجهضت ابن الحرام هذا لكان أفضل مائة مرة بالنسبة لي. لا. ألف مرة. مليون مرة. مليون مرة قاتلة لجنين أفضل من أن تحمل سفاحاً.. ومن لوك.

«كيف تفكرين؟ ماذا قلتِ لنفسك قبل أن تأتي اليوم لتحملي هذا الخبر؟ هل توقعتِ أننا سنشرب نخبَ ابن الحرام هذا؟ هل ستتوقعين أن نفرح ونختار معك أسماء محتملة؟».

قالت أميلي: هايد، عليك أن تهدأ، نحن بالتأكيد سنقف مع خياراتها.

قاطعتها سارة: لا. لم أتوقع أنك ستفرح. لكني سئمت من هذا النفاق المستمر الذي تعيش فيه والذي تريدنا أن نعيش فيه أيضاً، جئت لأقول لك إنه سيكون لك حفيد «خارج إطار الزواج» وليس ابن حرام كما قلت بمفاهيمك المتخلفة.

«لم تفكري بأحد كعادتك، لم تفكري بي، لم تفكري بأسرتي، بجدتك، طفل خارج إطار الزواج، وسعيدة به أيضاً، ومن هذا.. الـ «.

قاطعتني أميلي: هايد، لا تقل أشياء نندم عليها جميعاً فيما بعد.

«أنا أنانية؟ أنت الأناني. أنت أكبر أناني يمكنني أن أتخيله. العالم كله يدور حول اسمك ومركزك وسمعتك بين الجالية الثرثارة التي لا تكف عن النميمة لحظة واحدة».

«ربما أكون أنانياً، لكني بالتأكيد فشلت في تربيتك، هذا أسلوب تتحدثين به مع أبيك، ساقطة».

«اسمع إذن ما ستقوله لك الساقطة التي تحمل اسمك، لن أتزوج أنا ولوك، لا تتوقع أني سأسرع لعقد زواج يحفظ ماء وجهك عند الجالية، لا تتوقع أن يغير لوك دينه ليناسب دينك الذي يميز بين الرجل والمرأة في هذا الشيء، أنا ولوك لا نؤمن بمؤسسة الزواج من الأساس ولن نتزوج لإرضاء أي أحد».

«الزواج؟! عن أي شيء تتحدثين؟ هل تعتقدين أن زواجك من لوك تحديداً سيحل أي مشكلة بالنسبة لي، هل تعتقدين أنك تعاقبينني بعدم الزواج من لوك؟ الزواج من لوك هو العقوبة، بالنسبة لي، لوك تحديداً».

قالت أميلي: هايد، كفى!

وقفت سارة بتحدٍ: لماذا لوك تحديداً؟

لم أرد. سمعت صوت لوك يقول لها: لقد أخبرتك يا سارة. كفى. فلنذهب.

قالت مرة أخرى وبتحدٍ أكبر: لماذا لوك تحديداً. كن رجلاً وقلها.

لم أرد. كنت أنظر إليها عيناً بعين. أميلي تقول: كفى كلاكما. ولوك ينهض وهو يقول: لا أريد أن أسمع المزيد.

سارة تنظر لي عيناً بعين وتقول: كن رجلاً وقلها.

ابنتي تشكك في رجولتي. وتتحداني أن أقول ما برأسي.

سكوتي انتصار لها، إقرار أني لست رجلاً.

«هل تريدين حقاً أن تسمعي؟» سألتها وأنا أعطيها فرصة للخروج من هذا.

«كن رجلاً صريحاً ودعني أسمعها».

«إذن اسمعيها، لأن لوك أسود، ابنك سيكون أسود مثله، سيبقى ذلك في أحفاده، أحفادي أنا، سيكون زنجياً، لا شيء سيغير ذلك، عقد الزواج لن يغير من شيء، المشكلة في الأب».

سكتت سارة وعلى وجهها ابتسامة ساخرة متألمة. سمعت صوت لوك يخرج ويغلق الباب خلفه.

قالت لي وبصوتها نفس نبرة التحدي: سيكون الأمر أسهل عليك لو كان لوك أبيض؟ لو كنت حبلى من أي من أصدقائي البيض؟».

سكتُّ. لم أشأ أصلاً أن أفكر في جوابي.

قالت: لا أصدق كم أنت متناقض ومنافق. هذا الحديث عن الشرف والحمل خارج إطار الزواج كله يمكن أن يطير من أجل أوهامك العنصرية، لو كنت حبلى من جوشوا فلا بأس، يمكنك أن تتقبل الأمر وتتعايش معه، لكن مع أب أسود، لا. الأمر مختلف».

«ستندمين».

«ربما. لكني منسجمة مع نفسي، لا أدعي شيئاً لا أؤمن به ولا أنفذه، أنت ستندم بسبب العكس بالضبط، لأنك تدعي أشياء لا تؤمن بها».

في هذا كانت محقة. كنت أشعر بالندم على أشياء كثيرة منذ أن بدأ هذا الحوار.

«ثم هناك شيء آخر.. ألا ترى أنك تعيش دوراً لا يناسبك؟ لقد صدقت أكثر مما يجب دور «الرجل الأبيض».. نزعة التفوق البيضاء غير مناسبة لجلدك، هل تعتقد لمجرد أنك تزوجت من بيضاء وصرت تحاول التحدث

باللكنة البريطانية وأعطيت صوتك لصالح البريكست أنك ستحوز عضوية في نادي البيض العنصريين ويحق لك أن تعاير السود بلونهم؟ لقد نسيت نفسك. أنت عربي. نصف أسود. نفس هؤلاء البيض يحتقرونك كما يحتقرون السود، بل وأكثر، ما الذي يجعلك تعتقد أنك مؤهل أصلاً لتكون عنصرياً؟ الدور أكبر منك!.. أسميت لوك «زنجياً»؟ لا أحد يسمي السود بهذا الآن، لكن تذكَّر أن عرقك ونسبك ليس أرقى منه بأي حال من الأحوال، هل تعرف ماذا يسميك العنصريون من البيض؟ أنت بالنسبة لهم sand nigger ، بدلاً من أن تأتي من الغابة، جئت من الصحراء ومعك تخلفك وشعورك بالدونية».

أنا ابن الكرادة المترف. ابنتي تقول لي أني جئت من الصحراء.

وجدت نفسي أرفع يدي على سارة.. لولا أن أميلي تدخلت لكنت صفعتها.

كانت هذه أول مرة في حياتي أفكر مجرد التفكير في ذلك.

* * *

عندما تركت ستارة الكعبة كانت مبللة، هنا فقط انتبهت إلى أني كنت أبكي بقوة كما لم أفعل في حياتي.

أنهيت الطواف السابع وأنا أجر نفسي جراً، أنهكني الدعاء، أنهكتني مواجهة نفسي بكل ما قلت، أنهكني أن أحمل عاري وأحكيه في هذا المكان.. مر في بالي خاطر أني الوحيد بين كل هذه الجموع التي حبلت ابنته الوحيدة سفاحاً..

رغم ذلك أحسست بأني قد أزحت عبئاً ثقيلاً عن صدري.

* * *

وجدت ميادة عند إشارة بدء الطواف، كان واضحاً أنها بكت كثيراً، سألتها: ماذا نفعل الآن؟

أشارت لي أن أصلي ركعتين خلف «مقام إبراهيم» - وقالت لي «لن تجد مكاناً هناك فصلٍّ أينما استطعت ثم نذهب لنشرب من ماء زمزم، وبعدها نذهب إلى السعي بين الصفا والمروة».

صليت ركعتين. كانتا أول ركعتين أصليهما منذ فترة. ربما منذ أن ذهبت إلى الحسينية في نيوكاسل. يا لي من وغد. أستحق كل ما يحدث لي.

ذهبت لأشرب من زمزم. أحسست بطعم غريب. شربت كثيراً. تمنيت بطريقة ما أن يخفف هذا الماء من كأس النبيذ الذي شربته قبل ساعات.

عندما عدت إلى ميادة شاهدت في طريقي مريم تصلي. كانت تصلي متكتفة.

قلت لميادة: بنتك تصلي مثل السنة، لماذا؟

كانت ميادة تقرأ في كتاب أدعية، رفعت عينيها ونظرت لي من فوق نظارتها الطبية وقالت: نعم.. أبوها سني، هل نسيت؟

سعد 5

دفعت أبي بكرسيه المتحرك إلى الصحن العلوي للطواف. كان الحجي ثامر اقترح عدة مرات أن أؤجر شخصاً يقوم بهذه المهمة عني. لكن لا. لن يحدث. يمكن لي أن أفعل ذلك مع شخص يبقى بجانبه كي لا يبقى وحيداً. لكن ليس دفعه في الحرم المكي. ليس مساعدته على الاستحمام. ما كان يمكن أن أدع كمالي تساعده على ذلك. كل اثنين وجمعة، كان موعد الاستحمام مع أبي. استحمام ثم تقليم أظافر يديه وقدميه.

أغلب الناس يعتقدون أن الألزهايمر شيء محزن، يتعاملون معه باعتباره مرضاً أخذ أحلى الذكريات من أحبائهم. بالنسبة لي الأمر لم يكن كذلك قط. على العكس، لقد ساعدني الألزهايمر على أن أكون ابناً باراً أكثر. في الحقيقة، لقد ساعدني الألزهايمر على أن أعيد بناء علاقة مهدمة تماماً بأبي. ما كنت سأتمكن من أن أفعل أي شيء من هذا الذي أفعله الآن لولا الألزهايمر، كنت سأكون متوجساً طيلة الوقت من موقف أبي، من رد فعله تجاهي بسبب أكوامٍ من المواقف السابقة. جعلني الألزهايمر أتعامل مع صفحة بيضاء تقريباً، أحياناً لم يكن أبي يذكر من أكون، أو يذكر القليل جداً عني، ولم يكن هذا محزناً لي على الإطلاق، كان أفضل من أن يذكر مواقف لي، أخجل الآن من مجرد مرورها في ذاكرتي.

بدأت مشاكلي مع أبي مبكراً. كنت أشعر دوماً أنه يفضل عمر عليَّ. عمر كان الأكبر والأذكى والأكثر وسامة والأكثر طاعة والتزاماً بكل ما يقول، وكان أيضاً الأكثر تفوقاً. حاولت مراراً أن أتفوق عليه بالعلامات الدراسية، ولكن لم أستطع الحصول على مركز أعلى من الثالث في أحسن فصولي الدراسية، بينما كان عمر الأول على مرحلته دوماً.. حملت كل ذلك معي في علاقتي بأبي

في المراهقة وما بعدها، كنت أجد تفسيراً لكل مشاكلي في تفضيل أبي لعمر عليَّ، ومع الوقت صرت أتحدث عن ذلك وأتهم بل وأصرخ أحياناً. تزامن كل ذلك مع إحالته على التقاعد برتبة أدنى كنوع من العقوبة، لأنه تحدث في محاضراته في جامعة البكر للدراسات العسكرية عن بعض الأخطاء في خطط المعارك في الحرب مع إيران، وعن خطأ قرار الحرب بالأساس، هكذا اصطدمت به في الوقت الذي كان هو يمر بأسوأ أطوار حياته، وجعل ذلك الأمور أسوأ وأسوأ بيننا.

وجدت أبي ليكون شماعة أفسر بها كل فشل أمر به. كنت أقول له إن الأساتذة في المدرسة كانوا يعادونني ولا يمنحوني ما أستحق لأنه أصبح مكروهاً من قبل الحكومة، بينما عمر أفلت من ذلك. كان ذلك كذباً بلا شك.. تعودت أن ألومه على كل شيء إلى أن وصلت إلى عقمي. كنت أعرف أنه لا معنى في اتهامه بهذا. ولكنه كان قد أصبح مثل كيس الملاكمة الذي تعودت أن أوجه له كلمات كاللكمات.

كان نسيان أبي لكل شيء بمثابة إشارة لي لكي أبدأ من جديد. فهمت ذلك بالتدريج، لكني التقطت أولى إشارات ذلك صبيحة يوم ما عندما وجدته يتعامل معي بشكل ودي تماماً، بعد أن كنت صرخت به في الليلة السابقة. كان ذلك بعد شهر تقريباً من وفاة أمي، فهمت أنه قد نسي ما حدث، وكنت قد ندمت على صراخي ولكن لم أجد الجرأة على الاعتذار، فاستثمرت في نسيانه لكي أكون ودوداً أكثر.

قال لي أبي وأنا في الشوط الثاني من السعي أن أقلل سرعتي قليلاً، ثم سألني «هل أعطاك عمر أجرتك؟».

قلت له: نعم، الحمد لله. أخذتها مقدماً.

* * *

في كل شوط من أشواط السعي بين الصفا والمروة، ما كان لي أن أنسى سوسن.

في بداية زواجنا، كانت تقول لي: أريد أن يكون لي بنتان، صفا ومروة.

كنت أضحك وأقول لها: أريد أن أفتتح بذكر. أريد أن أسميه «وقاص».

لم يكتب الله لنا أياً منهم. لا وقاص. ولا صفا ولا مروة. ولا حتى جنين عابر. ولا حتى حمل خارج الرحم. لا شيء.

بعد أشهر من زواجنا ذهبنا إلى د. سرمد خوندة.. الأمور تبدو طبيعية مع سوسن. فحوصاتي قادت إلى فحوصات أخرى وأخرى، من الواضح أن «العيب مني».

بعد سرمد خوندة ذهبنا إلى قيس كبة، وفاء العمري، ندى العبادي. لم يبق اسم من الأسماء المشهورة في بغداد إلا وقصدناه. أغلبهم بعد أن يرى نتائج التحليلات كان يقول إن الأمر يتطلب علاجاً طويلاً دون رفع الآمال عالياً.

واجهت سوسن الأمر بشجاعة صامتة، تحملت التعليقات والتلميحات دون أن تتحدث عن شيء، دون أن تلمح إلى شيء، قلت لأمي منذ البداية أن سوسن لا تشكو من شيء وأنا من يجب أن أتلقى علاجاً طويلاً، قوى هذا من علاقتها بسوسن وأصبحت تعتبرها كابنتها تماماً.. كانت لطيفة معها منذ البداية على أي حال..

قبل السنة الثانية أخبرت عمر بكل شيء. الانطباع على وجهه كان واضحاً عندما قرأ التحليلات. لا يوجد إنتاج للحيامن. العلاج آماله ضعيفة.

صمدت سوسن، كانت تحبني، تزوجنا بعد قصة حب في الكلية.. منذ السنة الثانية، قالت لي إنها ستبقى معي مهما حدث. كانت تقصد «حتى لو لم ننجب»، لكن الذي حدث لم يكن فقط «عدم الإنجاب»، بل حدث أني دخلت في معارك مع كل شيء حولي، كيف يمكن لشخص يحمل «الأنا» التي أحملها أن يواجه أنه سيبقى طيلة حياته عاجزاً عن إنتاج ما يستطيع 99.9 % من ذكور العالم إنتاجه كل يوم دون تفكير في الأمر أصلاً؟ يستطيع أي مراهق جاهل أو رجل أمي أن ينتج ما لا أتمكن أنا من إنتاجه إطلاقاً.

واجهت الأمر بالانتقام الساخر من كل شيء. كل شيء. انتقام من كل من يمر أمامي بتعليقات حادة وانتقادات لاذعة. لم يسلم أحد مني. لا أمي ولا أبي. لومي الأكبر كان لأبي على نحو لا يمت للمنطق بصلة. أعرف هذا الآن وكنت أعرفه آنذاك. كنت أبرره مع نفسي أن عيبي هذا لا بد أن يكون جينياً ولا بد أن يكون قد جاء منه. أعرف الآن كم هذا سخيف، بل كنت أعرفه آنذاك أيضاً، لكنها كانت طريقتي في التعويض عن الأمر.

حربي مع الكل شملت سوسن أيضاً، كنت أتمرد على فكرة أنها قد بقيت معي شفقة عليَّ. لا أريد شفقتك كنت أصرخ بها. عندما قالت لي أنها «ستبقى مهما حدث» لم تقصد هذا بالتأكيد.

لم أصمد في أي عمل طبعاً، لم يكن هناك مدير مكتب أو مقاول أو عميل يتحمل تعاملي هذا. وجهتني سوسن أن أقدم للحصول على الماجستير، بينما أخذت تعمل هي في أكثر من مكتب وكان عملها مزدهراً بالتدريج. كانت معمارية جيدة ولديها اللباقة الكافية لترضي معاييرها ومعايير العملاء في آن واحد.

في السعي بين الصفا والمروة، ما كان يمكن أن أهرب من هذا كله، من بنتين لم أستطع أن أنجبهما، من ذلك السعي بين أحلام عالية لم تتحقق وبين واقع مرير محبط، بين الأنا العالية المترفعة وحقيقتها الدنيا، بين كل ما كنت أريده، وكل ما انتهيت إليه.

* * *

عندما أصيبت أمي بالجلطة الدماغية بعد شهر تقريباً من موت عمر، كانت سوسن هي التي بقيت معها في كل تفصيل صغير، كانت أمي مشلولة، لذا كانت سوسن تقوم بمساعدتها في كل شيء، تؤكلها، تشربها، تساعدها على تنظيف نفسها بعد قضاء الحاجة، كل شيء.

بعد أقل من سنة توفيت أمي بين يدي سوسن. وقفت سوسن في العزاء كما لو كانت ابنتها.

بعد أسبوع من العزاء قالت لي إنها تريد أن تذهب إلى «عمان» لتزور بنت خالتها. كانت إجازة مستحقة بعد عام الحزن ذاك، وبغداد في أسوأ حالاتها، والصيف في عمّان ألطف وأرق. ما كان يمكن أصلاً أن أفكر بأن أقول لها أن تبقى.

عندما سافرت ودعتني وأجهشت بالبكاء بمرارة وهي تحتضنني، فكرت أنها ربما تفكر أن هذه آخر مرة تراني، لكني فهمت الأمر على أساس سهولة احتمال قتلي، بما أني في بغداد.

كانت تتصل كل يوم تقريباً، ثم أخذت الاتصالات تتباعد، تتصل فقط لو سمعت في الأخبار أن ثمة انفجاراً قريباً أو شيئاً كهذا. تكتفي غالباً بالرسائل. لم يعد الأمر «الصيف في عمّان»، لكن لم أضغط عليها للعودة.

بعد أشهر من سفرها جاءني اتصال من رقم غريب، بمفتاح دولي يبدأ بـ 0046.

كانت سوسن، تتحدث من السويد.

قالت إنها تمكنت من العبور إلى السويد لزيارة شقيقها، وأنها ستتقدم على اللجوء هناك.

لم أسألها عني. لم أسألها عن زواجنا. كنت أعرف. لكني فضلت ألا أسأل.

لم تنقطع عن التواصل تماماً، ولكن بقي بشكل محدود جداً.

بعد أشهر اتصلت بي وتحدثت معي طويلاً. طلبت مني الطلاق.

كانت تريد أن تبرر، ولم تكن بحاجة إلى تبرير. وفرت عليها عناء ذلك. قلت لها إني جاهز لأي شيء يتعلق بإجراءات الطلاق. بكت بشدة وهي تشكرني.

كانت في الـ 39.. لا تزال لديها فرصة للإنجاب.

تزوجت بعد أشهر من فلسطيني أربعيني لم يتزوج من قبل.

ولديهما الآن صفا ومروة وعبد الرحمن.

* * *

ما لم أستطع استيعابه بسهولة، هو: كيف تمضي بنا الحياة إلى اتجاهات مختلفة ولا تبقي أي شيء من حياة سابقة لنا؟ أفكر بسوسن، لا بد أنها تستيقظ كل صباح اليوم وتعد الإفطار لأطفالها وزوجها وربما توصلهم إلى المدرسة، حياة مليئة مختلفة عن الحياة التي عاشتها معي، بقينا متزوجين 14 عاماً، والآن.. ربما لا شيء بقي من تلك الحياة في حياتها. أتساءل إن كانت تذكرني أحياناً.. أو تذكر حياتها معي.. هل يمكن أن ينتهي كل شيء حقاً؟

أول مرة رأيت صورتها مع طفلتها الأولى على الفيس بوك بكيت. بكيت بشدة. بكيت نفسي. بكيت قدري. بكيت كل طفل كان يمكن أن أكون أباً له.

لكني هدأت بعدها. صليت واستغفرت وبكيت أيضاً. كنت قد دخلت هذه المرحلة المختلفة من حياتي. حمدت الله على كل شيء. صرت أفهم معنى أن أحمد الله لأني قادر على حمده.

فكرت كثيراً أن أرسل هدية لها أو لأولادها، لكن خفت من رد فعل زوجها.

أفكر الآن أن أهديها عمرة. هل يجوز هذا؟ إهداء ثواب عمرة لشخص حي؟

ربما أسأل عن ذلك بعض المشايخ الذين يجلسون في الحرم.

ميادة 6

لم تكن هذه أول مرة أواجه هذا السؤال: لماذا ابنتكِ تصلي مثل السنة؟

كنت في كل مرة أرد بنفس الطريقة: أبوها سني.

لم يكن الأمر بهذه البساطة، لكن كان هذا جوابي الذي يسكتهم جميعاً. أو على الأقل يؤجل النقاش في الأمر. كنت شيعية تماماً، أنا. لا مزاح في ذلك. أحببت عمر وأنا كذلك وتزوجته وأنا كذلك. وبقيت كذلك. لم يحاول يوماً أن يجعلني غير ذلك. ولا حتى بكلمة. ما كنت سأتغير بكل الأحوال. لكنه لم يحاول. هذا ما لن أنساه أبداً له. سأبقى ممتنة له على ذلك. ولهذا حرصت أن تبقى مريم «سنية» على مذهب أبيها. ربما لو لم يكن قد مات، لجعلتها شيعية حتى دون أن يشعر بذلك. لكن ليس بعد أن مات. ليس بعد أن مات بالطريقة التي مات بها. جزء من وفائي له ولنبله كان أن أبقي على مريم سنية. هكذا تعاملت مع الموضوع. ليس أن الأمر كان مهماً جداً لي بأي شكل، ربما لو لم يحدث ما حدث لنا، لميثم ولعمر، لما فكرت أصلاً بالأمر. لكن اختلف الوضع بعدما حدث. صار ما يجب أن يكون واضحاً. أن تبقى مريم سنية وأمها شيعية سيفسر لمريم أصلاً كيف يمكن أن تتزوج شيعية من سني. هذا الجيل لا يعرف أن ذلك كان يحدث كثيراً في بغداد على أيامنا. الجيل الذي فتح عينيه على «القتل على الهوية» والمذابح، فتصور أن الأمر كان دوماً هكذا. سألتني مرة عن الفرق بين الشيعة والسنة فقلت لها ما أخبرتني به جدتي عندما كنت صغيرة «الفرق بيننا وبينهم أن السنة لا يزورون ولا يطبخون ولا يأكلون»[1]. هكذا بكل بساطة فسرت لي جدتي نصف الأمية الأمر. كبرت واكتشفت أن بعض السنة

(١) أي لا يزورون مراقد أئمة الشيعة ولا يطبخون في عاشوراء ولا يأكلون من هذا الطبخ أيضاً.

يزورون ويطبخون وأكثرهم يأكلون، ولكن بقيت أرى أن هذا التفسير أكثر نفعاً من قصص التاريخ. هذا هو الفرق بالنسبة للناس العاديين.

سألتني مريم مرة عن أبيها. هل كان في حزب أو له نشاط سياسي؟

عمت عيني عليك يا عمر. إشفت[1] من حياتك غير الدراسة والركض بالمستشفيات والخفارات والعمليات؟ إنوب[2] سياسة؟

قلت لها إنه كان من حزب الأغلبية. حزب «وِلْد الخايبة»[3] الذي ينتمي له أغلب العراقيين، شيعة وسنة وأي مذهب أو دين آخر. صدقت أولاً وتصورت أنه كان عضواً في حزب بهذا الاسم. ثم شرحت لها معنى الاسم فبدت عليها الصدمة من التعبير.

لم أكن حريصة كثيراً على صلاة مريم، ولا حتى على صلاتي، عفوك يا ربي، لكني علمتها عندما كانت في الثانية عشرة تقريباً، وحدث أن شاهدها بعض الأقارب في تجمعات رمضان أو العيد، وحصل فيها صلاة، وتلقيت هذه الملاحظة.

سؤال حيدر أوقظ كل أجوبتي الأخرى. حملتها معي إلى السعي بين الصفا والمروة. في الطواف ركزت على الدعاء لمريم، كل ما يمكن أن يخطر في بال أي أم من دعوات. دعوت لعمر ولميثم أيضاً. دعوت لهما بالرحمة، ولنفسي بالرحمة والصبر والمغفرة، ودعوت على كل من قتلهما. كائناً من كان.

لكن عندما سألني حيدر ذلك السؤال بعد الطواف، قبل السعي، وجدت جرحي ينفتح من أقصاه إلى أقصاه. السعي كما قرأت كان تتبعاً لخطوات هاجر بين جبلين وهي خائفة على ابنها. أما أنا، فقد حملت عمر على ظهري وأنا في السعي بين الصفا والمروة.

---

(١) إشفت = ماذا رأيت.. وأصلها إيش شفت؟

(٢) إنوب: هذه النوبة، هذه المرة.

(٣) وِلْد الخايبة: أولاد الخايبة، وتسمى الخايبة الأم التي يتعرض أبناؤها لظلم ولا تستطيع رفعه عنهم.

عمر وذكرياتي وجروحي التي لن تندمل، وكل هلعي وجزعي وخوفي وآمالي ولهفتي عليه، كلها حملتها على ظهري في المسعى.

بين الصفا والمروة، تذكرت ركضي بين مركز شرطة وآخر، وبين مستشفى وآخر، بين ثلاجة موتى وأخرى، بين مرقد وآخر.

تذكرت كل تلك المكالمات الهاتفية، والاتصالات التي تبعث الأمل، وكل ذلك الانتظار لأيام سبعة بدت لي سبعة قرون.

ثم..

* * *

الخميس 7 تموز 2005

تتصل أمي قبل العصر. صوتها مختنق. ميثم لم يرد على هاتفه منذ ثلاث ساعات. حاولت تهدئتها رغم أن الأمر أقلقني أيضاً.

اتصلت بجمانة زوجته. تصورت أنها ربما تكون أهدأ. وجدتها منهارة. قالت لي إن أمي قلقة دون أن تعرف أنه كان في طريقه إلى كربلاء.

«كربلاء؟! لماذا يذهب إلى كربلاء؟».

«لديهم نصب شبكات اتصالات قرب الحسينية، حلفته أن لا يذهب ولكنه قال لي إن هذا عمله ويجب أن يذهب. توسلت به والله».

كانت جمانة خائفة أن تلام في الأمر.

الطريق إلى كربلاء كان يمر بمنطقة صارت تعرف بمثلث الموت، جنوب غرب بغداد، تسيطر عليها القاعدة ويحدث فيها عمليات قتل على الهوية للشيعة عندما يمرون بها.

كان العالم يومها في أشد حالات فوضاه. انفجارات في لندن والإعلام متفرغ لها تماماً. قبل ثلاثة أيام خطف السفير المصري من منزله في شارع مجاور لنا، الشرطة الآن تملأ المكان تماماً، يقال إن خاطفيه ربما لم يبتعدوا كثيراً.

قررت أن أذهب إلى بيت أهلي في الكرادة مهما كان وضع الطريق صعباً. تركت مريم عند جدتها. وصلت بعد ساعتين تقريباً إلى الكرادة، كنت أتصل كل خمس دقائق بجمانة لأرى إن كان هناك تطورات. كفت جمانة عن الرد بعد قليل.

عندما وصلت البيت، كانت جمانة قد انهارت واعترفت لأمي بأن ميثم ذهب إلى الحسينية، تحول قلق أمي إلى غضب هستيري صبته أولاً على جمانة ثم على الجميع تباعاً.

في العاشرة مساء، كان هاتف ميثم قد أغلق. وأصبحت أمي «تلطم» وتقول «قتلوه»، وكان جو الأقارب والجيران مشجعاً للغاية على المضي في البكاء واللطم. لم أستطع أن أفعل أي شيء لتهدئة أمي، على العكس، وجدت نفسي أندمج في الجو، وألطم على ميثم حتى قبل أن نتأكد من شيء.

في الثامنة صباحاً دق هاتف جمانة من رقم غريب، شخص قال إنه زميل لميثم وأنه كان معه في السيارة، أوقفوا السيارة وأخذوا الجميع بمن فيهم ميثم وتركوه هو. أين؟ بين المحمودية واللطيفية. مثلث الموت بالضبط.

لم تسأله جمانة لماذا تركوه. قال لها إنهم ضربوه وهددوه ثم تركوه. كان ذلك يعني أنه سني، وأن الباقين شيعة.

لاحقاً اتصل شخص آخر، كان شيعياً لكنه أقنعهم أنه سني وصدقوه، فضربوه وتركوه يذهب. أقسم الرجل مائة مرة أنه لا يعرف ماذا حدث بعد أن تركوه يذهب. لكنه قال إن ميثم كان قوياً صلباً وكان يرد عليهم بقوة. هذا هو ميثم بالفعل. نفسه عزيزة «سودة عليَّ»[1].

ذهب أولاد عمي مع معارف لهم من الشرطة وقوات الأمن إلى المنطقة التي قال الرجل إنهم تركوه فيها. كانوا يبحثون في السواقي والأدغال، لم يجدوا شيئاً أول يوم. قبل ظهر اليوم الثالث، وجدوه مرمياً في ساقية مع آخرين، كان

(١) تستخدم النساء هذه الكلمة عندما يقع قريب لهن في مصيبة أو كارثة، يتمنين أن يقع هذا «السواد» عليهن بدلاً منه.

رأسه مفصولاً عن جسده. قطعوا لسانه. وأمعاؤه كانت مندلقة. قال عمر إن سبب الوفاة طلقتان في الرأس وأن كل ما حدث له لاحقاً كان بعد الوفاة وليس قبلها. ربما قال ذلك ليواسيني فقط.

أمي انهارت تماماً. أغمي عليها في العزاء عدة مرات، وقال عمر إنها ربما أصيبت بجلطة خفيفة أثناء ذلك. بعدها لم تعد صحتها إلى سابق عهدها، ولولا حرصها على بنات ميثم لما تمالكت نفسها ولتدهورت أكثر وأكثر.

بقيت في بيت أهلي أسبوع العزاء، عندما رجعت توسلت بعمر أن نغادر العراق، كان كل شيء يسير إلى الهاوية، ميثم قُتل لأنه شيعي، وعمر قد يقتل لأنه سني، دوامة القتل الظالم لا تفرق بين أحد، كنا نسمع عن أشخاص قتلوا من الجانبين، دون أي تفسير غير طائفتهم.

جاء حيدر من إنجلترا أثناء دفن ميثم، وطلب منا جميعاً أن نغادر، تحدث مع عمر أيضاً بالأمر، لكن إقناعه لم يكن سهلاً، كان يتحجج بأشياء كثيرة، لكني كنت أعرفه، كان الأمر يتعلق برعايته لأبويه. هو الطبيب وهم كبار في السن، كيف يتركهم؟

كنت قد فقدت أبي، وحيدر يعيش بعيداً منذ عقدين، والآن ميثم، أخي الأقرب لي سناً وقلباً.. لم يعد عندي غير عمر. كنت أقول ذلك وأنا أتوسل به.

بعد أشهر، غادرت جمانة ومعها ابنتا ميثم، وصحبتهم أمي. كانت جمانة بنت أختها، وتحت طوعها تماماً، وكانت أمي مُصرة على ألا تترك بنات ميثم لغريب فيما لو تزوجت جمانة. مهما حدث. من عمان قدموا على اللجوء في الأمم المتحدة وخلال أشهر أخرى كانوا في السويد.

كنت قد أصبحت وحدي حرفياً. ليس لي أحد غير عمر.

حوادث القتل على الهوية استمرت بالازدياد، كل يوم كان هناك ثابت في الأخبار: العثور على 40 جثة مجهولة الهوية. وأحياناً أكثر. الكثير من الجثث كانت تحمل أسماء واضحة الانتماء الطائفي. عمر على رأسها من جهة السنة، حيدر.. أو سجاد.. أو عبد الحسين، من جهة الشيعة.

كنت مستمرة في محاولاتي بإقناع عمر بالسفر، مرة عبر البحث عن وظائف ممكنة في الخليج، أو عبر إقناعه بقضاء بعض الوقت في عمان أو دمشق لحين تحسن الأوضاع.

أصبح يقولها بصراحة: أمي وأبي، سعد لن يستطيع أن يعتني بهما بمفرده.

في كانون الثاني 2006 بدأ عمر يلين. بدأ يسكت عندما أحدثه عن السفر.

كان قد فقد اثنين من أصدقائه خلال شهر واحد، عدنان ومصطفى، طبيبان كانا معه في البورد، واحد منهما سني والآخر شيعي، واحد قتل بعد اختطافه وتعذيبه، والآخر قتل غدراً في سيارته. لم أعد أذكر من منهما كان السني ومن كان الشيعي. لا فرق.

أقنعته أن يقوم بالتقديم على إجازة لمدة ستة أشهر، نذهب خلالها إلى عمان أو دمشق، ننتظر أن تهدأ الأمور قليلاً ثم نرجع. وافق، لكنه كان لا يزال يتساءل عن أمه وأبيه. يقدم رِجلاً ويؤخر أخرى.

في شباط 2006 حصلنا على تأشيرة لعمّان، حجزنا تذاكر السفر ذهاباً وإياباً، لكنه ترك المواعيد مفتوحة، كان يريد أن ينتهي من بعض الأشياء. لم يكن هناك غير أهله. ضغط أبيه وسكر أمه. كنت أحب بره لأهله، لكني كنت خائفة أن يقتله هذا البر.

* * *

الإثنين 20 شباط

عاد عمر مبكراً من المستشفى، كان قد أنهى خفارة طويلة وعاد متعباً، لكنه في طريقه وقف قرب جامع دراغ في المنصور واشترى كعادته دجاجاً محشياً من محلات الدجاج هناك.. تعشينا معاً، جاءت مريم بيننا في السرير ثم تظاهرت بالنوم كي تبقى معنا، كانت قد استقلت في غرفة منفصلة منذ أكثر من سنتين ولكنها كانت لا تزال تحاول العودة إلى النوم معنا كلما سنحت لها الفرصة. داعبها عمر قليلاً وغنى لها كعادته «يل جمالك سومري، نظرات

عينك بابلية» ثم سمحت لها بالنوم معنا، وكنت أعرف أنه يفرح أكثر منها ببقائها معنا.

كان متعباً ولكنه قال لي: فلنشاهد فيلما بينما أنام، بحث بين أقراص مدمجة كان قد اشتراها مؤخراً، وقال لي «هذا الفيلم يبدو أنه سيعجبك». كان الفيلم هو Notebook.

ربع ساعة من الفيلم وكان عمر يحتضن مريم وهو يشخر. لم يستيقظ رغم صوت بكائي على الفيلم.

صباح اليوم التالي، كانت خفارته ستبدأ في الثانية عشرة ظهراً. استيقظ حوالي العاشرة، تناول الفطور وذهب إلى والدته ووالده، ثم مر سريعاً على البيت قبل أن يذهب إلى المستشفى، سألني قبل أن يذهب: الفيلم حلو؟

قلت له: جداً.

قال: أنام عليه إذن غداً مرة أخرى إن شاء الله.

وقبلني وذهب.

كان هذا آخر ما قاله لي.

* * *

الأربعاء 22 شباط

صباحاً كنت أتناول الفطور مع أم عمر، كنا نسكن في بيت صغير ملحق ببيت أهله، تلفاز المطبخ كان على قناة «الشرقية»، في الأخبار كانت هناك أنباء عن تفجير المرقد العسكري في سامراء، دعت أم عمر على «من فجره» بجهنم وبئس المصير وحمدت الله لعدم وجود أنباء عن قتلى، لم يكن لدينا أي فكرة عما سيحدث بسبب هذا الخبر.

اتصلت بعمر وكان موعد خفارته ينتهي في الثانية عشرة ظهراً، قال إنه قد يتأخر قليلاً لوجود عمليات طارئة.

حتى الرابعة لم يرجع إلى البيت. اتصلت به لم يرد. لم يكن هذا أمراً نادراً ع عمر عندما يكون في غرفة العمليات. في الساعة الخامسة لم يرد أيضاً.

اتصلت بصديقه لؤي، كنت أعرف أنه سيستلم خفارته منه، ارتبك عندما سألته عن عمر وقال إنه خرج قبل قليل ولعله نسي هاتفه في مكان ما. شعرت نه يريدني ألا أقلق فحسب.

خلال هذا كانت الأخبار تتوالى على الفضائيات، مساجد ومحلات تجارية حرق، خطف على نطاق واسع انتقاماً لتفجير الصباح.

قررت أن أركب السيارة وأذهب إلى المستشفى بنفسي لعلي أصادف عمر في الطريق، خرجت إلى الشارع العام ووصلت إلى تقاطع الرواد واستدرت وراً لأرجع، كانت الشوارع فارغة تماماً. لقد عاد كل الناس إلى منازلهم خوفاً مما سيحدث.

كان سعد مذعوراً وفقد أعصابه تماماً. سوسن حاولت تهدئتي. والدته كانت ممتقعة الوجه وقد أمسكت القرآن وأخذت تقرأ منه بصوت خفيض. الده كان يحاول إجراء اتصالات مع «معارف» له.

كنت لا أزال آمل أن ينتهي كل شيء فجاة، أن يكون قد نسي هاتفه أو ضاعه وانشغل مع مرضى له.

في العاشرة اتصلت مجدداً بلؤي. هذه المرة كان قلقاً هو أيضاً، لم يحاول ن يخفي ذلك، قال لي إن عمر قد خرج قرابة الساعة الثالثة.

كنت أفكر مع نفسي: هذا لا يحدث لي. هذا كابوس. سأنهض الآن وينتهي ل شيء.

لم أنهض. حتى اليوم لم أنهض.

اتصلت بأولاد عمي، لهم معارف هنا وهناك. أحزاب وميليشيات متهمة عادة بأنها مسؤولة عن خطف السنة. أخذوا اسمه وعلاماته الفارقة وماذا

كان يرتدي ومعلومات خط سيره المتوقع من المستشفى إلى البيت. ووعدوا أن يبحثوا عنه.

في اليوم الثاني قررنا أنا وسعد أن نذهب إلى مراكز الشرطة، ركبت السيارة مع سعد وتحركت بنا ثم أوقفته، قلت له أن يعود، كنت لا أزال أرتدي السواد على ميثم، لكني تشاءمت، قررت أن أنزعه، دخلت البيت وارتديت أول ما وجدت في الدولاب وخرجت.

في مراكز الشرطة قيل لنا أن نبحث في المستشفيات مباشرة، في الحقيقة قالوا لنا أن نبحث في «ثلاجات المستشفيات»، هكذا.

ذهبنا إلى مستشفى اليرموك، كانت الجثث مكومة على الرصيف أمام المبنى، دخلنا نبحث في الثلاجة، قال لنا الموظف: متى وجدوه؟

لم نعرف ماذا نقول، سكتنا، ثم قال سعد: تحدثنا معه أمس.

قال الموظف: اي أحد جاء أمس أو اليوم ابحث عنه على الرصيف، لا ندخلهم إلى الثلاجة إلا بعد أربعة أيام.

ذهبنا نزيح الأغطية والبطانيات عن الجثث على الرصيف. لا أصدق أن هذا يحدث لي أو لعمر. لا أصدق أني أبحث عن عمر بين الجثث على الرصيف. بكيت على جثث الرصيف تلك، وبكى سعد. كان هناك شابان توأمان، وضعا معاً، ربما كانا في العشرين من العمر. عمت عين أمهم عليهم. أغلب الجثث كانت لشباب. عشرينات وثلاثينات بعمر عمر. بعضها كتب على جبهتها عبارات طائفية. وبعضها ثقبت في صدرها وبطنها. كان الدم لا يزال سائلا دافقا في بعضها، ومتجمدا في أخرى.

لم يكن عمر بين جثث رصيف ثلاجة مستشفى اليرموك. ذهبنا إلى ثلاجة مستشفى الكندي، فكرت أن الطريق خطر وربما من الأفضل أن أذهب وحدي دون سعد، حواجز التفتيش الوهمية على الطريق يمكن أن تأخذ سعداً على هويته، سعد بكر آغا، أما أنا فعندما يرون امرأة وحدها لا يوقفونها.

نهرني سعد عندما قلت له أن نعود إلى البيت وأن أذهب وحدي إلى مستشفى الكندي. سكتُّ، كنت خائفة أيضاً من البحث بين الجثث وحدي. أمام ثلاجة موتى مستشفى الكندي كان هناك نسوة يلطمن، وقفن واحدة أمام الأخرى وهن يلطمن كما لو كن يلطمن نيابة عن كل الجثث مجهولة الهوية المكدسة على الرصيف وبين ممرات المستشفى.

هذه المرة لم نسأل الموظف أسئلة لا معنى لها، بحثنا بين الجثث على الفور، كانت تبدو أقدم من جثث مستشفى اليرموك، يغطيها التراب والطين ويخفي ملامحها، لكني كنت سأعرف عمر لو كان هنا.

في طريق العودة نبهني سعد أني أنزف، تصورت أولاً أنه ربما يكون الدم قد علق بثيابي من إحدى الجثث التي تفحصتها. لكنه كان محقاً.. كنت أنزف.

لم أكن متأكدة من حملي، لم تكن «مواعيدي» منتظمة يوماً، مع النزف عرفت أني كنت (حامل) وأني أفقده. كان عمر يريد هذا الطفل جداً، تقريباً وافقت وسعيت له كجزء من محاولات إقناعي له بالسفر، والآن كنت أفقده. أرجعت الكرسي إلى الوراء لكي يقل النزف، لكني كنت أعرف أن لا فائدة. كان النزف شديداً. أنا أفقد هذا الطفل الذي كان عمر يريده. تشاءمت جداً. فكرت أنه ربما كان تذكار عمر الأخير لي، وها أنا أفقده.

في اليوم التالي، الجمعة 24 شباط، أعلن منع التجول. كان ذلك يعني أني لا أستطيع أن أبحث عن عمر في أي مكان. كنت وحيدة، بلا أم ولا أخت ولا أحد. محرجة من احتمالية أن يكون من اختطف عمر شيعياً مثلما كانوا محرجين من أن يكون من قتل ميثم سنياً. كلنا نحمل أوزار مجرمي طائفتنا فقط لصدفة جمعتنا بهم لا أكثر. أحبطت جداً وفقدت أعصابي.. ثم قلت ما سأندم عليه طيلة عمري، لا أزال أذكر نظرات الجميع عندما انفجرت. الأب انكسر وجلس بعد أن كان واقفاً. الأم فتحت فاها مصدومة، أعتقد أنها أصيبت بجلطة عندما سمعت هذا الكلام، لسانها أصبح ثقيلاً من تلك اللحظة. سعد بدا كما لو أني قد ضربته رصاصة في رأسه. سكتوا جميعاً،

وحدها سوسن تدخلت وهي تحاول تهدئتي، قالت أن أتعوذ بالله من هذا الكلام، رددت عليها بكلام آخر كالرصاص موجه نحوها بالذات.

كنت كاللبؤة الجريحة من كل مكان، لكنها كانت تهاجم جرحى مثلها يعانون من نفس جراحها.

أدركت بعدها فوراً أني قد أخطأت. لكني لم أعتذر. انسحبت إلى بيتي وأغلقت بابي عليَّ، حاولت الأم مساء أن تدخل عليَّ، لكني لم أفتح لها.

صباح السبت دق هاتفي برقم غريب. هرعت له فزعة. «أنت زوجة الدكتور؟». قال لي الصوت.

قلت: نعم وقلبي يخفق بشدة.

قال الصوت: عشر دفاتر [1] يوم الإثنين إذا أردتم أن ترونه مرة أخرى.

وأغلق الهاتف.

100 ألف دولار؟ أخذت ذهبي ومعه 15 ألف دولار كانت ضمن المبلغ المعد للسفر، وذهبت إلى بيت أهل عمر، قلت لهم عن المكالمة التي جاءتني، فرحوا كثيراً، بكت الأم فرحاً واحتضنتني وهي تقول الحمد لله. كانت الفرحة على وجه الجميع، الاتصال يعني أنه حي، وأن الأمر مجرد فدية، لا علاقة له بالطائفية ولا باسم عمر الذي يقال إنه سبب وجيه للقتل عند البعض.

قالت الأم لسعد أن يتصل فوراً بالحجي مهدي، منذ سنتين وهو يريد أن يشتري بستان الفحامة، الآن دورها، «قل له أهم شيء أن يوفر المبلغ «نقدي» بأقرب وقت، نوقع له على ما يريد».

ثم التفتت وقالت لي: «إن لم يكف المبلغ فلديَّ ذهبي وبعض المبلغ الاحتياطي، لا تقلقي».

دفعت العلبة التي كان فيها ذهبي والـ 15 ألف دولار: «لا تفرطي بشيء من ذهبك حبيبتي، لا تقلقي. سنتدبر الأمر».

---

(١) الدفتر هو مائة ورقة من فئة ١٠٠ دولار، أي ١٠ آلاف دولار.

كان لسانها ثقيلاً. لكن وجهها كان يحاول أن يكون طبيعياً. كذلك عمي. سعد وسوسن كانا لا يزالان مجروحين من كلامي. أو هكذا أحسست.

يوم الأحد كان المبلغ جاهزاً بالفعل.

يوم الإثنين جاء الاتصال من رقم غريب آخر. المبلغ يوضع في كيس نفايات أسود اللون، ويوضع في الساعة الواحدة ظهراً في حاوية نفايات على طريق السكة في الداوودي، حاوية تقف أمامها سيارة دايوو بيضاء بلا أرقام.

«بعدها بساعتين يأتيكم الدكتور للبيت».

وصل الأمل أقصاه. بدا كما لو أننا نعد لحفل استقبال. كما لو كنا في ليلة عيد. اغتسلت وتعطرت بعطر «Armani Code» الذي يحبه وارتديت أزهى ألواني، وأعددت البيت كأفضل ما يكون، أمه كانت منشغلة بإعداد كل الأكلات التي يحبها. برياني وكبة حلب وعروق.

ذهب سعد مع كيس النفايات وفيه 100 ألف دولار. عاد بعد نصف ساعة ليقول إن كل شيء سار حسب الخطة. لم ير أحداً في السيارة ولم يحاول الاقتراب منها.

تعلقت عيني فوراً بباب البيت حتى قبل أن تنتهي الساعتان. سيأتي بعد قليل وينتهي هذا الكابوس. ونسافر. نسافر. لن نبقى يوماً آخر في هذه «المهجومة». نسافر خلال يومين. يرتاح فقط مما مر به، أحجز غداً على أقرب موعد. تأشيرة عمان لا تزال سارية.

مرت الساعتان ولم يأت أحد. قلنا ربما الطريق وازدحاماته المعتادة. مرت ثلاث ساعات. حاولت الاتصال بالرقمين اللذين اتصلا بي. الرقمان مغلقان.

أربع ساعات. بدأت أنوح. لقد فعلها حظي. فعلها حظي.

مع المساء تكورت على نفسي وأنا أبكي. الثلاثاء ذهبت إلى الكاظم. توسلت إلى الله به ذات يوم ليكون عمر من نصيبي. وهذه المرة أتوسل به ليعود. أولاد عمي يتصلون ويحاولون الوصول إلى الأرقام التي اتصلت.

الأربعاء اتصل صديق لعمر بسعد. قال أن يأتي أحد منا إلى الطب العدلي في مستشفى مدينة الطب.

البقية بحياتكم، قال.

* * *

نبهتني مريم إلى أني ربما أكون قد تجاوزت السبعة أشواط إلى الشوط الثامن.

نعم، لقد فقدت العد وأنا أعيد المرور بتلك الأيام.

بدا لي أن سبعة أشواط لا تحتوي عذابي كله. ربما سأبقى عمري كله بين الصفا والمروة.

تذكرت ما قالته مريم عن معنى الرقم 7 عند العرب.. قالت إن الرقم عندهم كان يفيد الكثرة، رمز لما هو كثير، تقريباً «اللانهاية».

هكذا نعم، السبعة أشواط تعني عمري كله وأنا أحمل هلعي وفزعي وكل ما مررت به.

وقفت على المروة وأنا أدعو الله، هذه المرة كان عمر أولاً. كما لو أني ذهبت للتو لاستلامه من الطب العدلي.

يومها وجدت نفسي عاجزة عن الدعاء، شيء ما في داخلي انكسر، وبقي هذا الشيء منكسراً لفترة طويلة.

اليوم، على المروة، أعوض ذلك بعد قرابة ثلاثة عشر عاماً، أجد نفسي أدعو له، أواجه كل ما مر به قبل أن ينتهي في الطب العدلي، أسأل الله ألا يكون قد تعذب كثيراً، أن يكونوا قد فعلوا كل ما وجدناه في جثته بعد أن مات وليس قبل، أسأله أن يكون عوضه عن كل ذلك بمكان أفضل.

كنت أبكي عمر من جديد كما لو أني فقدته الآن، لكن هذه المرة كنت خارج القصة تماماً، لم يكن الأمر عن عذابي بفقده، أو عذابي بمواجهتي الحياة وحيدة، أو بفقد مريم لأبيها، هذه المرة كانت عن عمر فقط، عن كل ما عاناه

في تلك الأيام، منذ أن خرج من المستشفى الساعة الثالثة يوم الأربعاء 22 شباط 2006 إلى أن تسلمناه بعد أسبوع، في الأول من آذار.

تحللت من إحرامي، قصصت شعرات من شعري تحت الحجاب.

بدا لي ذلك كما لو أني أزيح جزءاً من العبء الذي أحمله على ظهري منذ 22 شباط 2006.

لم أفكر أبداً أن العمرة يمكن لها أن تفعل ذلك.

في الحقيقة لم أعتقد أن العبادات كلها يمكن أن تفعل ذلك.

* * *

في الأيام التي تلت اختفاء عمر، كنت أحاول أن أصلي، لكني كنت شبه عاجزة عن التركيز في ذلك، رغم ذلك كنت أجبر نفسي على الصلاة، وكنت أكثر من الدعاء، وكنت أقول لرب العالمين أني سألتزم أكثر بالصلاة وأرتدي الحجاب لو أنه أعاد لي عمر. أعرف الآن أن كلامي هذا لا معنى له، لكن هكذا كنت أفكر في تلك الأيام الصعبة.

وعندما حدث ما حدث، لم أستطع أن أصلي، أو حتى أن أتمكن من الدعاء.

قرأت القرآن في العزاء كما الكل، لكن ثمة شيئاً في داخلي كان قد انكسر.

في الأشهر التالية كنت مملوأة بالغضب. الغضب من كل شيء وتجاه كل شيء. غضب تجاه ما حدث لي ولعمر وغضب من أجل مريم وغضب لمستقبل غامض عليَّ أن أواجهه وحيدة.

كنت مملوءة بالغضب والنقمة. كنت غاضبة - أستغفر الله - على الله ومن الله، ربما لم أعترف بذلك صراحة مع نفسي آنذاك، لم أعرف كيف أعبر عن ذلك مع نفسي، لكني كنت غاضبة، لماذا ترك كل هذا يحدث لي ولعمر ولمريم ولميثم ولجمانة ولبناتها. لماذا؟ هل كان يعاقبنا؟ ما الذي فعلناه كي نستحق كل هذا؟

كنت أتجنب التفكير في كل هذا. أتحاشاه. لم أحاول أن أواجه الأمر. لم

أسأل أحداً، ولم أكن أريد أن أسمع من أحد بالأساس. وكنت أشعر بانقباض في صدري من كل إشارة إلى الله أو الصلاة أو الدعاء أو أي شيء. كنت ميتة من الداخل.

بقي الأمر هكذا عدة أشهر، إلى أن جاء أول رمضان بعد كل ما حدث.

كنت آنذاك في عمان، في انتظار حصولي على تأشيرة إلى أي مكان أهرب إليه من كل الشرق الأوسط، الخريف العماني كان أكثر برودة وقسوة من كل شتاء مر عليَّ في حياتي، كنت أواجه شتاء العمر مبكراً، أم وحيدة تمسك بيد وحيدتها على مفترق طرق لا تعرف أين ستقودها.

عشية أول يوم في رمضان قررت أن أتصرف كما لو أني لم أسمع ولم أعرف. قررت أن أتجاهل الأمر. نمت دون سحور وأنا أنوي ألا أصوم.

لكن لم أستطع. عندما استيقظت صباحاً لم أستطع ألا أصوم. خفت على مريم. خفت أن أفقدها. وصُمت.

عندما وضعت التلفاز على «الشرقية» كان هناك ذاك النشيد الديني الذي تعودنا أن نسمعه بعد أن يدق مدفع الإفطار في التلفزيون منذ أن كنا صغاراً. يا إله الكون إنا لك صمنا، وعلى رزقك أفطرنا، وإنا لصيام الغد يا رب نوينا. فجَّر النشيد كل ذكرياتي منذ الطفولة، أبي وميثم وحيدر، كلنا مع بعض ننتظر أن ينتهي النشيد لأن ذلك يعني أن موعد إفطارنا «نحن» قد حان، المدفع لإفطار السنة. ونهاية النشيد لإفطارنا نحن، هكذا فهمناها ونحن صغار. كم هو مؤلم أن تسمع نفس النشيد الذي كنت تسمعه في طفولتك محاطاً بكل أفراد أسرتك، ثم تسمعه وأنت في شقة مفروشة مع طفلتك وقد فقدت والدها منذ أشهر.

فجَّر النشيد كل ذاكرتي، فكان الأمر كما لو أني فقدت عمر مجدداً.. كان رمضان هو استعادة الافتقاد مجدداً.. 30 يوماً من ذلك.

تذكرت عمر واحتفاءه برمضان ولمتنا في الفطور. تذكرت مساعدته لي في

المطبخ في آخر نصف ساعة، تقشير بطاطا أو صنع سلطة. كانت العشر دقائق التي تفصل بين إفطار السنة وإفطار الشيعة مثار نقاش لا ينتهي بين الجميع. إذا كان الفطور عند أهل عمر كنت أتظاهر بجلي الصحون أو إعداد شيء في المطبخ ريثما تنقضي الدقائق العشر، بينما يصلني صوت سعد وهو يغيظني: ميادة، الأكل سينتهي قبل أن يؤذن صاحبكم.

وعندما يكون الإفطار في بيت أهلي، كان عمر يذهب ليصلي في جامع «صبحي الخضيري» القريب لكي يمر وقت بحيث يعود ونكون قد بدأنا بالإفطار. أمي لم تكن تفوت فرصة دون أن تسأله: عموري، هل رأيت الحمرة المشرقية؟[1] كانت لا تزال واضحة عندما أذّن «عندكم». ولا مرة فاتها أن تقول ذلك. ولا مرة. لكن كان كل شيء يسير على نحو مقبول. لم يتجاوز خطوط المزح والإغاظة المتبادلة.

ذلك الرمضان كانت تلك أول مرة أصلي فيها مجدداً بعد أشهر من القطيعة الغاضبة.

في أول سجود لي، ودون أن أخطط لذلك، وجدت نفسي أطلب من الله أن يكون عمر قد مات فوراً ولم يُعذب كثيراً. طلبت منه أن يكون قد مات أولاً مثل ميثم.

هذا ما تدعو به الزوجات والأمهات عندما يرين ما حدث لجثث أحبائهن.

بعدها لان غضبي بالتدريج، إلى أن عدت كما كنت، أحياناً أؤخر الصلاة، أحياناً أتكاسل وأفوّت منها قليلاً، وعندما أعود لا أقضيها كلها، ولكني لا أدع الانقطاع يطول.

الآن، صرت أتعمد وضع النشيد في رمضان، صرت أتمتع باستعادة الذكريات، على الأقل عشت بضع سنوات جيدة في حياتي، بعض الناس لا يحصلون حتى على هذا.

---

(١) الحمرة المشرقية هي الحمرة التي تصعد من جهة الشرق عند سقوط قرص الشمس في المغرب. وزوالها هو موعد أذان المغرب حسب المذهب الجعفري.

مريم 6

كل جزء من شعائر العمرة يجب أن ينعكس على التصميم الذي أقدمه. العمارة يجب أن تكون في خدمة فكرة الشعائر.

منذ اللحظات الأولى لنزولنا من الفندق شعرت أن مكة مدينة «عالمية»، كوزموبوليتان، مدينة متعددة الأعراق والثقافات التي تمازجت وتفاعلت في مكان واحد. كانت هناك وفود من المعتمرين من كل مكان، بعضهم يتميزون بأعلام صغيرة يحملها منظمو الحملة لتمييز أنفسهم عن سواهم، كان هناك أتراك، بوسنيون، أندونيسيون، ماليزيون، إيرانيون، أفارقة، وعرب بمختلف بلدانهم. وكل هؤلاء يمتلكون خلفيات ثقافية مختلفة حتى ضمن تنوعهم العرقي نفسه.

المطاعم في مواجهة الحرم مباشرة كانت تقول ذلك كله. خليط من المطابخ يعكس هذا الخليط من الثقافات التي تجتمع هنا، ويتصدر ذلك المطاعم المتعولمة التي تقول إن هذا التمازج يحدث في عصر العولمة.

روائح من كي إف سي ودجاج كنتاكي، هارديز، وسماش برغر، بالإضافة إلى «البيك» و«الطازج» و«حراء» كلها تتمازج وتختلط على بعد أمتار فقط من الحرم المكي. في النهاية، المعدة تنتصر، والمنتصر يأخذ كل شيء.

فكرت أن التصميم المعماري يجب أن يراعي هذا التنوع من الثقافات، ما دامت هذه الثقافات منسجمة مع بعضها في أداء الشعائر، فإن التصميم المقترح يجب أن يعكس هذا، لا يشترط أن يكون هناك لون معماري واحد يغطي التصميم.

ثم فكرت أن هذه المطاعم بعلاماتها التجارية تصميم عفوي يعبر عن هذا ببساطة. سجلت هذه الملاحظة صوتياً وأخذت فيديو للمطاعم المنتشرة أمام الحرم.

أشار لي عمي ألا أصور في اللحظة التي ندخل فيها إلى الحرم، لأن التصوير ممنوع «نظرياً» لكن لا أحد يمكنه أن يمنع التصوير عبر الهواتف. قدم لي كيساً لأضع فيه حذائي، وقال لي إنه سيذهب إلى الطابق العلوي حيث يمكنه دفع كرسي جدي. قال لي «نراكِ بعد العمرة» وهمس «ادعي لي» وغمز بعينه. تصرف كما لو كان صديقاً قديماً لا حاجز ولا كلفة بيني وبينه. بالنسبة له أنا كذلك بالفعل. أما أنا فقد بدا لي الأمر غريباً لكني أحببته. روح عمي أصغر بكثير مما يبدو عليه شكله.

أمي كانت تتمتم بآيات أو أدعية، ومهتمة جداً بمعرفة كل خطوة بدقة، معها كتيب إرشادات أعتقد أنها حفظته عن ظهر قلب لأنها تقرؤه منذ أسابيع، وكتاب أدعية غير الذي أعطته لخالي. منظر أمي وهي تقارن بين كتيب الإرشادات وبين ما تراه أمامها ذكرني بمنظرها عندما كنا نتجول في فلورنسا أو ميلانو، خريطتها السياحية بيدها وتقرأ عن كل شيء نمر أمامه لدرجة تُضيع عليها متعة الإحساس المباشر بالمكان. أفضل أنا أن أسير بهدي حدسي حتى لو ضعت قليلاً، بعض الضياع يمكن أن يجعلني أرى ما لا تقوله الخرائط.

أعطتني أمي كتاب أدعية صغير الحجم وجزء صغير من القرآن وقالت لي أن أقرأ فيهما، شجعتني وهي تقول «عربي وأمامه بالإنجليزي». وضعتهما في حقيبتي دون نقاش، عربيتي لا تساعدني على قراءة القرآن بسهولة، لذا فوجود الإنجليزية ضروري.

الأعمدة في المسجد قبل الدخول إلى المطاف بدت لي أسمك مما يجب، لو أنها كانت أقل سمكاً لساهم ذلك في جعل رؤية الكعبة أسهل من بعيد، ربما لو أن سمك الأعمدة قلَّ بالتدريج لكان ذلك أفضل، ستتوضح الكعبة رويداً رويداً..

دخلت المطاف، أشارت لي أمي إلى علامة خضراء قائلة إن هذه هي بداية الطواف. كنت مأخوذة مرة أخرى بمشهد الكعبة. منظرها من أعلى كان رائعاً أخاذاً. هنا كانت الهيبة أقوى بحيث كنت مأخوذة حرفياً، كما لو كانت مغناطيساً وكنت كومة من برادة حديد. لا بد أن يكون لهذا تفسير ما. هل للون الأسود دور في هذا؟ لا أظنه يكفي.

حاولت أن أحلل كل شيء لكي أفهم ما يدور بعيداً عن كتيب إرشادات أمي. بشكل أساسي الطواف عبارة عن حركة دائرية حول شكل مكعب. أي أن لدينا شكلين هندسيين: دائرة، ومكعب. عليَّ أن أفهم معانيهما لأن هذا سيجعلني أكثر قدرة على تخيل تصميم بديل للحرم حول الكعبة.

الدائرة شكل هندسي بلا بداية ولا نهاية، وهي لهذا ترمز للا نهاية، ترمز أيضاً للحركة، للاستمرار، للشمول المحيط بكل شيء.

المكعب يبدو في البداية بسيطاً، لكنه عميق، أعمق مما قد يبدو للوهلة الأولى.

المكعب يرمز إلى التناظر، إلى النظام.

الدائرة حول مكعب قد تعني الحركة المستمرة والإحاطة بما هو كامل، واضح، متوازن، متناظر.

خُيِّل لي أني أصل هنا إلى نفس ما يصف به المتدينون «الشريعة». كانت هذه صدفة مثيرة للاهتمام. هل فكر بهذا يا ترى من قام بالطواف أول مرة؟

أحاول أن أترك دور المراقب المحلل لأكون مع الناس، أجد نفسي بالتدريج أشبه الجميع، كل الذين يطوفون حول الكعبة، نشبه بعضنا جداً، كبرت وأنا أعتبر أن عليَّ أن أكون فرداً متميزاً مختلفاً عن الباقين، لكن ها أنا أراقب نفسي بهدوء وأنا أشبه الجميع والجميع يشبهني، الأمر ليس سيئاً كما توقعت.

أفتح كتاب الأدعية لأجد أن أمي قد أشرت لي على المهم منها!

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

أذهب إلى الترجمة الإنجليزية لأتأكد من المعنى :

«Our Lord! Give us in this world that which is good and in the Hereafter that which is good, and save us from the torment of the Fire!».

يرجعني الدعاء إلى المكعب وفكرة التساوي بين الأوجه، وهنا التساوي بين الدنيا والآخرة، هذا التناسق في المعاني بين العمارة والشعائر يجعلني أشعر بالقشعريرة في جسدي. هل هذا هو الخشوع؟

أقرأ في كتاب الأدعية:

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ.

لا أفهم «تزغ» ولا «لدنك». أذهب إلى الإنجليزية.

«Our Lord! Let not our hearts deviate (from the truth) after You have guided us, and grant us mercy from You. Truly, You are the Bestower.

لا تدعنا ننحرف إذن. عن هذا المسار الدائري حول المركز؟

كل شيء يقودنا إلى التصميم المعماري من جديد.

كيف لم أنتبه إلى أن الحجر الأسود الذي يبتدئ منه الطواف يقع في الزاوية بالضبط؟ إنه حجر الزاوية الذي يحدد كل اتجاهات البناء اللاحق.

هل هذه عمرة أم ورشة معمارية؟

أنظر إلى الأبراج الشاهقة أمام الحرم، يتوسطها برج الساعة الشاهق والهلال في أعلاه. قرأت الكثير من التعليقات ضدها، معمارياً ودينياً، من الناحية المعمارية نادراً ما يتفق المعماريون على شيء، وبعض التحف المعمارية اليوم انتقدت بشدة في سنوات إنجازها الأولى، لكني لم أشعر أنها خطفت «الهيبة» من الكعبة، على العكس، شعرت أنها تمثل التحديات المعاصرة بشكل

معماري، الحضارة الغربية أنتجت ناطحات سحاب كونكريتية تشبه من بعض النواحي هذه الأبراج، لكن رغم كل العلو الشاهق، ورغم البذخ في البناء، لا يزال هذا المكعب البسيط الشكل الذي لا يتعدى طوله 13 متراً أشد هيبة وأكثر أخذاً للأنفاس.. شعرت أن الأبراج تكرس، في نهاية الأمر، هيبة الكعبة. كما لو أنها تعلن هزيمة «العلو المادي» أمام الكعبة.

أنهيت الأشواط السبعة، حاولت أن أجد مكاناً خلف مقام إبراهيم لأصلي الركعتين حسبما قالت أمي. كان المكان مزدحماً جداً، لذا انسحبت قليلاً إلى الجهة المواجهة للحجر الأسود، قررت مراجعة السورتين اللتين عليَّ أن أقرأهما، «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد»، ضعت قليلاً في «قل يا أيها الكافرون» فقررت أن الوقت غير مناسب لحفظها الآن، راجعت «قل هو الله أحد» وقرأتها مرتين في الصلاة. الله سيغفر لي. لا مشكلة في تكرار سورة.

كانت أمي قد أشارت لي إلى أنها ستنتظرني عند المسعى، وجدت خالي معها، كان يبدو على خالي أنه بكى كثيراً. آخر من أتوقعه يبكي هنا. ولكن يبدو أن مكة هي المكان الذي تقلب فيه التوقعات.

ذهبنا إلى المسعى، كانت لديَّ مشكلة في فهم الأمر، الطواف كان له «هندسة» أستطيع فهمها والتعامل معها، الرواح والمجيء بين جبلين كان أمراً آخر، هذه الرحلة المكوكية لم أكن أجد لها شكلاً هندسياً يناسبها، لذا كانت لدي مشكلة في فهمها، ثم قرأت أن هذا السعي كان تجسيداً لرحلة هلع وخوف زوجة إبراهيم على ابنها، فتقبلت الأمر أكثر، الأمهات عندما يقلقن على أولادهن لا قالب هندسياً يمكن أن يحتويهن. الجزء «الفيمنست» مني شعر بالفخر لوجود شعيرة تجبر الرجال على السير على خطى امرأة. سأقول ذلك بفخر لأصدقائي في الجامعة عندما يقودون الحديث إلى ظلم الإسلام للمرأة، ربما سيكون الأمر مبهراً، النسخة الإسلامية من «درب الآلام»[1] تسير على

---

(١) درب الآلام: حسب العقيدة المسيحية، درب الآلام هو الطريق الذي سلكه السيد المسيح من الحكم عليه إلى موقع الصلب، ويمر بين أزقة القدس القديمة

خطى امرأة وليس رجل، وعلى جميع الرجال أن يسيروا - ويهرولوا - على خطاها تلك.

لو كتبت ما أفكر به هذا على الإنستغرام لوجدت تعليقات: ماذا عن الحجاب، تعدد الزوجات، ختان الإناث، جرائم الشرف؟ وسيكون عليَّ أن أشرح وأوضح الفرق بين بعض هذه الأمور، وأن أدافع عن أشياء لا أؤمن بها من الأساس.

هذا التمزق بين ما عليَّ أن أدافع عنه لأنه جزء من هويتي، وبين ما أرفضه في داخلي لأني لست مقتنعة به، هذا التمزق الذي ورثته من بيئتي التي ظلت تمدني بتناقضات طيلة الوقت، التناقضات التي يبدو أني سأقضي حياتي وأنا أحاول التصالح معها أو التنسيق فيما بينها.

عندما عرفت قصة زوجة إبراهيم وركضها بين الجبلين لمساعدة ابنها، فكرت أنها قصة حياة أمي. أمي تسكن هنا بالفعل. بيتها هنا أيضاً . هذا هو عنوانها وعنوان نساء كثيرات يعشن معها هنا، في هذا السعي الذي لا ينتهي.

في الشوط الثالث بين الصفا والمروة تسلمت رسالة من نزرين: كيف هو صراع الهوية في داخلك؟ من المنتصر حتى الآن؟ ZGen أم MGen ؟

كانت تقصد «الجيل زد» وهي التسمية التي تطلق على جيلي، الجيل الذي ولد بوجود الإنترنت واستخدمه منذ طفولته، و«الجيل م» وهي التسمية الطموحة التي أطلقتها كاتبة بريطانية مسلمة عن جيل المسلمين الشباب في الغرب، وكنا قرأنا كتابها معاً أنا ونزرين وتحدثنا عنه كثيراً.

كتبت لها: تعادل. 1-1 ، وأرسلت لها وجهاً بلا ملامح.

لم أكن أعتقد أن هناك صراعاً أصلاً بين هذين الجيلين، كنت أعتقد أن الجيل «م» حمل إضافي يحمله بعض «الجيل زد» على ظهره. لكن ليس من صراع حقيقي بينهما.

التنافس الحقيقي والذي يصل إلى حد الصراع، هو بين الجذور التي ورثتها عن أمي وأبي، والتربة التي وضعوني فيها.

مثل (درب الآلام) بالضبط. لكن يسمونه الآن «أزمة هوية». أزمة هوية الجيل الثاني من المهاجرين..

بطريقة ما، عنوان الجيل الثاني هو في الركض المستمر بين هويتين، بين الصفا والمروة بطريقة ما.

كنت في الثانية عشرة عندما اكتشفت أني مهما صارت لغتي ولكنتي بريطانية تماماً، دون أي أثر عربي، ومهما بدوت مستعدة للاندماج، فإن المحيط حولي سيبقى يصنفني، سيضع دائرة كبيرة حمراء حولي ويكتب فوقها «عربية - مسلمة».

* * *

كنت ألعب مع ليزلي وجنيفر وميا وسيبيل في باحة المدرسة، لعبة «ملك التل»، وكانت ليزلي هي «الملك» الذي نحاول إزاحته عن «التل»، قالت لي أثناء محاولتي دفعها وهي تمزح مضخمة صوتها: سأقتلك وأقطعك إلى قطع صغيرة. قالتها وهي تمزح أثناء اللعب، ولم أفهم الأمر غير ذلك.

بعد أيام كنت أنا «الملك على التل»، وقلت الشيء ذاته لليزلي وهي تحاول إزاحتي، تغير وجهها سريعاً، وتركت اللعب. لم أفهم لماذا. ولم تتحدث معي بعدها في اليوم ذاته.

في اليوم التالي استدعت المديرة أمي، جاءت على عجل وهي تتوقع أن يكون قد حدث لي مكروه، قالت لها المديرة إنني قد هددت إحدى زميلاتي بقتلها وتقطيع جثتها، وإنني ربما أحتاج إلى علاج نفسي، وإنني سأوضع تحت المراقبة.

قلت للمديرة عندما استدعتني أمام أمي أن ليزلي قالت لي ذلك أولاً، ويمكن للكل أن يشهدوا معي.

قالت لي المديرة أن ليزلي كانت تمزح معي حتماً «أما أنتِ فقد قلتِها بطريقة أخافتها».

شهدت كل صديقاتي مع «ليزلي». الفتاة المسلمة هددت ليزلي بالذبح. هكذا انتهى الأمر.

يومها بكيت بشدة وقلت لأمي لأول مرة في حياتي: أريد أن أرجع إلى العراق.

لم أكن أذكر أي شيء تقريباً عن العراق. ولم تكن هناك أخبار جيدة عنه ومنه بكل الأحوال. لكني شعرت أني مغبونة لأني عوملت بتمييز فقط، لأني لست بيضاء مثلهن.

يومها احتضنتني أمي وهي تقول: لو حكيت لك كل شيء حدث معي في العراق، لما قلت هذا.. أفهم تماماً الظلم الذي تشعرين به، لكنه لا شيء مقارنة بما يمكن أن يحدث لأي أحد هناك، عليك أن تثبتي نفسك هنا، تبذلين جهداً أكثر مما يبذلون، تحصلين على علامات أفضل مما يحصلون، وتنجحين أكثر منهم، عندها فقط سيفخرون بك.

وهكذا كنت أحاول، بطريقتي.

* * *

في المسعى هناك علامتان بالضوء الأخضر يفترض أنهما تشيران إلى المسافة التي ركضت فيها زوجة إبراهيم بين الجبلين.

ركضت بشدة وأنا أتذكر كل ذلك، رأيت النظرات المستغربة، سمعت أحدهم يقول بصوت موبخ: الركض للرجال فقط.

كنت على وشك أن أستخدم الـ F word، ولكن كتمتها.

زوجة إبراهيم كانت امرأة بعد كل شيء.

* * *

أكملنا العمرة، كان عمي سعد ينتظرنا أمام باب الملك عبد العزيز كما اتفقنا من قبل. احتضنت جدي وهو يجلس بهيبة على كرسيه المتحرك، غمرتني الرائحة المميزة التي كانت في الغرفة مجدداً. وغمرني مرة أخرى الشعور بأني أعرف هذه الرائحة من قبل. هز العطر ذكريات معينة في عقلي، لم أكن قادرة على تمييزها أولاً.

في الطريق إلى الفندق وجدت خالي يسحبني للحديث معه على انفراد.

قال لي: مريم هل تعرفين أن إرسال اليدين في الصلاة أكثر احتراماً من التكتف؟

لا، لم أكن أعرف، ولم أفهم ماذا يقصد أصلاً. بدا ذلك على وجهي.

قال: أقصد الإسبال (وأنزل يديه) أكثر احتراماً من التكتف (ووضع يمينه على شماله)، ثم نظر بحذر إلى عمي الذي كان يسير أمامنا.

هذا الموضوع إذن!

قلت له: لا، لم يخطر ببالي حقيقة، هل هذا الأمر مهم جداً؟

قال بصوت منخفض: الصلاة باطلة بالتكتف في مذهب أهل البيت، أما عند مذهب السنة فالإسبال مقبول في بعض المذاهب، لذا فربما من الأحوط لكِ أن تصلي مسبلة.

أول رد جاء في بالي هو: «وكيف هي سارة الآن، هل هي حامل فعلاً كما قيل لي؟»، لكني قلت له بصوت مهذب: سأبحث في الأمر خالو.

بالتأكيد لن أفعل، بالذات بعد أن قاله لي.

فكرت أن عمي كان يمكن أن يفعل الشيء ذاته - أو أكثر - لو رآني أنزل يدي في الصلاة.

* * *

لاحقاً في ذلك المساء سألته عن شيء آخر.

كنت أقف على النافذة في الفندق وأتامل منظر الكعبة، فجاء ووقف بجانبي.

سألته: هل من تفسير معماري لهذ الجمال؟ أجده غير مفهوم.

قطب حاجبيه وقال: هل كل شيء يجب أن يكون له تفسير؟ بعض الجمال لا يفسر، جمال فقط.

استنكرت مع نفسي: كيف لمعماري حقيقي أن يقول هذا؟ لا بد أن تكون لديه رؤية ما لكل شيء.

أكمل عمي كما لو كان قد قرأ أفكاري: لكن كمعماري، أستطيع أن أقول إن للمكعب جاذبيته الاستثنائية التي قد تساهم في هذه.. هذه الهيبة الغامضة.

قال «الهيبة الغامضة» وحرك يديه حركة دائرية كما لو ليشرح لي ما يريد أن يقوله. لكن تعبير الهيبة الغامضة كان واضحاً جداً بالنسبة لي، كانت بالضبط ما أريد أن أقوله عن المشهد.

سألته: لماذا المكعب تحديداً؟ الدائرة هي الشكل الأكثر كمالاً.

قال: مبدئياً، الدائرة موجودة في المشهد بقوة، بحركة الطواف الدائرية حول الكعبة، لكن كمال الدائرة كشكل هندسي لا علاقة له هنا، الأمر غير محسوم أصلاً، فهناك من يعتبر المربع أكثر كمالاً، وهناك من يعتبر الشكل السداسي أكثر توزاناً، لكن الدائرة أكثر شهرة في هذا بسبب أفلاطون.

عليَّ أن أقاطعه، لن أتركه يعتقد أني جاهلة، أنا أدرس في شيفيلد، الجامعة 44 على العالم، قلت: ليس أفلاطون فقط، فيثاغورس أيضاً، وكان يعتقد أنها ترمز للمطلق والرقم واحد.

أكمل: صحيح، لكن الفرق بين الدائرة والمكعب هنا أننا نتحدث عن شكل مجسم، لذا لا مقارنة مع شكل ببعدين.

كان محقاً فيما قال. كيف فاتني هذا؟

قال: هل سمعت بـ «رِم كولهاس»؟

بالتأكيد سمعت به. لا أعرف أعماله ولم أقرأ أياً من كتبه لكنه مشهور جداً مثل «زها حديد»، اختير مرة ليكون واحداً من أهم 100 شخصية مؤثرة في العالم.

هززت رأسي بـ «نعم» دون تفاصيل.

أكمل: رم يقول إن المكعب يمكن أن يرتبط باللا وعي الإنساني، وأن بساطته وتناظره وانتظامه تجعل منه الشكل المجسم الأول الذي استخدمه المعماريون، والذي يميزه الإنسان حتى في لا وعيه، لهذا يعتبره كثيرون مرتبطاً بالكمال والوضوح. أفلاطون أيضاً اعتبر المكعب هو الأساس في «الأجسام الأفلاطونية» واعتبره رمزاً للأرض، للعالم. يخيل لي أن كل هذا لا يمكن أن يكون صدفة مع أثر المكعبات في الأطفال وعلاقتها بنموهم العقلي.. لكن رم لم يقل هذا، هذه من عندي أنا.

سألته: كيف تعرف كل هذا؟ تتحدث كأستاذ جامعي وليس كمعماري فقط.

قال: استغرقت ست سنوات في الدكتوراه بلا فخر. لا بد أن يترك هذا أثراً ما.

نظرت إلى الكعبة مجدداً: ما تقوله عن ارتباط المكعب باللا وعي مثير جداً. بالفعل، يبدو الأمر بالنسبة لي مرتبطاً بشيء عميق في لا وعيي. هكذا شعرت.

هز رأسه: بالضبط. هذا كان شعوري أول مرة عندما دخلت الحرم. كما لو أن هذا له علاقة بتسمية الكعبة بـ «البيت العتيق».

البيت العتيق؟

سرت في جسمي قشعريرة مما قاله.

أحمد 5

بعد عشرة أيام قابلنا البطريرك.

طيلة هذه الأيام كنا نذهب كل يوم في الصباح المبكر والمساء إلى القداس في باحة الكنيسة المزدحمة، أخبرني إسحاق ماذا أقول كي لا تكشف كذبتنا. كان الشماس شمعون حاضراً معنا دوماً وحذرني إسحاق أنه ربما يكون في ريب مما قلناه.

سألنا أكثر من مرة عن البطريرك مكيخا الثاني وقيل لنا إنه في كنيسة سوق الثلاثاء، وسيرجع قريبا إلى الشماسية.

بعد أيام عشرة جاء، وطلب إسحاق لقاءه، قيل له إن الأمر سيستغرق بضعة أيام لأن لديه مشاغل كثيرة، لكن يبدو أنه لمحنا أثناء قداس المساء. إذ سرعان ما جاءنا الشماس شمعون وطلب منا أن نستعد للقاء البطريرك.

بعد قليل قادنا شماس آخر إلى غرفة كبيرة تقع غرب الكنيسة، وصلنا إليها بعد مرورنا بغرف أخرى أصغر حجماً. لم يدم انتظارنا طويلاً، دخل البطريرك بهدوء ومعه المطران مرقص الذي كان يقوم بالقداس في غياب البطريرك.

انحنينا لهما وقبلنا أيديهما.

همَّ إسحاق بالكلام، لكن البطريرك أشار إلى الشماس شمعون والشماس الآخر بالانصراف. ثم قال شيئاً بالسريانية إلى المطران، انحنى المطران وهو ينسحب.

التفت البطريرك إلى إسحاق فور خلو الغرفة من الجميع وقال بغضب: ماذا كنت تعتقد يا إسحاق؟! لقد شك الجميع فيكما!

رد إسحاق على الفور: المعذرة يا صاحب النيافة. لم يكن لديَّ خيار آخر، وطمعي كبير بكرمكم وعفوكم.

كان البطريرك في السبعينات من عمره، له لحية طويلة وسمت وقور، وجه سمح وعينان ذكيتان. نظر لي طويلاً قبل أن يلتفت إلى إسحاق ويقول له: الشماس شمعون قال إن صاحبك لا يتكلم أبداً.

أطرق إسحاق محرجاً وقال: نعم، هو قليل الكلام فعلاً.

قال البطريرك: لدينا في كتابنا «لا تمدح رجلاً قبل أن يتكلم، فإنه بهذا يُمتحَن الناس»، الرجل قليل الكلام ربما يخفي شيئاً لا يريد امتحانه.

بدا الارتباك على وجه إسحاق وهو يرى الحديث يتجه لي «نعم يا صاحب النيافة، هو لم يتنصر كما أخبرتهم هنا، لذا فهو لا يريد أن يُمتحن في هذا، لديَّ أنا من العلم بمذهبكم ما يمكنني من الحديث أكثر، هو سيُكشف حتماً».

نظر البطريرك إلى إسحاق نظرة عتب «هل تعتقد أني لا أعرف بني العباس عندما أراهم؟ الرجل من بني العباس بلا شك، وأعرف أيضاً أنك كنت مقرباً منهم وأن لديك أخاً بالرضاعة من أحد أولاد الخليفة الظاهر بأمر الله، ولعل الرجل هنا هو أخوك بالرضاعة».

نظرت إلى إسحاق ونظر هو لي بحيرة.

«لا أريد أن أسمع منكما تأكيداً أو نفياً لهذا، ليس من مصلحتي أن أعرف». قال البطريرك كما لو أنه يقرأ أفكارنا. تنفسنا الصعداء أنا وإسحاق، لقد أعفانا من مواجهة هذا الأمر الآن.

«لكن إن كان الرجل من أعتقد أنه هو، فهذا يجعله مطلوباً من التتار، وأنا لا أريد أن أعرض قومي لخطر يا إسحاق».

قال إسحاق: نعم يا صاحب النيافة أعرف هذا، ونطمع بكرمك وحسن تقديرك.

أكمل البطريرك كلامه «إياك أن تتصور أننا فرحون بما حدث، نحن فرحون بنجاتنا من الهلاك بالتأكيد، وفرحون بأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو خان نصرانية على مذهب نسطور مثلنا، لكنني عشت ما يكفي لأعرف أن التقلب سمة الغزاة، جاء البويهيون ورحلوا وجاء السلاجقة ورحلوا.. وربما يرحل التتار بعد سنوات.. أو يطلق هولاكو خان زوجته.. أو يتزوج مسلمة.. من يدري.. أنتم باقون هنا، صحيح أننا في هذه الأرض قبلكم، لكن الذين بنوا بغداد، هم بنو العباس».

سكتنا.

«أنتما في أمان هنا، لكن الحذر الحذر، إن انكشف أمركما لا تعتقدا للحظة أني سأضحي بالكنيسة ورعاياها من أجلكما أو من أجل بني العباس».

«شكراً لك يا صاحب النيافة، لن ننسى فضلك هذا». قال إسحاق وكررت معه.

«بعد أيام سيعلن الخان الأمان في بغداد، وسيرفع السيف، سيخرج الناس من الكنيسة إلى بيوتهم وأحيائهم.. بقاؤكما فيها سيثير الشكوك أكثر، في الوقت نفسه خروجكما قد يعرضكما للخطر، ربما هناك من يعرف من يكون الرجل».

بدا إسحاق مهتماً بخبر رفع السيف أكثر مما سنفعله عندها، سأل «اسمح لي أن أسألك صاحب النيافة، هل الخبر مؤكد؟».

كان واضحاً أن إسحاق يريد أن يعرف كيف عرف البطريرك بهذا، وليس التأكد من الخبر.

منحه البطريرك ما يريد فقال بهدوء «قوندوز خاتون طلبت من هولاكو أن يعطيني أحد قصور الخلافة لأقيم كنيسة مكانه».

كنيسة مكان دار الخلافة! بدا هذا أمراً صعباً للغاية.

سكت البطريرك وهو يقرأ وجهينا ثم أكمل: «لكني أكثر فطنة من أن أقبل بهذا العرض، اخترت دار الدويدار على دجلة، قلت للخان إن موقعها أفضل وبناءها أحدث».

نعم، هذا أفضل بلا شك.

«أثناء هذا سمعت الخان يتحدث مع قواده، كان يريد أن يحرق المدينة بأسرها ليتخلص من الرائحة، لكن القائد كتبغا قال له إن مكانتها في التجارة لا يمكن تعويضها بسهولة، واقترح عليه أن يدفن أهل بغداد الجثث بأنفسهم، لأن الوباء قد بدأ بالانتشار بالفعل وسيؤثر على الجند حتى لو نقلوا معسكرهم إلى خارج باب كلواذي، سمعت أنهم سيعلنون الأمان ويسمحون بالأذان في المساجد في اليوم الأربعين لدخولهم، أي خلال عشرة أيام».

لم يستطع إسحاق إلا أن يسأل: ماذا عن الوزير مؤيد الدين؟

«ما شأنه؟». رد البطريرك.

«هل هو مع هولاكو، هل كان كذلك منذ البداية؟ هل ساعد التتار على الدخول؟».

قال البطريرك بعد تفكير «اسمع يا إسحاق، التتار كانوا قد وصلوا بغداد، وأنت تعرف أن الخليفة لم يكن صاحب عزم وهمة، كل يوم برأي.. ومشورة تقوده عكس مشورة، الخليفة هو من أرسل الوزير إلى هولاكو، كنت معه وكان معنا أيضاً سبط ابن الجوزي، لم يبد لي وقتها أن مؤيد الدين يريد أن يوصل شيئاً غير ما طلبه منا الخليفة: خذ الهدايا واذهب، وسندعو لك على المنابر.. أما أنه حاول أن يستغل الأمور فيما بعد فهذا ممكن، كما فعلت أنا، لكنه كان يريد أكثر بكثير مما أردت أنا».

« كيف؟». سأله إسحاق.

«أنا لم أرد إلا الأمان للسريان. لم أطلب شيئاً ولم أحاول أن أتقرب من الخاتون بأكثر مما يساعدني ذلك في توفير الأمان لقومي، الوزير مؤيد الدين

كان يريد أن يقنع هولاكو بأن ينصب خليفة من نسل العلويين، وكان يرى أن هذا ما سيحمي قومه، لم يحاول أن يأخذ الأمان للشيعة إلا متأخراً جداً، لذا عمل فيهم سيف التتار دون أن يفرق بينهم وبين السنة».

«وكيف يشعر الوزير الآن؟». كانت هذه أول جملة أنطقها منذ أن ألقيت التحية على البطريرك.

«لا أعرف، يقال إنه قد ندم وإن قومه يلومونه، لكن ما شأنكم الآن بهذا؟ دعونا نهتم فيما يجب أن يحدث لكما، لا أريد لمساعدتي لكما أن تتسبب بضرر للكنيسة أو لقومي أو لي، ولا أريد لكما أيضاً الأذى، لذا فمن الأفضل أن تنتقلا فور إعلان الأمان إلى واحد من الأديرة البعيدة عن بغداد، لتكونا فيه بأمان أيضاً، إلى أن تروا أين ستذهب الأمور، هذا ما أراه الآن».

لم يكن لدينا خيار غير الموافقة، لكن ما قاله البطريرك كان معقولاً.

سعد 7

اجتمعنا على الغداء في جناحنا بعد أن انتهت العمرة بقليل، طلبت من مطعم الفندق كل ما تخيلت أنه يمكن أن يعجب ميادة وحيدر، نبهتني ميادة أن مريم «فيغان» فتظاهرت أني لا أعرف ودعوت الله أن يصبر ميادة على هذه الكارثة، «جعلها الله أكبر مصائبكم». قلت لها.

جاءت ميادة أولاً، كان والدي قد تمدد في فراشه ليأخذ غفوة قصيرة قبل الغداء، سألتني ميادة: أليس من الأسهل أن ننزل جميعنا إلى المطعم أو نختار شيئاً من المطاعم السريعة القريبة؟

قلت لها: أريد أن يكون جواً عائلياً، كما كنا نجتمع زمان في العيد.

قلت ذلك وفكرت: بفارق أنه كان هناك آنذاك أمي وعمر وسوسن. اليوم يحضر غيابهم، وأيضاً يحضر حيدر.

قالت ميادة مع ابتسامة حزينة: وعايزنا نرجع زي زمان؟ قول للزمان ارجع يا زمان.

أكملت أنا: وهاتلي قلب لا داب ولا حب ولا انجرح ولا شاف حرمان!

ضحكت ميادة وقالت: فات الميعاد؟

أكدت أنا: نعم، بالتأكيد لقد فات الميعاد.

«لم أكن أعرف أنك تسمع أم كلثوم؟ لم تكن تسمع «عربي» أصلاً.. أذكر أنك كنت تسمع بيتهوفن وموسيقى كلاسيكية وفرقاً أجنبية كثيرة، العراقي الوحيد الذي كنت تسمع له هو إلهام المدفعي.

«نعم، وقاسم الصابونجي أيضاً، وأنتِ كنتِ تسمعين للقيصر ولماجدة الرومي».

قاطعتني: وفيروز طبعاً، لكن كان زمان، الغربة علمتني على أم كلثوم وحميد منصور وياس خضر، لا أزال أسمع فيروز طبعاً، لكني صرت أسمع ما لم أكن أتخيل أني سأتذوقه يوماً.

قلت لها: أنت الغربة علمتك على حميد منصور وياس خضر، أما أنا فالوحدة هي التي علمتني على أم كلثوم ووردة وقحطان العطار وفؤاد سالم وياس خضر.. يبدو أن كل الطرق تؤدي إلى ياس خضر.. لو كتبت قصة حياتي لكان عنوانها «رحلتي من بيتهوفن إلى ياس خضر».

ضحكت وقالت: هل هذا الحوار مناسب في هذا المكان، أمام الكعبة؟ وأشارت إلى النافذة المطلة على الكعبة.

قلت فوراً: وأنا والله أيضاً أُحب من القراء صوت المعيقلي والسديس وعبد الباسط!

ضحكنا كما لم نكن نضحك أيام زمان. أيام زمان أي جلسة بيننا كانت ستنتهي بمشادة خلال دقائق، ويتدخل عمر وأمي وسوسن لنزع الفتيل. اليوم كل من كان يتدخل لمنع نشوب المعركة قد ذهب، لكننا في حالة صفاء حتى الآن. أما كان من الأول؟

سألتها: هل تشتاقين لبغداد؟

تغيرت ملامحها فوراً وأبعدت عينيها عني: أي بغداد؟ بغداد التي قُتل فيها عمر وميثم؟ لا، لا أشتاق لها، أشتاق لبغداد أخرى، لكنها لم تعد موجودة. ذهبت مع الذين ذهبوا.

معها حق.

قلت لها: أنا أيضاً أشتاق لتلك البغداد.

أحسست أنها تريد أن تقول شيئاً لكن سمعنا دقة على الباب في تلك اللحظة، دخلت مريم وهي تقول: هذه الرائحة مميزة جداً، كلما اقتربت من جدي أشمها، أشعر أني أعرفها جداً.

قلت لها: هذه الكولونيا يضعها أبي منذ ما قبل زواجه، منذ أن سافر إلى لندن للدراسة في الخمسينات، استمر يضعها حتى سنوات الحصار رغم أنها أصبحت تكلف ثروة.

«ما اسمها؟ تبدو رائحتها مألوفة جداً». سألت مريم.

ذهبت إلى حقيبة أبي وأخرجت قنينة العطر الخضراء المذهبة منها: اسمها على رقم البيت الذي كانت تصنع فيه في القرن التاسع عشر،4711، كلمة «كولونيا» مشتقة منها بالمناسبة، لأنها صنعت في مقاطعة كولونيا في ألمانيا وكانت تسمى أولا «ماء كولونيا»، ومن هنا صارت كل العطور تسمى «كولونيا» عندنا، مثل «الكلينكس»، لأنه كان يحب هذا العطر فقد اختار هذا الرقم لسيارته، 4711 بغداد.

سألتني ميادة: هل لا يزال الرقم موجوداً؟

قلت: نعم، لكن نقلته إلى سيارة أخرى اشتريتها قبل سنوات، كامري موديل 2012.

قالت مريم: رقم السيارة على اسم العطر، جدي كان حكاية!.. ثم فتحت العطر وقربته إلى أنفها، قالت: كانت موجودة في الحمام مقابل المرآة، رخام الحمام أزرق، صحيح؟

بدت ميادة متفاجئة تماماً مما تذكرته مريم، التفتت لي: هذه أول مرة تذكر أي شيء دقيق عن بيتكم في بغداد، قبلها لم تكن تذكر غير الأرجوحة في الحديقة».

«هل لا تزال موجودة؟». سألت مريم.

«الأرجوحة أم الحديقة؟».

ضحكت مريم وقالت «الاثنتان».

«لا تزالان موجودتين، ولكن كل شيء تغير، جدك لم يعد قادراً على الاعتناء بالحديقة كما في السابق، وأنا ليس لي هذا الشغف بها، الأرجوحة موجودة في

مكانها، لكنها لم تهتز منذ سنوات طويلة، العناكب تشعر بالأمان عليها وتبني ناطحات سحاب دون خوف».

قالت مريم «أذكر أيضاً أشجاراً عالية جداً».

قلت لها: نعم، الكالبتوز. على طول الشارع تقريباً. يقال إن الأميرة بديعة هي التي زرعتها.

«الأميرة من؟». سألت مريم.

«الأميرة بديعة والأميرة جليلة، شقيقات الوصي عبد الإله في العهد الملكي، سكنتا في الشارع أول تأسيس حي المنصور، فبقي الشارع يسمى بشارع الأميرات».

«ماذا حل بهن؟ الأميرات» سألت مريم وهي تكتب شيئاً على هاتفها. كانت تستعين بغوغل حتماً، ربما لتتأكد أن الشجرة التي في ذاكرتها هي الكالبتوز.

«جليلة انتحرت حرقاً في بيتها قبل ثورة 1958. وبديعة نجت من القتل في هذه الثورة لأنها كانت في هذا البيت، كل أعضاء الأسرة الذين كانوا في «القصر» الأصلي قتلوا».

قالت ميادة «لا تزال حية. تعيش في لندن».

علقت أنا: نعم.. وابنها طالب بعرش العراق، وهو لا يعرف العربية أصلاً، لم يعش أبدًا في العراق.

«ذهبوا هم وبقي الكالبتوز، هذا حال الدنيا». قالت ميادة كما لو لتقفل الموضوع.

«للأسف حتى الكالبتوز ذهب تقريباً، تغير شارع الأميرات كثيراً، مدارس خاصة ومولات.. هذا هو حال الدنيا حقيقة.. حتى الكالبتوز يذهب.. كل من عليها فان.. البعض منا يعيش ما يكفي ليشاهد هذا كله يحدث، والبعض يعيش فقط ليشاهد بعض الأشياء تذهب.. راحت الأميرات أولاً، ثم أغلب من

سكن الشارع، ثم الكالبتوز، وتلاشت روح الشارع بالتدريج، ولم يبق الآن من الشارع غير اسمه.. شارع الأميرات».

دق الباب. وصل الأكل، أيقظت أبي وفحصت سكره ثم أعطيته حقنته، ذهبت ميادة لتستعجل حيدر وهي تتمتم مع نفسها «معقول كل هذا على الهاتف مع أميلي؟ عادت فوراً وهي تقول «سيأتي الآن».

جاء حيدر وهو يعتذر عن التأخير بسبب مكالمته مع زوجته، لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور ببعض الحسد تجاهه. حيدر حقق كل ما كان يريده في شبابه، طبيب استشاري في المملكة المتحدة، زوجة، عائلة. كل شيء.

أعدت ميادة المائدة وساعدتها مريم، فحصت سكر أبي ثم ساعدته على الجلوس على المائدة ووضعت له منديلاً لكي يحمي ثيابه من تساقط الأكل، جلست جنبه وأنا أساعده في الأكل، بدا المشهد عائلياً جداً، طبيعياً جداً، كما لو كان علامة على قبول عمرتي. فكرت أن هذه الجلسة تستحق كل ما دفعته لأجلها.

فجأة قالت لي مريم إنها تريد أن تؤكل جدها بنفسها. قلت لها أن تأكل أولاً ثم تساعده، وقالت ميادة ربما هذه حجتها كي لا تأكل أصلاً، أعجبني أن تفعل ذلك مريم، جلست مكاني وأخذت تضع ملعقة الطعام في فم جدها وتمسح له فمه، كان منظرهما جميلاً جداً، الكعبة خلفهما، وهي جالسة كما لو كانت تحتضنه، وكان ينظر لها نظرة غريبة جداً، كما لو كان طفلاً رضيعاً يتأمل أمه.

أخذت هاتفي وصورت فيديو لهما دون أن أنطق بكلمة. كانت ميادة تراقب ما يحدث أيضاً، نظرت لي مبتسمة كما لو كانت ممتنة على كل شيء، شعرت أن عليَّ أن أشكرها، هي التي أعطتني هذه الفرصة باقتراحها هذا. كان حيدر منهمكاً في الطعام دون أن ينتبه لما يحدث، قال «الشيش طاووق خراااافي، والتبولة كذلك، منذ زمن بعيد جداً لم آكل تبولة كهذه».

ردت عليه ميادة: طيبة لكن لا تصل شيئاً لتبولة أمي. تبولة أمي «ينحلف» عليها.

قلت: أشهد بصراحة، كل أكل والدتك يحلف عليه، البيتزا التي تعملها لم يكن يُعلى عليها، وكذلك الكبة.

انفرجت أسارير ميادة: تذكر البيتزا والكبة يا سعد؟ أرأيتِ يا مريم؟ حتى عمك «النقناقي»[1] الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب يعترف أن أكل جدتك لا يُعلى عليه.

قلت: نعم. أنا أعترف يا مريم أنا نقناقي ولا يعجبني العجب، ولكن أكل جدتك لا يُعلى عليه.

قال أبي فجأة وهو ينظر إلى مريم: عيناكِ جميلتان جداً.

ابتسمت مريم واحتضنته بشدة. خفت أنا مما سيأتي.

قال أبي: جميلة جداً، تذكرني بأحدهم، اسمه على طرف لساني، كانت عيناه جميلتين هكذا..

ثم أطرق وهو يفكر كما لو كان يحاول أن يتذكر.

«بابا، هل ذقت من الكباب هنا؟ لذيذ جداً، مريم نباتية وكانت متحيزة في الاختيار». قلت وأنا أحاول أن أغير اتجاه تفكيره.

«منذ فترة لم أره.. لا أدري لماذا». قال أبي وهو يكمل.

ثم نظر مرة أخرى إلى عيني مريم. نظر كما لو كان يستنطقها. من تشبهين.

ثم بدا عليه أنه تذكر.

«نعم، تذكرت، عمر.. إنه عمر».

---

(١) النقناقي: كثير التدقيق صعب الإرضاء.

انطفأ أبي فوراً. بدا ذلك عليه. كما لو أن أحدهم سحب سلك الكهرباء من المكبس. بالتدريج بدأ يخفت أكثر فأكثر مثل حاسوب يقوم بإغلاق برامجه. كنت أحاول أن أجذب اهتمامه بأي شيء. أبي هذا المندي طيب نادراً ما نأكل مثله في بغداد. أبي هل تريد بابا غنوج؟ لكن لا فائدة. كان ينسحب. قبل أن ننهي طعامنا كان قد نام وهو جالس في مقعده.

قالت مريم: لم يخبرني أحد أن عينيَّ تشبه عيني أبي.

نظرت إلى ميادة مستغرباً والتفتُّ إلى مريم: معقول؟ عيناك نسخة من عيني أبيك رحمه الله، كانت العائلة كلها تقول قصائد غزل في عينيه وعينيك أيضاً.

نظرت لي ميادة كما لو كانت تقول أن أتوقف عن الكلام في هذا الأمر. توقفت.

لكن مريم لم تتوقف: لم يبد ذلك واضحاً من الصور، لكن لماذا لم تخبريني يا أمي؟

قالت مريم بضيق: قلت لكِ بالتأكيد أنك جئت باللون الأخضر الغريب هذا من أهل أبيك. هل رأيتِ من جَهتي عيوناً خضراء؟

تدخل حيدر وهو يصب المزيد من الرز في صحنه: ما الفرق؟ ما أهمية ذلك أصلاً؟

نظرت مريم له بتعجب، وكادت تقول شيئاً لكني قاطعتها: لديَّ هدية لك. أرجو أن تعجبك. اغمضي عينيك الجميلتين.

ذهبت بسرعة إلى الخزنة حيث وضعت كل ما هو ثمين، قلت لمريم من الغرفة الثانية أن تغلق عينيها فعلاً، ثم جئت وعلبة العقد في يدي ولم أفتحها إلا بعد أن تأكدت من إغلاق مريم لعينيها.

«افتحي مريومة».

أريتها العقد الذهبي الذي صممته لها. حرفان من اسمها بالعربي، والباقي بالإنجليزي. «مر» بالعربي، و

«iam» بالإنجليزي، داخل إطار دائري يشير إلى التفاعل المستمر.

«واو» قالت مريم. «تصميم هائل عمو، فعلاً فكرة ملهمة».

احتضنتني وهي تشكرني، ثم قالت بصوت خفيض: هذا العقد يحكي قصة حياتي باختصار.

ميادة 7

أشعر أن (سعدًا) تغير كثيراً. كأنه شخص آخر تماماً. لا شيء فيه يشبه ذلك الرجل الذي قام بدور ينوب فيه عن كل الحموات والكنات معي في أول زواجي، لا شيء فيه يذكر كل تلك التعليقات الناقدة اللئيمة التي كان يوجهها لي ولسواي طيلة الوقت. الناس حسب تجربتي نادراً ما يتغيرون إلى الأفضل، غالباً تبقى معهم هذه الصفات وتزداد كلما تقدموا في العمر، مع سعد كنت أتوقع أن ترك سوسن له وتقدمه في العمر سيجعله «لا يُحتمل» أكثر بكثير من السابق. صحيح أننا لم نتجاوز بعد يومنا الأول في هذا اللقاء، لكن، حتى الآن، من الواضح أنه تغير كثيراً. حتى تعامله مع أبيه، يبدو مختلفاً جداً، حتى عمر ما كان ليتعامل بهذه الرقة مع أبيه، سيكون أكثر عملية وصرامة في اختيار الطعام، سعد يتصرف مثل أم تدلع وحيدها المدلل.

صلينا العشاء في الحرم، كان الجو بارداً قليلاً، بارداً على نحو منعش، وليس بارداً على نحو قاتل كما في ميدلزبره، صلينا أنا ومريم في جزء النساء، بقينا بعد الصلاة في المسجد، جلست على الأرض أقرأ القرآن وأتامل في الكعبة، مريم ذهبت لتتجول في الصحن العلوي وتلتقط الصور من هناك، كان الاتفاق أن نلتقي مع سعد وأبيه وحيدر قرابة التاسعة في قاعة الطعام في مول أبراج مكة مقابل الحرم.

منذ فترة لم أر مريم وهي مسترخية على هذا النحو. التوتر الذي كنت أواجهه دوماً عندما أتعامل معها خف كثيراً، هل هذا أثر الكعبة؟ أم أثر العم الذي يبدو لطيفاً؟ أم الجد ورائحته المنعشة؟ أم هذا العقد الذكي الذي لا بد أنه كلف سعداً ثروة كبيرة؟

قالت لي إن أهل أبيها يبدون في غاية اللطف، وأنهم «كلاس» جداً. لم يكن لديَّ اعتراض على هذا. لن أغار الآن من مشاعر مريم لأهل أبيها. الأمهات دوماً يدفعن الثمن، يكن حريصات على الأبناء على نحو مزعج، ثم يأتي الأقارب ومعهم الإعجاب والحب والهدايا، فتبدو الأم مزعجة أكثر ويقول الأبناء في سرهم «ليت أمي كانت مثلهم».

في الحقيقة، كنت أريد لعلاقة مريم أن تكون أقوى وأقوى بسعد. لا أشك في مشاعره نحوها، لكني أريد المزيد، أريد أن تبادله هي هذا الشعور أيضاً. أريد لها أن تحبه. أن تشعر بالانتماء ولو قليلاً لأهل أبيها.

في قاعة الطعام، ذهبت مريم لتجلب القهوة لي ولها، سعد قرر أن يتناول العشاء من KFC وجلب لوالده الحساء من مطعم آخر، أما حيدر فقد ذهب لجلب وجبة من مطعم تركي.

لدقائق، كنا وحدنا أنا وسعد ووالده، كان سعد يقيس سكر والده مرتدياً «دشداشة» بيضاء، لم أره يوماً يرتدي مثلها، ولا حتى عمر، كانا يرتديان البيجاما أو ملابس بيت عادية، ولا حتى عمي، نادراً ما شاهدته يرتدي الدشداشة، دوماً بالبيجاما التقليدية. الدشداشة كانت في بيتنا، أبي خصوصاً، حيدر وميثم كانا يرتديانها عندما كنا صغاراً.

بدا سعد مختلفاً أكثر بالدشداشة البيضاء، قلت له: تغيرت كثيراً يا سعد، ما الذي حدث؟

قال: كبرت، كما يحدث مع الجميع. وكأنه يقول «ومعك أيضاً».

قلت له: لا. لم أقصد هذا، أقصد أنك تبدو «أسهل» بكثير في التعامل من قبل، لا داعي لفتح ملف معاركنا السابقة.. كنت «صعباً» جداً في التعامل، الآن، يبدو أنك صرت مختلفاً، أم هذا سيكون أول يوم فقط؟

نظر نظرة طويلة إلى عبوة الطعام أمامه، ثم قال: لا. أنتِ محقة، لقد تغيرت.

ما الذي حدث؟ سألته.

رفع عينيه ونظر لي مباشرة وهو يقول: الحياة. الحياة هي ما حدث لي. الحياة «بهذلتني»، مسحت بي الأرض، فأعادت تربيتي. هذا باختصار ما حدث لي.

أن يقول سعد أن الحياة «مسحت به الأرض»، أمر ما كنت أتخيل سماعه أبداً. كنت سأشمت كثيراً لو قالها سابقاً، الآن لا أشعر إلا بالتعاطف معه.

شعرت بحاجته إلى المواساة: الحياة كسرتنا جميعاً يا سعد، لم يكن كسرك أكبر من كسري.

هز رأسه: عندك مريم الله يخليها، مجرد رؤيتها تكبر تجبر كسرك ولو بالتدريج، أما أنا فليس الأمر كسراً، أنا انمسحت بي الأرض حرفياً، لا ولد ولا زوجة ولا عمل حقيقياً.. كل شيء، الحمد لله على كل حال.

قالها مع ابتسامة وهز برأسه، كما لو ليقول أنه راضٍ عن كل شيء، أنه تصالح مع كل ما حدث.

ثم أكمل كما لو أنه تذكر شيئاً: ولكن تعالي إلى هنا، تسألينني عن التغيير؟ أنت أيضاً تغيرت كثيراً يا ميادة، من الواضح أنك أصبحتِ أقوى بكثير وأكثر صلابة من الميادة التي غادرت بغداد قبل 12 عاماً.. الظروف جعلتك أقوى، والظروف جعلتني أسهل.. كلٌّ يتغير ليتكيف مع ظروفه.

كان محقاً. الدنيا مسحت بنا الأرض، أنا وهو، وبضعة ملايين آخرين مثلنا، ولا بد أن الكل قد تغيروا.

رأيت من بعيد مريم قادمة وهي تحمل القهوة، فكرت أن الوقت الآن مناسب لكي أعتذر منه وأنهي الأمر قبل أن تأتي مريم، ولن يستطيع أن يناقشه أو يعاتب فيه بوجود مريم. على الأقل لا أظنه سيفعل.

قلت بعد تنحنح: منذ سنوات طويلة وأنا أرغب في الاعتذار منك يا سعد.

بدت على وجهه الدهشة، «الاعتذار؟ على ماذا؟».

يزيدها صعوبة هكذا.

«تعرف، كل شيء حدث منذ يوم الجمعة المشؤوم ذاك». قلت وأنا أريد أن أنهي الأمر لأن مريم اقتربت.

«عم تتحدثين؟» قال وهو يهز رأسه.

«أرجوك سعد لا تزد الأمر صعوبة عليَّ، أنا أعتذر منك عن كل ما صدر مني، وعلى كل شيء بعدها، ولا أريد لمريم أن تسمع شيئاً عن هذا».

وصلت مريم وجلست على الطاولة ووضعت القهوة أمامي وأمامها.

نظر لي سعد وهو يحرك شفتيه كما لو كان يقول «لم أفهم».

جاء حيدر ومعه طبقه التركي وهو يقول «ثلاثة مطاعم تركية في ميدلزبره لم أقتنع بواحد منها، لعل هذا يعوض».

لا أصدق أن سعداً نسي كل شيء، لكنه كان يبدو صادقاً في إنكاره، ارتشفت القهوة بينما أصرت مريم مجدداً أن تساعد جدها في الحساء بدلاً من عمها، اختلست النظر لسعد لأرى إن كان منزعجاً أو مرتبكاً بسبب ما قلت، وعندما وجد أني أنظر له، نظر لي نظرة تساؤل: ما الأمر؟

أعلن حيدر أن مطعم «مركز الكباب» في ميدلزبره ينتصر، للأسف، حتى لو كان غير مقنع بالنسبة له، لكنه أفضل من هذا.

شربت قهوتي وأنا أقول لنفسي أن خطة الاعتذار فشلت على ما يبدو وأن عليَّ مواجهة الأمر، لكنه صار يبدو على الأقل أكثر سهولة الآن، كسرت حاجزاً على الأقل لكن الاعتذار «الخاطف» هذا لن ينجح. وصلت رسالة لحيدر على هاتفه، فتحها، وتغير لونه فوراً.

قام من مقعده وهو يتصل بالهاتف. سألته: حيدر، هل هناك شيء سيئ؟

هز رأسه نافياً وابتعد مع الهاتف.

قال عمو لمريم: عيناك جميلتان، تشبهان كثيراً عيني.. نسيت..

حاول سعد تغيير الموضوع: بابا، تريد (شاي)؟ الشاي هنا لذيذ جداً.

لم يكن الشاي لذيذاً، كان مجرد «شاي بظرف» لا يمكن أن يقنع العراقيين الذين لا يشربون الشاي إلا «مخدّرا» و«مهيلا»[1].. لكن سعداً لم يجد شيئاً آخر يقوله ليلفت نظر والده عن عيني مريم وشبههما بعيني عمر.

«عمر.. تذكرت.. تشبه عيني عمر». قال عمو وهو ينظر لعيني مريم.

«نعم بابا، مريم هي ابنة عمر».

بدت الدهشة على وجه عمو، اعترض: ابنة عمر صغيرة جداً، هذه عروس.

تدخلت: الأيام تمشي بسرعة عمو، كبرت مريم وأصبحت عروساً.

«لكن أين عمر، لماذا لم يأت، هل هو بخير؟». قال عمو.

قال سعد: بخير إن شاء الله.

سكت عمو وبدا كما لو أنه قد تذكر شيئاً، سرح تماماً وهو ينظر إلى الأرض، وانفصل عن كل ما حوله، لم يستجب أبداً لمحاولات مريم وملعقة الحساء في يدها.

«القهوة يا مريم» قلت لمريم، فعادت إلى مقعدها، سألتني بصوت خفيض: كم هو عمر جدي؟

لم أكن متأكدة. ربما اقترب من التسعين. نظرت إلى سعد مستنجدة، قال فوراً: كففت عن الحساب.

رددت: أحسن، الله يعطيه الصحة والعافية، وجوده بركة.

أردت تغيير الموضوع، قلت: حيدر تأخر مع هاتفه.

كان قد تأخر فعلاً. أكله سيبرد. اتصلت به ولم يرد.

* * *

(١) الشاي العراقي ينضج على بخار الماء المتصاعد وليس عبر غليه مباشرة، ويضاف له الهال. تسمى الطريقة فطير وخمير في بلاد الشام.

قالت لي مريم إنها ستعود إلى الحرم المكي لتصور من جديد، فكرت أن الوقت متأخر وربما من الأفضل أن أذهب معها، ثم تذكرت أنها مكة وأنه الحرم المكي وأنه لا خطر من التأخر ليلاً، في ميدلزبره - ورغم أنها أمينة بالمقارنة مع مدن أخرى قريبة، إلا أني أحرص ألا تخرج مريم وحدها ليلاً - والأمر أسوأ بكثير في شيفيلد، أي تأخر حتى التاسعة ليلاً كان يعني رفع حالة الإنذار عندي إلى الدرجة القصوى، بالضبط كما كانت تفعل أمي معي في بغداد، تعددت الأسباب وقلق الأمهات واحد، في بغداد بسبب كلام الناس «الذين سيأكلون وجوهنا أكل» وفي إنجلترا بسبب معدلات الجريمة والاعتداء الجنسي. لكن هذه مكة، وفي الحرم، لن يحدث شيء. أيضاً كنت متعبة جداً. على قولة أمي «غديت نبديد»[1]. لا أصدق أن كل هذا جرى في يوم واحد، قبل 24 ساعة كنا لا نزال في مطار هيثرو. أشعر أن ذلك كان في الشهر الماضي أو أكثر.

وضعت المتبقي من طبق حيدر في كيس وأخذته معي. سيجوع لاحقاً ولن يجد ما يأكله. أسعار الفندق تقصم الظهر حتماً. زمان في بغداد كنا نخجل من أخذ المتبقي. يقول الناس عنا «ليس لديهم طعام في المنزل». من فوائد الحصار في التسعينات أننا أصبحنا نتقبل «التيك أواي». مررت على السوبر ماركت واشتريت عصائر وجبنة وكيس خبز. ربما يجوع أي منا لاحقاً.

عندما دخلت الجناح، كانت الأنوار مغلقة، تخيلت أن حيدر لم يأت بعد. منظر الكعبة وأنوارها من النافذة كان بديعاً، اقتربت من النافذة وأنا أتأملها بينما أنزع غطاء الرأس وأتخفف من ثيابي. سمعت صوتاً من غرفة حيدر. لم أفهم الصوت. اقتربت من غرفته. بدا لي كما لو كان صوت بكاء. فتحت الباب، كان حيدر في سريره، وجهه على المخدة. كان يصدر صوتاً كبكاء مختنق.

---

(١) نبديد أو نبه ديد، كلمة من أصل أعجمي يستخدمها البغداديون للدلالة على شدة التعب. غديت نبديد أي أمسيت شديد التعب.

«حيدر، ما بك؟ هل جرى شيء لأميلي؟ ماذا حدث؟».

فتحت الضوء. صعقني لون حيدر. كان وجهه أحمر اللون. لم أره هكذا من قبل. سمعته يبكي في الهاتف على أبي وعلى ميثم، لكن لم أره يبكي من قبل. لكنه لم يكن يبكي الآن. كان وجهه متشنجاً كما لو كان يختزن بركاناً يريد الانفجار.

قال لي شيئاً. لم أفهمه. عقلي رفض أن يستوعب أو يحلل الكلمات التي قالها أو يربطها لتكون جملة مفهومة.

«ماذا تقول؟» كررت كما لو أن عقلي يمنح فرصة أخرى لحيدر كي يقول شيئاً آخر.

ثم ضربت على خدي عندما استوعبت ما يقول.

«سارة أنجبت يا ميادة، بنتي أنجبت بالحرام يا ميادة، بالحرام».

* * *

لا أعرف كم دقيقة مرت قبل أن أتمكن من تمالك أعصابي. ربما دقيقة أو أكثر قليلاً، لكني خلال ذلك لطمت وضربت على خدي كما ستفعل أمي لو علمت. لا، أمي ستفعل أكثر بكثير، أمي ستثقب خدها لطماً وتقيم مجلس عزاء لحفيدتها.

انفجر حيدر باكياً كما لو أنه كان ينتظر رد فعلي كي يفعل. كان يبكي بحرارة وهو يقول لي الجملة ذاتها. سارة أنجبت بالحرام يا ميادة. تعال يابه شوف حفيدتك. تعال حجي مرتضى اللي كانت الناس تحلف براسه. تعال شوف ابنك.

بعد الدقيقة بدأت أفكر، حيدر ليس صغيراً. قد يحدث له شيء. لا أعرف إن كان يتناول أدوية مزمنة لكن أعرف أنه تعرض إلى أزمة صحية عابرة قبل عامين لم يحاول أن يطلعني على تفاصيلها. سألته: هل لديك أدوية مهدئة؟

قال لي: هناك زانكس في حقيبة اليد.

بحثت عن الزانكس وأخرجت ثلاث حبات، اثنتين لي وواحدة لحيدر. جلبت له قدح الماء وقلت له أن يشرب بلهجة حاسمة.

شرب وأعاد نفس الجملة، فكرت أن صوته ربما يكون مسموعاً في جناح سعد. قلت له: صوتك يا حيدر، يا واش يا واش[1] «منّا» الناس[2]، هل تريد أن نصبح علكة في فم سعد، فوق المصيبة تريد فضيحة.

كان لديَّ عقلان في رأسي يعملان في وقت واحد. بالأحرى عقلان وقلب. عقل يعمل على تهدئة سعد، وآخر يفكر بحلول لحفظ ماء الوجه، وقلب يلطم ويشق الجيوب.

قلت لحيدر: لا توجد مشكلة بلا حل. فقط دعنا نفكر في هدوء.

وكنت أقول لنفسي: كيف تحل هذه المشكلة، الكلبة أنجبت أصلاً!

لم يكن حيدر مستعداً لسماع أي كلام بعد. منحني هذا بعض الوقت للتفكير في حل.

«هل ستتزوج؟». سألته.

صرخ: لا! الحقيرة تقول إنها ضد مؤسسة الزواج!

أيبااااخ[3].. الخاتون[4] ضد مؤسسة الزواج. عشتوا[5]. نيالها[6] لأمك حيدر على ها الحفيدة. الزواج صار مؤسسة وصار هناك من هو ضدها ومن هو معها. والله توقعت منذ زمن. ليس أن تنجب بلا زواج، ليس لهذه الدرجة،

(١) يا واش يا واش: شوي شوي، على مهل وأصلها تركي.

(٢) منا الناس: من هنا الناس، أي الناس قريبون.

(٣) ايباخ: عبارة استهجان واستهزاء.

(٤) الخاتون: كان يقال عن شريفات القوم «خاتون» وتستخدم الجملة أحياناً للاستهزاء بمن هي عكس ذلك.

(٥) عشتوا: كلمة استهزاء تقال لمن يتظاهر بأنه أرقى وأرفع أو أثقف.

(٦) نيالها: هنيئا لها.

لكن كان شبه مؤكد عندي أنها لن تتزوج مسلماً. لن يفرق الأمر معها أو مع أميلي، وحيدر لم يحاول أبداً أن يكون له أي دور في توجيه سارة، أو أن يتعاون مع أميلي لوضع حدود معينة، حاولت مرة أن أنبهه إلى ذلك، لكنه ردني بعنف. ففضلت ألا أعلق وألا أتدخل وعزلت مريم عنها.

قلت: دعك مما تقوله الآن، لاحقاً ستتقبل الأمر، علينا أن نحافظ على الحد الأدنى الممكن.

قال: هل أبقت حداً أدنى يمكن المحافظة عليه؟

قلت: نعم، الحد الأدنى لا يخصها، بل يخص اسمك وسمعتك بين الجالية.

قال: ماذا سنفعل؟ كيف يمكن الحفاظ على أي شيء في ظل ما فعلته؟

أخذت نفساً عميقاً وقلت: سارة ليس لها أي وجود في مجتمع الجالية وتجمعاتها، لا أحد يعرفها شخصياً. ستدعو الجميع إلى حفل زفافها، وقبل فترة تلغي الدعوة وتعتذر من الجميع لأن العروسين فضلا السفر لقضاء شهر العسل بدلاً من الحفلة والدعوة.

«وابن الحرام الذي سيكون عمره سنة عندما يفترض أن تنجبه؟».

«من يسمعك سيقول إن الجالية تتابع أخبار سارة أولا بأول، الناس تنسى يا حيدر ولا تركز لهذه الدرجة».

إلا في هذه الأمور. الناس تحسبها باليوم. وتتبادل التحليلات والصور. لن يمر الأمر على أحد، ولكن عسى أن يمر الكلام على حيدر فقط. لكي يهدأ على الأقل.

بدا أنه يفكر بما قلته. قال لي «هناك مشكلة أخرى».

«ماذا أيضاً؟». فكرت مع نفسي: أرجوك لا تقل إنها سحاقية وأنها أنجبت من حيمن مجمد من بنك الحيامن بالاتفاق مع صديقتها. كل شيء أصبح وارداً.

«الأب.. الأب أسود».

تخيلت أمي وهي ترى صورة حفيدها الأسود.

«تقصد أنه أسمر داكن؟ خالك أيضاً أسمر داكن، أغلب بيت الدباغ سمر».

«أسمر داكن؟ أقول لكِ أسود يا ميادة، لا تستفزيني أكثر، أسود أفريقي».

آه، نعم. كملت فعلاً يا سعاد الدباغ.

«هل هو لوك؟». كنت رأيته معها أكثر من مرة في مناسبات مختلفة. لم يخطر ببالي أنهما في علاقة.

«نعم، ابن الساقطة».

سكتُّ قليلاً، لم أحضر كلاماً يواجه هذه المشكلة.

«وما الفرق يا حيدر؟ أبيض أو أصفر أو أسود؟ لن يختلف الأمر حسب جنس الأب». قلت وأنا أعرف أن الأمر ليس بهذه السهولة.

«وأمي؟ ماذا سنقول لها؟».

سؤاله كان يعني أنه اقتنع بالفكرة.

سألته: هل سبق لأمي أن رأت لوك في واحدة من زياراتها؟

قال: لا أعتقد.

قلت: «إذن لن نقول لها الآن، سنمهد لها، سنقول إن سارة تقدم لها مسلم من شمال إفريقيا وأنه من نسب الرسول وأنك رفضته رغم أنه جيد، ثم سنقول إنهما تزوجا. لن تطلب أمي عقد الزواج».

في الحقيقة، أمي قد تطلبه. وربما تريده مصدقاً أيضاً. من الصعب جداً إخفاء الأمر عنها وهي صاحبة أكبر عدد من مجموعات الواتس أب التي تعرف من خلالها علامات مريم الدراسية قبل أن أعرف بها أنا.

سألته: «منذ متى وأنت تعرف أنها.. أنها..». لم أتمكن من نطق الكلمة.

قال: بشرتنا الساقطة بالخبر السعيد في عيد الفصح.

«إذن كنت تعرف أنها ستنجب في هذه الفترة يا حيدر».

«نعم، وافقت على العمرة فوراً لكي أتجنب أن أراها في هذه الفترة».

تذكرت استغرابي وقتها من موافقته فوراً دون استشارة أميلي. الآن يبدو الأمر مفهوماً.

«ماذا كنت تتوقع؟».

«لا أعرف.. ربما كنت أنتظر معجزة.. أن تسقطه.. أن يموت.. أي شيء».

* * *

عندما عادت مريم من الحرم خلعت غطاء الرأس وهي تتأفف منه، ثم نظرت لي نظرة غاضبة وقالت: احزري من أضفت اليوم إلى الفيس بوك؟

نظرت لها مستغربة: من؟

قالت: عمي سعد.

تظاهرت بعدم فهم ما تقصد، قلت: خير إن شاء الله، لم أكن أعرف أن سعداً لديه حساب على الفيس بوك.

- حقاً لا تعرفين؟ من وضعه إذن في قائمة الحظر؟!

- آه، نعم. لقد نسيت، كنتِ صغيرة جداً عندما أنشأت حسابك يا مريم وكنا متفقتين على أن من حقي الدخول.. لم أرغب أن يكون هناك أي تأثير في وقت غير مناسب.

- تأثير غير مناسب من عمي؟ تتحدثين عنه كما لو كنت تحمينني من مجرم بيدوفيليك! عمي شخص لطيف جداً ولا أعتقد أن حرماني منه كان من حقك. أنا شخص مستقل ولدي القدرة على اتخاذ القرارات.

أوف، هذه المحاضرة مجدداً، سارة تنجب بلا زواج ومريم تحاضر عليَّ في موضوع حقها في إضافة عمها على الفيس بوك.

فكرت أني قد أموت بالذبحة الصدرية لو حاولت مجادلتها، قلت باستسلام: حبيبتي مرمر أنا آسفة جداً، بالفعل كنت مخطئة، وأرجو أن تسامحيني، لم يكن من حقي ذلك لا وقتها ولا في أي وقت آخر، لكن اعتبري أن ترتيبي لأمر هذه الرحلة كان للتعويض عن ذلك.

نظرت لي باستغراب وهزت رأسها: لا أصدق أنك تعنين ما تقولين.

قلت لها بلهجة مختلفة: اعتذرت منك وانتهى الأمر.. إن لم تتركيني أنام الآن فوالله العلي العظيم سأذهب لأنام في الحرم.

مريم 7

قبل الفجر نزلت مع أمي لكي نجد مكاناً جيداً في الصلاة، تبين أن الكل تقريباً قد فعلوا الشيء ذاته. أحب أن أرى المكان خالياً من الناس، أستشعر المساحة والفضاء فيه، أحب أن أراه أيضاً في أوقات مختلفة من اليوم، أؤمن أن الأبنية تشعر باختلافات اليوم، شيء ما في علاقة الشمس والظلال معها يرسم مزاجها ولا بد. أمس مثلاً بعد العشاء عندما ذهبت لأصور من الطابق العلوي شعرت أن المكان نشيط، ثمة روح تسري فيه، الآن أشعر أن المكان يتأملنا.

لا أعتقد أن الباقين جاؤوا للسبب ذاته، وربما سيظنون أني مجنونة لو حدثتهم عن ذلك، ربما كنت مجنونة فعلاً بعد كل شيء.

كان صوت القارئ جميلاً، قرأ شيئاً عن فتية في الكهف، قرأها بصوت حزين حتى بدا لي أنها قصة حزينة جداً، ربما لو كان صوته مختلفاً لشعرت بشيء مختلف.

كانت الخطة أن نذهب بعد الصلاة إلى الإفطار ثم إلى مسجد التنعيم لكي ننوي العمرة هناك، ثم نرجع إلى الحرم مرة أخرى، لم أفهم المغزى من ذلك، ولكن عمي قال لي ربما كي نشعر من جديد بدخول الكعبة بعد تركها ولو لفترة قليلة. لا بأس. سأرى مسجداً جديداً. قال عمي إن جدي كان متعباً أمس وسيبقى مع «الخادم الخاص» في الغرفة.

لكن خالي اختفى، لم تشأ أمي إيقاظه معنا لأننا خرجنا مبكرين، عندما اتصلت به بعد الصلاة كان هاتفه مغلقاً، اتصلت أمي من الاستعلامات بالغرفة ولكنه لم يرد. صعدت إليه ثم عادت تقول إنه ليس في الغرفة، اتصلنا

به مراراً ولكن هاتفه بقي مغلقاً، تناولنا الإفطار وتوقعنا أن نراه هناك، لكن لم نجده أيضاً.

أخيراً قررنا أن نذهب إلى مسجد التنعيم ونُحرم من هناك ويستطيع هو أن يلحق بنا أو يحرم لاحقاً.

ذهبنا إلى مسجد التنعيم، يقع خارج حدود الحرم، كان خارج مكة سابقاً لكنه الآن داخلها، مجرد دقائق في السيارة، نصلي ركعتين وننوي أن نعتمر، ثم نعود مرة أخرى إلى الحرم. كل الرحلة لم تستغرق نصف ساعة، صورت المسجد من الخارج والداخل أيضاً، المعماري الذي صممه مزج عدة مدارس مع بعضها، ولكن النتيجة كانت لا بأس بها.

عدنا إلى مكة لأداء العمرة الثانية، قالت لي أمي إنها ستهديها إلى روح أبي، لم أعرف ماذا أقول لها. أنا أيضاً سأهديها له، لكن لأسباب مختلفة. أمي وعمي فعلاها بحرقة، عرفاناً له أو وفاء لماضٍ معه، أما أنا سأهديه بدافع فضولي لمعرفته، بأن أشعر أن ثمة رابطة تربطني به، لقد قمت بعمل عمرة لأجله، سبع مرات (طواف)، وسبعة أشواط (سعي).

قبل أن نبدأ الطواف قالت أمي لعمي بصوت مسموع: سعد، لا تنس أن تدع لكوكب الأرض «خطيّة»[1]، علمود[2] الاحتباس الحراري، وهمينة[3] ادع للحيوانات وحقوق الحيوان، وللباندا ووحيد القرن والنمر الأبيض لأنهم «رح ينقرضون»[4].

نظرت لها فوجدتها تغمز ضاحكة، تستخدم معتقداتي كمادة للتفكه.

«ماما!» قلت موبخة لكي تكف.

---

(١) خطية: مسكين

(٢) علمود: بسبب، لأجل

(٣) همينة: أيضا، فارسية الأصل

(٤) رح: سوف واصلها راح

« شصار؟[1] مجرد دعاء. يجب أن تفرحي. خطية وحيد القرن[2]!» قالت وهي تتصل بخالي مرة أخرى. هاتفه لا يزال مغلقاً، ذهبت أمي إلى الفندق مجدداً ولكنها لم تجده، ذهبت إلى مطعم الإفطار ولم تجده. قلت لها ربما بقي في الحرم أو ذهب إلى أي مكان وهاتفه غير مشحون. بدأنا الطواف وأمي مشتتة الذهن، غادرها حس النكتة الذي بدأت به. تتصل بهاتف خالي في كل طواف، والهاتف مغلق. مع كل مرة كانت تكتئب أكثر، وقالت إنها إن لم تجده بعد انتهائنا من العمرة ستتصل بالشرطة أو تبحث في المستشفيات. لم يكن من الممكن إيقاف قلق أمي في حالات كهذه. عمي تورط بمحاولة تهدئتها، ركزي في العمرة الآن وسنجده إن شاء الله، أين سيذهب؟

مع بدء السعي كانت أمي قد انتقلت إلى مرحلة أعلى من إبداء القلق. سألني عمي جانباً إن كانت أمي هكذا دائماً، فقلت له إنها ملكة دراما بطبيعتها، تقلق كثيراً وتنتظر عند الباب وتحرجني في مواقف كثيرة ولكن هذه المرة تبالغ كثيراً.

في الشوط الرابع سمعنا صوت جلبة في المطاف، ثم سمعنا صوت الإسعاف، ورأينا شرطة الحرم ينتشرون، لم يؤثر ذلك على السعي بين الصفا والمروة، لكن بدا على أمي أن الأمر زاد من اضطرابها.

عندما أنهينا السعي أصرت أمي على العودة إلى المطاف لمعرفة ما حدث، لم أربط أولاً بين هذا الأمر وقلقها على خالي، كانت لا تزال تحاول الاتصال به دون جدوى، سأل عمي سعد أولاً حراس الحرم الذين رأيناهم في طريقنا، فلم يكن هناك جواب واضح، وكلما اقتربنا أكثر من المطاف كان يبدو أن ثمة شيئاً قد حدث.

عندما وصلنا المطاف كان مغلقاً. لم يكن الناس يطوفون لأن ثمة منطقة أغلقت. اقتربنا أكثر فأكثر من المنطقة التي تجمع فيها الناس، لم نر شيئاً

---

(١) شصار: ما الذي حدث؟

(٢) خطية وحيد القرن: مسكين وحيد القرن.

بسبب الزحام، قال عمي سعد إنه في الغالب ثمة شخص أصيب بأزمة صحية وجاءت سيارة الإسعاف لنقله. لم يُطمئن هذا أمي بل زادها قلقاً، كانت وجوه الجميع عموماً مكتئبة كما لو أن شخصاً مات أمامهم وليس أصيب بأزمة صحية فحسب، هكذا فكرت، بدأنا نرى وجوهاً دامعة، أخذت أمي تسأل يميناً وشمالاً، البعض لم يرد، وتبرع آخرون بما حدث: هناك من ألقى نفسه من الصحن العلوي على أرض الحرم. سقط ومات. انتحر.

انتحر؟! كان الأمر صادماً. أن ينتحر شخص في هذا المكان.

سمعت عمي يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويُكثر من قول أشياء أخرى لم أركز فيها لكنها كانت آيات دينية. أمي كانت مستمرة في الأسئلة: هل رآه أحدكم؟ من أين هو؟ كم عمره؟ ماذا كان يرتدي؟

أعرف أن أمي فضولية ولكن ليس لهذه الدرجة. أن تسأل عن ملابس المنتحر كان أمراً مبالغاً فيه جداً. الآن أصبحت إمبراطورة دراما.

«ماما، ما الذي حدث؟ لماذا هذه الأسئلة؟».

أعطتني يدها وقالت «اسنديني يا مريم سأسقط». كادت تسقط فعلاً، أمسكت بها ومشيت معها إلى الطرف لكي تستطيع الجلوس، جاء عمي وأخذ يرش الماء على وجهها من قنينة في يده، أشارت لي إلى الكيس في يدي بسرعة كأنها ستفرغ ما في جوفها، أعطيتها الكيس ووضعت وجهها فيه ولكنها لم تتقيأ.

بعد دقائق ارتاحت قليلاً وقالت لعمي بصوت حاسم: سعد، خذني إلى مركز الشرطة حالاً.

«مركز الشرطة، لماذا ماما؟ ماذا حدث؟».

قالت بصوت مرتجف: أخشى أن يكون حيدر هو المنتحر.

شهقت أنا، وصرخ عمي مستنكرا: لاااا!.

«ماذا تقولين ميادة؟ لماذا ينتحر حيدر؟!».

«أرجوكم خذوني إلى مركز الشرطة الآن، لا أستطيع الحديث».

لا بد أنها مكالمة الأمس، فكرت، لم أره بعدها، ووجهه تغير فوراً.

لكن أن ينتحر!

أخذ عمي يسأل عن كيفية الوصول إلى الشرطة، حاول الاتصال بهم أثناء ذلك، لكن المجيب الآلي لم يكن يعينه كثيراً على ما يبدو، أخذت أحاول الاتصال أنا بخالي ولكن هاتفه كان لا يزال مغلقاً. أمي دخلت مرحلة الولولة فعلياً. تسأل كل من تراه بزي رسمي عن المنتحر نفس الأسئلة: كم عمره؟ من أين هو؟ ماذا يرتدي؟ كانت الأجوبة متضاربة تماماً بحيث يفهم منها أن عدة أشخاص قد انتحروا صبيحة اليوم في الحرم المكي، قيل لنا إنه آسيوي وشاب، وقيل إنه عربي وفي منتصف العمر، وقيل أيضاً إن وجهه تهشم وجهه وضاعت ملامحه.

مع وصولنا لمركز الشرطة صار الأمر رسمياً، حاولنا أولاً أن نسأل الحراس عن الأمر بشكل «ودي»، ولكن لم يكن هناك أي تعاون. قال عمي هذا مركز شرطة وليس « قَبول[1] الحاجة لطفية» لجمع الأخبار. قال لهم عمي إن لدينا شخصاً مفقوداً ونريد أن نتأكد إن كان هو المنتحر أم لا، فكان الرد «هل قمتم بالتبليغ عن فقدان الشخص؟». صار يتوجب علينا عمل تبليغ رسمي بفقدان خالي لكي نصل إلى مرحلة سؤال «هل هو المنتحر؟».

أخذ عمي أمي جانباً وقال لها: هل أنتِ متأكدة أنه يجب علينا أن نقوم بالأمر الآن؟ ماذا لو جاء حيدر الآن واكتشف أنكِ قمت بتبليغ الشرطة عن فقدانه؟ غالباً سينتهي الأمر به في الشرطة أيضاً.

قالت له: يأتي بالسلامة ويحلها حلّال، الآن يجب أن نفعل شيئاً.

---

(١) قبول: تجمع نساء أسبوعي يكون له يوم محدد في منزل واحدة من السيدات.

بدأنا بالإجراءات فعلاً، وكانت أمي مستمرة في «جمع» المعلومات من هنا وهناك، وهي معلومات زادت من كمية الاضطراب عن هوية المنتحر، إحدى الجنسيات التي أضيفت كانت العراقية، وكان هذا كفيلاً بأن تضرب أمي على خدها.

أفلتت منها كلمة لا تقولها إلا في المصاب الجلل «به يمه».

قال عمي: ميادة، حيدر بريطاني الجنسية، كيف سيعرفون أنه عراقي الأصل؟ على فرض أنه يحمل جوازه معه، فهو بريطاني، لماذا سيقال إنه عراقي؟

قالت أمي: مكان الولادة مثبت في الجواز، بغداد.

هز عمي رأسه: ممكن لأي شخص أن يولد في بغداد ولا يكون عراقياً، لا يقال في هذه الحالات إنه عراقي.

ردت أمي بصوت درامي: ربما قال شيئاً قبل أن يموت.

نظر عمي لي وقال بصوت منخفض: الله يكون بعونك يا مريم، السيناريو كامل في ذهن أمك. متأكد أن خالك سيأتي بعد قليل وسيكون فصلاً سخيفاً للغاية.

«ماذا قال لكِ خالي أمس ليلاً؟ لماذا تعتقدين أنه انتحر؟ قولي لي حتى أستطيع التفاعل مع هذه المبالغات؟».

«مريم، أرجوكِ، لا أستطيع الآن أن أقول شيئاً، فلنتأكد أولاً إن كان هو المنتحر أم لا».

عندما وصل دورنا في لقاء الضابط الذي سيسجل بلاغنا، سأل والدتي فوراً: متى آخر مرة رأيت فيها «المفقود».

قالت له: عندما نزلنا إلى صلاة الفجر.

نظر الضابط إلى ساعته وقال: لم يؤذن الظهر حتى الآن يا حاجة. تريدين التبليغ عن فقدان شخص عمره 54 سنة وصحته جيدة، لأنه لم يرد على الهاتف من صلاة الفجر حتى الآن؟

قالت أمي: لا، هاتفه مغلق، ونحن خرجنا قبل الصلاة بساعة تقريباً. يعني الوقت أكثر مما حسبته حضرتك.

نظر الضابط إلى عمي مستنجداً ثم سأل أمي: حضرتك أخته أم زوجته؟ هذه التبليغات تأتي عادة من الزوجات وليس من الشقيقات.

تدخل عمي: هي تخشى أن يكون هو من «سقط» من الصحن العلوي إلى الحرم.

مزق الضابط الورقة أمامه وهو يقول: الله يهديكِ يا حاجّة، الله يهديكِ، الرجل لم يرد على الهاتف كم ساعة، تتخيلين أنه انتحر وتأتين الشرطة، لا يا حاجّة ليس هو، الرجل الذي سقط أهله معه وحضروا من البداية، والله لدينا عمل حقيقي أكثر وأهم من هذا.

تولى عمي الاعتذار، بينما كانت أمي تستحلف الضابط وتتأكد منه، ثم أخذت تحمد الله وتبكي فرحاً بنجاة خالي من محاولة الانتحار التي وضعته فيها.

عندما خرجنا من مركز الشرطة، نظرنا أنا وعمي إلى أمي، كانت تتصل مجدداً بالهاتف، وكنا ننتظر تعليقاً منها.

قالت: لا تنظرا هكذا أنت وهي. لدي تفسير لكل شيء.

* * *

في الغرفة حكت لنا كل شيء وهي تبكي.

قالت لنا إن خالي أخبرها أن سارة أنجبت أمس.

سأل عمي فوراً: من سارة؟

قالت أمي: ابنته.

انطلق عمي مباركاً: ما شاء الله، ما شاء الله، حيدر صار «جداً»، ألف مبروك، ماذا أنجبت؟

نظرت له أمي بغيظ وقالت له: «نيالك[1] سعد»، اللي يدري يدري والمايدري يقول قبضة عدس[2].

قلت لعمي: عمو، سارة غير متزوجة.

لم يفهم عمي ماذا يعني هذا أولاً.

«كيف يعني غير متزوجة؟» قال. بدا لثوانٍ كما لو أنه طفل في الروضة، وعلينا أن نشرح له الأمر.

ثم بلع ريقه. وسكت.

لقد فهم.

قال لأمي بعد صمت قصير: تعرفين وليد بكر آغا، ابن ابن عم أبي؟ ابنته «حدث» لها الشيء ذاته في أمريكا.

قال «حدث لها» كما لو أن الأمر «حادث».

ردت أمي: لا أعرفه ولكن أذكر قريبكم في أمريكا، ماذا تقصد على أي حال، هل تريد أن تقول: يحدث في أحسن العوائل؟ هذا آخر ما أفكر فيه الآن.

«كنت فقط أقول إنه يحدث، لا شيء أكثر من هذا». قال عمي محرجاً من رد فعل أمي.

كنت في الوسط من كل هذا، أستطيع أن أفهم سارة، وموقفها من «مؤسسة الزواج»، وأستطيع أن أفهم أيضاً حجم الأذى الذي ألحقته بأبيها وبكل من يمت لها بصلة قرابة، لكني في الوقت نفسه لا أستطيع أن ألومها، نشأت سارة

---

(١) نيالك: هنيئا لك.

(٢) مثل يقال عمن لا يعرف حقيقة الأمر ويتصوره هينا.

كبريطانية وتخرجت محامية وهي ناشطة حقوقية في أمور تتعلق بالمهاجرين واللاجئين، لديها شخصية مستقلة تماماً، لا يمكن لأحد أن يقول لها فجأة بعد كل هذه السنوات، أن تفعل ما يريده أبوها أو عمتها أو أن تحسب حساباً لما ستقوله جدتها في مجموعة الواتس آب لصديقاتها في بغداد. هذه الدراما كانت واجبة البدء مبكراً جداً لكي لا نصل إلى احتمالية الانتحار هذه. عشت أنا عشرات الدرامات الصغيرة من قبل أمي، أخذت النصائح والإرشادات عن «عدم التمادي» كحقن في العضلة. عشرات القصص عن «النهايات السيئة للتمادي» وعشرات التحقيقات عن صديقاتي وكل من أعرفه جعلت في داخلي حدوداً تمنعني من أن أمضي إلى ما مضت له سارة. بالنسبة لأمي «أنا يجب أن أتزوج من عراقي وابن ناس أوادم». تحديد معنى كلمة «ابن ناس» صعب جداً حتى على أمي، لكنها تفسر ذلك بأن تقول «ناس مثلنا، يشبهوننا»، ولكني أعرف تماماً أنها ستتنازل عن قصة «يشبهوننا» عند الاضطرار، ستتنازل حتى عن «عراقي» في الاضطرار، ستقبل بعربي مسلم، وربما بإيراني أو تركي أيضاً. إذا كانوا أولاد ناس أيضاً. الوضع الجيوبولتيكي للزواج عند أمي معقد ومرن في الوقت نفسه. لكنها لن تضع كل أوراقها على الطاولة فوراً.

أفهم سارة وأفهم أمي وأفهم خالي، أقف على مسافة واحدة منهم جميعاً، وهو أمر متعب جداً. متعاطفة مع الجميع بدرجة ما. سارة المذنبة في هذا السياق، لكن خالي هو المذنب في سياق أوسع. الكل يبدون ضحايا ومذنبين في نفس الوقت. وجوه متبادلة في غابة مرايا لا تنتهي.

وقفت عند النافذة أتأمل الكعبة، هناك اليوم من وقف يتأملها ثم ألقى بنفسه بالقرب منها. هل يمكن أن يكون قد سقط دون نية الانتحار؟ هل يمكن أن يكون قد تسلق سياج الصحن العلوي فقط ليقترب أكثر من الكعبة؟

أمر مستبعد جداً. واثقة تماماً أن المصممين للصحن العلوي لم يكن في بالهم أن هناك من سينتحر.

فكرت بهذا المنتحر. أي يأس كان يحمله لكي يجعله يفعل ذلك؟ وفي هذا المكان؟

وضعت يدي على هاتفي وفي نيتي أن أفتح الإنستغرام وأتحدث عن هذا المنتحر المجهول. ثم وضعت الهاتف جانباً. لا، لهذا الأمر خصوصية حزينة، لا تليق بالإنستغرام.

أحدهم مات يأساً اليوم، لن أحول الأمر إلى قصة على الإنستغرام.

صوت الباب يُفتح، خالي حيدر بملابس الإحرام وقد حلق شعره تماماً. كان قد اكتفى بقص شعرات فقط في العمرة الأولى.

ننظر إليه جميعاً كما لو أن المنتحر قد عاد إلى الحياة.

«لماذا تنظرون هكذا؟». قال حيدر.

«الكوة الكوة[1].. لا شيء، كنا ننتظرك لكي نذهب إلى الغداء». قالت أمي.

«لا، أنا متعب، أريد أن أنام، الجو كان حاراً اليوم، سآكل لاحقاً». قال حيدر وهو يدخل إلى الحمام ويغلق الباب خلفه.

وقفت أمي بباب الحمام وسألته: هل هاتفك معطل؟

رد عليها: لا. مغلق فقط. لماذا؟

(١) كلمة يستقبل بها الشخص القادم من طريق أو مهمة صعبة، ويقصد بها الله يعطيك القوة.

حيدر 7

«ميادة، أنت مجنونة بلا نقاش.. حي على الصلاة[1]». قلت لها. كنت أريد أن أشتم أكثر بكثير.

وجدت 99 + مكالمة فائتة منها عندما فتحت هاتفي. اثنتين من أميلي. وستاً من مريم.

«أكثر من 100 مكالمة فائتة! لو كنت طفلاً في الثامنة ما كنت ستتصرفين هكذا».

«وضعك أمس لم يكن مريحاً أبداً. خفت عليك. أنت أكثر من يجب أن تعذرني لو خفت». قالت لي ميادة. كنت أعرف أنها مرت بتجربتي قلق بسبب «عدم رد على هاتف» وانتهت نهاية مأساوية: ميثم وعمر. من يلومها؟

«هل تصورتِ أني أنا الذي انتحر؟». سألتها. سمعت بالأمر، وشاهدت جزءاً من الجلبة.

انتفضت «لا طبعاً، ليس لهذه الدرجة، فال الله ولا فالك».

كان الأمر لهذه الدرجة وأكثر. على الأقل فكرت به مراراً. ليس الآن ولكن في البداية. كنت أعرف أن الأمر يحتاج شجاعة لا أملكها. شجاعة «لحظة» التنفيذ، وشجاعة تحمل «العواقب» في الآخرة. لم أكن متأكداً جداً من موضوع الآخرة، لكن هناك احتمالاً كبيراً جداً أن يكون الأمر حقيقياً.

قدرت أيضاً أن الأمر سيلحق المزيد من الضرر بالأسرة، وسيزيد من انتشار فضيحتي بسارة. لماذا انتحر الأب؟ لأن ابنته حبلت سفاحاً.

---

(١) حي على الصلاة: واضح جداً، دون نقاش.

«كيف أنت اليوم؟». سألتني ميادة وهي تمسكني من كتفي.

«لا أعرف، أخذت جرعة مضاعفة من السيتالوبرام، مضاد الاكتئاب الذي آخذه منذ أشهر، أغلقت هاتفي كي لا أسمع أي خبر عن سارة أو ابنها».

«ما هو موقف أميلي من كل هذا؟».

«تعرفين أميلي، تحاول الإمساك بكل شيء من الوسط، لم تكن موافقة على الأمر من البداية، كانت تفضل زواجاً تقليدياً أوافق عليه، وأظنها كانت تفضل أباً أبيض اللون أو.. مثلنا يعني عادي، لكنها لا تتحدث عن الأمر أبداً، الآن هي تقول إنها لن تخسر سارة وأن عليَّ أنا أن أتقبل الأمر بطريقة ما».

«نعم، مفهوم. ماذا كنت تريدها أن تفعل مثلاً؟».

«أنا نفسي لا أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، كي أفكر بالذي يجب أن تفعله أميلي». قلت لميادة وكانت تربت على كتفي بمواساة.

«هذه حوبة[1] الحجي مرتضى يا ميادة، هذه حوبة أبي». قلت لها بعد صمت.

«حرام عليك، لا تقل هذا يا حيدر، حرام عليك، لا تفعل هذا بنفسك، ولا بأبيك». قالت ميادة بحرقة.

«لا يتركني يا ميادة، منذ أن علمت بموضوع سارة وهو يأتيني في الحلم، لا يتحدث معي، لا أرى غير ظهره». قلت لميادة. كان قد جاء أمس أيضاً في الحلم، كان يقف في الشارع ويحاول إيقاف سيارة تقله ويرفض أن يصعد معي.

قالت ميادة «خير، الميت عندما لا يتكلم في المنام فهو خير».

«من قال لكِ هذا؟».

---

(١) الحوبة: اللعنة. عندما تأثم بحق شخص فإن هذا الإثم يلاحقك بلعنته.

«من قال لي، من قال لي مثلاً، قرأته، مرة حلمت بأبي وهو لا يتكلم أيضاً، وبحثت وطلع خير، أبوك أصلاً كان قليل كلام الله يرحمه.

«أي خير يا ميادة بشرفك، ما أنا فيه يبشر بخير؟».

كانت تكذب طبعاً، تريد أن تطمئنني فقط. كنت بحثت عن معنى الحلم مراراً. عند الكل. سنة وشيعة وكلهم. شر طبعاً. معناه أنه غاضب لأني أفعل شيئاً يضر بأقاربه.

قالت لي: اسمع يا حيدر، الفاس وقع في الراس الآن، لن ينفع الآن أن نقول يا ليت كذا ويا ليت كذا، لا أرى أمامك غير أن تحتوي سارة وابنها.

«أنتِ من تقولين ذلك يا ميادة؟ تقيمين القيامة في كل مرة تخرج فيها مريم لتسهر».

«نعم ولكن الأمر مختلف جداً، لو أنك أقمت القيامة وقتها على أشياء أقل لما وصلنا إلى هنا، لكن لا مجال للوم والعتب الآن، ما حدث حدث، وهي ابنتك، وكلام الناس يذهب ويأتي، وابنتك تبقى ابنتك، وهي وحيدتك، لا حل غير أن تحتويها».

«كيف أحتويها؟ ماذا أفعل؟».

«غداً ليلة الكريسماس، تتصل فوراً بمحل زهور وهدايا وترسل لها باقة ورد وهدية، وإذا اتصلت بها هاتفياً وبـ (لوك) يكون أفضل».

«لماذا لا أجلب فرقة طبل ومزيقا[1] و«شايف خير»[2] إلى المستشفى أيضاً؟ هل جننت يا ميادة؟ ورد وهدايا وتهاني وتبريكات بمناسبة ولادتها بالحرام؟ ارحميني».

«بل ارحم نفسك أنت. هذا هو العقل. ما حدث حدث، ولن أقول لك إنك المسؤول عن هذا لأنك تعرف ذلك جيداً ولا أريد أن أزيد الأمر عليك، سارة

---

(١) مزيقا: موسيقى.

(٢) فرقة شايف خير هي الفرق الشعبية التي تحيي الزفة واحتفالات الختان أو الأفراح الصغيرة.

ليست مراهقة عمرها 15 سنة كي تنفع معها العقوبات، سارة شابة ومستقلة ومحامية، لا طريقة عندك غير أنك تحاول كسبها.. وكسب (لوك) أيضاً».

«مستحيل، لا أستطيع التفكير أصلاً بذلك، أفضل الموت قبل ذلك!».

«يا رجل! تفضل الموت قبل ذلك! أين كان «أبو خميس»[1] هذا عندما كانت سارة مراهقة؟ لماذا تجعلني أتكلم بما يزعجك؟ واجه الأمر. نحن أولاد اليوم. عليك أن تحتويها، وأفضل بادرة ستكون منك وأنت هنا في مكة، وفور ولادتها، ليس بعد أشهر عندما تقتنع بكلامي».

«مستحيل، لن يحدث».

«بل سيحدث يا حيدر، ومن الأفضل أن يحدث عاجلاً لا آجلاً، سيكون أثره أفضل وموقفك سيكون أقوى».

«كيف سيكون أقوى؟ أريدها أن تندم على الأقل.. أن تعتذر.. أن تتوسل».

«حيدر، هذه سارة، وليست شذى سالم[2] في مسلسل عراقي في السبعينات، لن تعتذر ولن تكترث، وحتى لو ندمت لن تظهر ذلك أبداً، موقفك الرافض سيجعلها أكثر عناداً، ولن يلين عنادها إلا إذا لان عنادك».

«صعب، صعب يا ميادة».

«توكل على الله ولن يكون صعباً، صحيح ماذا أنجبت؟».

«لماذا تسألين، ما الفرق الذي سيحدثه الجواب؟».

«ماذا أنجبت؟».

«صبي».

«أريد أن أقول الله يخليه وأخاف منك، وما اسمه؟».

«ما هذا السؤال؟ لا أعرف».

---

(١) أبو خميس: الرجل الشجاع الذي يهابه الجميع، والخميس من أسماء الأسد.

(٢) واحدة من أهم الممثلات العراقيات في فترة السبعينات والثمانينات.

«ما اسمه يا حيدر؟».

«رايان».

«رايان!!.. ألم تنتبه للرسالة في الاسم؟».

«أي رسالة؟ ماذا تقصدين؟».

«الاسم غربي ولكنه يعرب بسهولة.. ريّان، لقد اختارت هذا الاسم من أجلك، كي تقول إنها لم تتخل عنك وعن أصولك، هذه مبادرة منها، عليك أن تبادر الآن، الكرة في ملعبك».

«من أجلي؟! لماذا لم تطلق عليه اسماً عربياً إذا كان الأمر كذلك؟ لماذا لم تخبر أميلي أن تخبرني بهذا؟».

«لأن رأسها يابس مثل رأسك، أنا سأذهب للغداء، تحب أن آتي لك بشيء؟».

«لا. أريد أن أنام فقط، ربما أنزل لاحقاً».

أغلقت الستائر وحاولت أن أنام. لكن كلام ميادة بقي يتردد في ذهني. هل يعقل أن تكون سارة قد تعمدت أن تسمي بهذا الاسم لكي تترك طريقاً للعودة؟ هل سينفع أن أحاول احتواءها؟ هل سأتمكن من المحاولة أصلاً.

فكرت بهذا المنتحر. هل مصيبته أكبر أم مصيبتي أنا؟ هل هناك مصيبة أكبر من مصيبتي؟ هل هناك شخص يكره نفسه ويحتقرها الآن أكثر مني؟

نمت وأنا أدعو الله أن لا يأتي أبي في المنام.

أحمد 6

في اليوم الأربعين، أعلن التتار الأمان كما قال لنا البطريرك.

خرج بعض الناس من الكنيسة فور وصول الخبر، لكن أكثرهم انتظروا للتأكد.

خلال يومين خرج أغلب من في الكنيسة إلى دورهم وأحيائهم. خرج إسحاق أيضاً ليستطلع الأمر وعاد قبل الغروب، قال لي إن الناس ينقلون الجثث من الشوارع ويدفنونها في حفر كبيرة خارج السور، وإن بعض أكوام الجثث تحرق أولاً، لأنه لا يمكن الاقتراب منها بسبب الرائحة.

أخبرني أيضاً أن بعض الأحياء التي تكومت فيها الجثث قد أحرقت تماماً لصعوبة إخراج الجثث منها، وأن ما دفع التتار لإعلان الأمان هو الخوف من أن يفيض دجلة وينقل الوباء معه إلى مساره كاملاً، لذلك فهم يريدون تنظيف الأحياء المحاذية لدجلة على طرفي الكرخ والرصافة أولاً.

قال إسحاق أيضاً إن الحمامات في أحياء بغداد هي أول ما بدأ في العودة للعمل، وقف الناس أمام أبواب الحمامات متقاطرين منتظرين أدوارهم. تلك الأربعين يوماً التي مرت عليهم في القنوات والحفر والمطامير غيرت ملامحهم حتى لم يعد الرجل منهم يعرف أبناءه وأهل بيته، بدت المدينة كمقبرة كبيرة نبشت قبورها وأخرج موتاها وهم لا يعرف الواحد منهم الآخر.

قال إسحاق أيضاً إن المساجد عادت ترفع الأذان، وإنه سمع أذان الظهر من الجامع الكبير في سوق الثلاثاء، وإن كل الناس في السوق بكوا عندما سمعوه.

«من يُسير أمر الناس الآن؟». سألته وأنا أخشى أن يكون الوزير مؤيد الدين قد أصبح حاكماً لبغداد.

«قائد من قواد هولاكو، اسمه جو خان».

«يحكم بغداد شخص تتري وغير مسلم؟».

«هو صيني يا مولاي، ليس من التتار، ولكنه حليف لهم، ويقال إنه هو من أغرق جيش الدويدار في الأنبار، وهو من أحدث الثغرة في سور بغداد».

«ومؤيد الدين؟» سألته.

«أبقاه هولاكو في منصبه، وزيراً للخان، ابنه شرف الدين أيضاً في الديوان مع أبيه، كما أبقى صاحب الديوان في منصبه».

«فخر الدين أحمد بن الدامغاني؟! يتعاون مع التتار؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

«لم يكن متعاوناً معهم، لكن هولاكو قال إن من كان يأتمنه الخليفة سيأتمنه هو أيضاً، كان مؤيد الدين يريد أن يضره فلم يفلح، وكل من دخل داره يوم سقوط بغداد كان آمناً، أنقذ خلقاً كثيرين من القتل». قال إسحاق.

أكمل إسحاق «عماد الدين عمر بن محمد القزويني عين نائباً للأمير، ويقال إنه هو الذي سيعمر المساجد والأضرحة، عبد المنعم بن كامل البندنيجي، قاضي القضاة، أقر على منصبه أيضاً، كذلك حاجب باب الخليفة تاج الدين علي ابن الدوامي، عينه هولاكو عاملاً على الفرات».

«هؤلاء بقوا في مناصبهم تحت حكم التتار، واثق أنت مما تقول؟».

«نعم، مولاي، وغيرهم كثير. يقال إن شهاب الدين الزنجاني فقيه الشافعية وفخر الدين بن عبد الجليل الطهراني فقيه الحنفية كانا يسلمان الفقهاء الذين يختلفون معهم إلى التتار لقتلهم». قالها كما لو كان يروي خبراً عادياً.

«رباه، كل هؤلاء وثق بهم ابن أخي الغبي.. تعاونوا مع أعدائه، وتركني أنا عشر سنوات في السجن». قلت لنفسي أكثر مما قلت لإسحاق.

«هذا خبر الأنفس يا مولاي، هناك من سيؤيد المنتصر مهما كان».

«والناس يا إسحاق؟».

«ما بالهم سيدي؟».

«كيف يتعاملون مع كل ما حدث؟ ماذا يقولون؟».

«منذ أن اقتنعوا أنه ليس يوم القيامة، وهم يتشبثون بالحياة، يريدون أن يعيشوا فحسب، مروا بأربعين يوماً حالكة، ولا يزالون يمرون بأيام صعبة».

«ما الذي يقولونه عن بني العباس؟ هل يأملون عودتهم؟».

سكت إسحاق قليلاً ثم قال «هم يسبون الجميع، ويلومون الجميع الآن».

«كيف؟».

«يقولون لولا طيش المستعصم وضعف عزيمته ما كان التتار وصلوا إلى بغداد، يسبون الوزير مؤيد الدين ثم يتذكرون أن المستعصم هو من اتخذه وزيراً، فيسبونه أيضاً، ويسبون هولاكو وجنده وعماله ويدعون عليهم أيضاً، لكنهم يستدركون: ومن أوصلهم إلى هنا...».

«هل انتهى أمر بني العباس برأي الرعية يا إسحاق».

تنهد إسحاق وقال «مولاي، تلك الأيام...».

«ما بالها؟»

«نداولها بين الناس يا مولاي».

شعرت أني أسمع الآية لأول مرة في حياتي.

* * *

بعد أيام استدعانا البطريرك، قال لنا إن الطريق أصبح آمناً الآن، وبقاؤنا في الشماسية أصبح مثاراً للشك أكثر فيمن نكون.

قال لنا إنه فكر في الدير الذي سيكون آمناً لنا، فوجد أنه دير مار يونان في الأنبار على الفرات.

سأله إسحاق عن سبب الاختيار، فقال له إنه بعيد ولا يتوقع أن يعرف «صاحبنا» أحد هناك..

ثم قال «وهو سيكون أفضل لو أراد صاحبنا أن يذهب إلى الشام.. حيث قد يجد من يحميه هناك».

تبادلت وإسحاق النظر، لم يكن هناك أمامنا سوى الاتجاه غرباً. الموصل رضخت للتتار، وكل الشرق سقط بيده قبلها.

لا نعرف الوضع في الشام بعد، كل ما نعرفه هو ما يقوله البطريرك.. علينا أن نسبق وصول هولاكو لها.

قال إسحاق: مار يونان إذن.

أكمل البطريرك: نعم.. لكن عليَّ أن أجد من يصحبكما في هذه الرحلة، عليَّ أن أجد شخصاً معروفاً من أهل بغداد تضمنون حمايته لكم على الأقل لحين الوصول إلى مكان آمن، خروجكما الآن قد لا يكون مأموناً، قد يتعرف عليكما أي شخص ويخبر التتار، وهذا سيضرني كما يضركما.

سألت: هل هناك شخص في ذهنك نيافة البطريرك؟

قال: نعم، عالم شاب معروف، يبدو أنه استطاع أن ينشئ علاقة طيبة مع التتار، لكن في الوقت ذاته سمعت عنه ما يجعلني واثقاً من أنكما ستكونان بأمان معه.

- ماذا سمعت؟

لقد اشترى أطفال بيت بني العباس من التتار، كانوا يريدون أن يقتلوهم جميعاً، فعرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال واشتراهم منهم، وتكفل بتربيتهم وتنشئتهم.

سرت الرعشة في جسدي. أطفال بيت بني العباس يباعون ويشترون.

سأل إسحاق: من هو؟

- هو شمس الدين الكوفي.

لم أكن أعرف من يكون.

قال إسحاق: شمس الدين المدرس في مدرسة التتشية وخطيب جامع السلطان؟

رد البطريرك: هو بعينه. لا أشك أنه سيكون أميناً معكما ويوصلكما إلى دير مار يونان.. أو إلى مكان أمين يختاره هو ويراه أكثر مناسبة لكما.

* * *

في مطلع شهر ربيع الآخر لسنة ستمائة وست وخمسين هجرية خرجنا من الشماسية.

وصل شمس الدين الكوفي قبل خروجنا بيوم وبات معنا ليلة في الدير. جاء على فرسه، وجلب معه فرسين آخرين لنا.

كان يملك سمت الوعاظ، هادئ ووقور، في الأربعين من العمر لكنه يبدو أكبر من ذلك.. على ملامحه الرقة والزهد، سمرته عربية أصيلة، متوسط الطول، لم يتحدث كثيراً، سلم عليَّ قائلاً: مولاي، ونظر في وجهي متفرساً ثم قال: تشبه أخيك سيدي الخليفة المستنصر أكثر مما يشبهه ابنه المستعصم - رحمهما الله وأحسن مثواهما -، وجعلك على سيرة ودرب الأرشد منهما.

قلت وإسحاق: آمين.

ملأني كلامه بأمل لم يزرني منذ مدة بعيدة.

في تلك الليلة الأخيرة في الدير، أقام شمس الدين الليل وهو يصلي بصوت خافت كي لا يسمعه أحد، كنت أسمعه يبكي طيلة الوقت في صلاته. ثم دعا وأطال في الدعاء وهو يبكي. لم أكن أميز ما يقول في دعائه جيداً.

كلمة واحدة فقط كانت واضحة في نشيجه: بغداد.

ذلك الأمل الذي زرعه فيَّ شمس الدين لم يدم طويلاً، عندما أخذنا الطريق إلى بغداد.

مررنا بأحياء بغداد في الرصافة، ثم عبرنا دجلة صوب الكرخ.

كانت هذه أول مرة أرى بغداد في وضح النهار منذ أكثر من عشر سنوات. لم أكن أعرف هذه المدينة. كنت أعرف بغداد أخرى. هالني ما رأيت. أصابني منظر قصر الخلد المحترق وأبواب قصر الذهب المهدمة بالذهول، أهكذا ينتهي العز والمجد اللذان أوهمتنا عقولنا أنهما لا ينتهيان؟

مررنا بأحياء الكرخ الشمالية، الخوارزمية وباب الشعير والحربية، هالتني عودة الحياة إليها أكثر من مشاهد الموت في قصر الخلد وقصر الذهب. الناس يرممون البيوت ويفتحون الأسواق، رأيت البعض يضحكون ويتحدثون فيما بينهم كما لو أن شيئاً لم يحدث.. أهكذا ينسى الناس أميرهم وخليفتهم بسرعة؟ أهكذا يُنسى بنو العباس؟

أهكذا تنسى المدينة من بناها؟

كان هذا أشد وطأة من كل ما مضى. هذه كانت النهاية الحقيقية.

بدت فكرة الابتعاد إلى دير بعيد عن بغداد مواتية لي. لا أستطيع أن أرى هذه المدينة التي لم أعد أعرفها.

ألقيت نظرة على بغداد ونحن نغادرها.. وقلت لنفسي: ليس مثلك يا بغداد[1].

(١)جزء من مثل معروف في العصر العباسي: الدنيا هي البصرة، وليس مثلك يا بغداد، ويعني أنه مهما كانت هناك مدن جميلة، فبغداد هي الأجمل.

ميادة 8

اتصلت بأميلي وباركت لها على ولادة سارة بالسلامة وسلامة طفلها. تصرفت كما لو أن الموضوع طبيعي تماماً، تفاجأت هي بالاتصال ولكنها ذكية ولماحة وتقدر مواقف كهذه. أميلي في نواحٍ كثيرة أفضل من حيدر، هي على الأقل تتصرف بروية وتحسب حساباً لكلِّ شيء. حيدر يتصرف في أحيان كثيرة باندفاع كبير ودون حساب للنتائج.

سألتها بشكل بدا طبيعياً عن طبيعة الولادة وأين أنجبت وإن كانت سارة في البيت أو في المستشفى، فقالت إنها لا تزال في مستشفى سانت ماري في مانشستر، وستبقى لمدة يومين آخرين، لأن ولادتها كانت عبر عملية قيصرية.

فور انتهاء المكالمة قمت بالدخول على مواقع شراء وتوصيل الورود في مانشستر، اخترت باقة ورد صفراء اللون، لا أحب الورد الأصفر كثيراً، أفضل عليه الأحمر والأبيض، ولكن قرأت أن الورد الأصفر يعني الاعتذار والمغفرة، كان سعر التوصيل عالياً جداً بسبب الكريسماس لكن لا بأس، الرسالة المرفقة كانت: مع حبي غير المشروط، أبوك.

سيغضب لو علم وسيسب ويشتم ويتوعد، لكن لاحقاً سيهدأ ويعتذر بطريقته: أن يتصرف كما لو أن شيئاً لم يكن. كنت مقتنعة تماماً أن هذا هو ما يجب أن يحدث، وأكثر من هذا أيضاً. لم أكن أريد أن أتورط في شراء هدية أكبر لسارة الآن حيث قد يبدو الأمر مريباً، بينما باقة الورد أثناء السفر ستكون لفتة طبيعية وستتقبلها سارة بشكل إيجابي حتماً. وإن لم تفعل - وهو احتمال ضئيل - فإن حيدر سيقلب الدنيا على رأسي.. ولكنه سيفعل ذلك بكل الأحوال، حتى لو تقبلت سارة الأمر.

الساعات التي قضيتها وأنا قلقة على حيدر، خاصة الساعة التي اعتقدت فيها أنه هو المنتحر، جعلتني أصل إلى هذه القناعة، إلى أن حيدر عليه أن يتقبل ما حدث وأن يحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه بعد تقبله لما حدث. عليه أن يكسب سارة ولوك، سارة عنيدة والأمر لن يكون سهلاً لو أصر حيدر على عناده، لكن لو تظاهر حيدر أنه متقبل لما فعلته، متقبل لها دون شروط، فإنها ستلين، ربما ستعتبره كاذباً مخادعاً، لكن لا بأس، التظاهر بالحب والقبول ليس جريمة. الخطة الحقيقية يجب أن تتوجه إلى لوك، على حيدر أن يكسبه، بالسلوك الحسن، بإشعاره أنه جزء من العائلة، وأيضاً بالمال. حيدر لا ينقصه المال أبداً، ويمكنه أن يساعد سارة ولوك وهما في بداية حياتهما. يمكنه أن يشتري بيتاً لهما. أعتقد أن لوك لن يمانع في أن يحفظ الفاتحة ويقول الشهادة مقابل بيت. بل ربما سيفعل ذلك مقابل ما هو أقل بكثير: سيارة مثلاً. مع البيت سيكون لوك مستعداً لتلاوة الشهادتين ومعهما الشهادة الثالثة بصوت عالٍ ويصبح من أنصار أهل البيت سلام الله عليهم. في البداية سيكون تمثيلاً، ولكن لا بأس، تمثيل سيحفظ ماء وجه حيدر أمام الجالية، ويجد ما يقوله لربه يوم الحساب، وربما أيضاً سيؤمن لوك بالفعل لاحقاً، وسيأخذ حيدر المكانة العالية عند الجالية لأنه رضي بالأسود الذي تشيع وصار من أنصار أهل البيت.

حيدر رأسه ناشف، كلنا كذلك، حتى ميثم رحمه الله كان كذلك، ورثنا هذا الرأس من سعاد الدباغ، أبي كان أكثر ليونة ولطفاً، التجارة جعلته كذلك على الأقل، يعرف أنه لا بد من تقديم التنازلات والمساومات للوصول إلى حل يرضيه ويرضي الزبون. سعاد الدباغ مديرة مدرسة تسير حسب تعليمات وزارة التربية بالحرف. كانت شديدة جداً، لم تحصل على لقب «هولاكو» من فراغ على الإطلاق، والأهم من ذلك أنها كانت سعيدة سراً باللقب. هولاكو كان منتصراً بعد كل شيء. المهم تنفيذ التعليمات. أي خروج عن النص يجب أن يكون تحت الطاولة ولظروف مشددة جداً. الخطأ غير وارد، والاعتراف

بالخطأ خطيئة أكبر من الخطأ الأول، لذا فالاعتذار غير وارد، لأنه يسيء إلى الهيبة والمكانة.

ورثت هذا وحملته معي، ثم تعلمت بأصعب الطرق أن ذلك قد يجعلنا ندفع أثماناً باهظة نقضي بقية حياتنا ونحن نسدد أقساطها.

ها أنا اليوم أحاول أن أجمع شتات الكلمات وقطرات الماء في وجهي لأقف أمام سعد وأعتذر منه عن شيء قلته قبل اثني عشر عاماً. كنت أعرف أني مخطئة في اللحظة التي نطقت بها الكلمات. ندمت فوراً. ولكن لم أستطع التراجع. ذهبت إلى بيتي وأغلقت بابي. كان الأمر أسهل لو أني خرجت بعد ساعة مثلاً وبكيت واعتذرت لهم جميعاً. بعد ساعتين أصبح أصعب. وبعد يوم أصبح أصعب.

وعندما حدث ما حدث وكررت نفس الكلام أصبح أصعب. وبعد اثني عشر عاماً يبدو مثل جبل من الصعوبات لا مفر من مواجهته. لكن سعاد الدباغ التي في داخلي تعلمت الكثير في هذه السنوات، أظنها الآن ستتنازل عن لقب هولاكو.

* * *

عندما كنت أبحث عن عمر، بين المستشفيات وثلاجات الموتى، كان لديَّ أمل أني سأجده عندما أعود إلى البيت. أن أرجع لأجده يضحك مني ومن جنوني ومن قلقي. كنت أقول لعلهم لم يتصلوا بي ليخبروني بعودته لكي يجعلوها مفاجأة لي. دخلت البيت راكضة يومها، لعلي أجده بانتظاري. لم يكن هناك طبعاً.

في اليوم التالي، عندما أعلنوا منع التجول، حرمت حتى من هذا الأمل. فقدت الجنين الذي كان في أحشائي، وكان دمه لا يزال ينزف بتقطع، كما لو ليذكرني بفقدانه. وكنت أفقد عمر أيضاً. كل ساعة كانت تمر كانت تقول لي عندما تودعني أنه قد ذهب كما تذهب هي، إلى غير رجعة.

انفجرت يومها. جننت. قلت لأمه وأبيه في وجهيهما «أنتما السبب، لو حدث شيء لعمر فأنتما السبب، حجزنا وكنا سنسافر، لكنه بقي هنا ليرعاكما، أنتما السبب، أنتما قتلتما عمر، أنتما القتلة، لن أسامحكما، لن أجعل مريم تسامحكما لأنكما يتمتموها.. أنتما القتلة».

كنت مجنونة. قلت كل هذا قبل أن نعرف بموت عمر أصلاً. اتهمتهما بقتل ابنهما لأنه بقي ليرعاهما.

قلت أيضاً إنهما جنيا عليه لأنهما أسمياه عمر في بلد يعج بالطائفية. رغم أن الأمر لم يكن كذلك عندما وُلد عمر قبل أكثر من أربعين عاماً. وقلت أيضاً إنه ربما القاعدة قتلت عمر لأنه تزوج من شيعية. كنت أتحدث عن قتله كما لو أنه قد حدث فعلاً. لا شك أنهم تشاءموا كثيراً من هذا.

قلت لهم إنهم لم يحبوني يوماً، وإنه يمكنهم أن يرتاحوا الآن وقد عوقب عمر على زواجه مني.

ثم قلت هذا الذي لا أصدق كيف قلته: قلت إن (سعدًا) هو الذي كان يجب أن يختطف بدل عمر. سعد الفاشل، سعد «العقيم» هو الذي يجب أن يموت، وليس عمر الذي لديه طفلة.

«سعد الفاشل، سعد العقيم» هكذا قلت، كما لو كانت الكلمة خنجراً أطعنهم جميعاً به، بلؤم من لم يجد شخصاً آخر ليطعنه، لكنه يريد أن يطعن فحسب.

لم أنس يوماً ما قلته. لم أنس النظرة على وجه سعد. لقد عايرته بعقمه. في اللحظة التي قلت فيها هذا جاءني شعور أن الله سيرد لي الكلمة بمريم. ندمت فوراً. ولكن.. كنت أضعف وأجبن من أن أعتذر. كنت قادرة على أن أقول أشياء بهذه الحقارة، لكن الاعتذار لم يكن ضمن قدرتي.

حاولت سوسن تهدئتي. سوسن المسكينة التي لم أر منها إلا كل خير. لكني كنت في نوبة جنون لا تحتمل أي نصائح، قالت لي أن أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فقلت لها: إذن عليَّ أن أتعوذ منكِ يا وجه الشر والشؤم.

هكذا قلت لها. لم أكن أعرف أني أختزن كل هذا الشر في داخلي إلى تلك اللحظة. هل رؤية كل تلك الجثث هي التي وضعت كل هذا الشر في داخلي.. أم أنها أخرجته فقط؟ هل كنت شريرة فعلاً لهذه الدرجة أم أن خوفي على عمر هو الذي جعلني شريرة في تلك اللحظة؟

سوسن.. أين هي الآن لكي أعتذر منها؟

* * *

وعندما عدت ومعي جثمان عمر، أعدت كل ما قلته. قلته من جديد. لا أذكر الكثير مما حدث ولا أذكر كل ما قلت، لكني متأكدة أني تفوهت بأشياء مماثلة. ربما أكثر وربما أقل. متأكدة على الأقل أني اتهمتهم بأنهم السبب في مقتله.

والآن عليَّ أن أعتذر.

* * *

انتبهت على صوت حيدر وهو يقول لي: هل أخبرتِ سعداً بشيء عن سارة؟ سعد يعاملني على نحو مختلف كما لو أني مريض ويجب مراعاتي.

سعد سيفضحنا. نسيت أن أنبهه أن لا يقول شيئاً. لكن هل هذا شيء يحتاج إلى تنبيه؟

قلت: لا طبعاً، هل يعقل أن أفعل ذلك؟ هو يتصرف هكذا مع الجميع. دعك منه.

فضحتُ (حيدر وسارة) بغبائي وتسرعي، كنت أقول لحيدر أن يخفض صوته كي لا يسمع سعد شيئاً في الغرفة المجاورة، وتبرعت أنا بعد ساعات برواية كل التفاصيل. حيدر سيرمي بي من النافذة لو علم بالأمر. سيتصورون أني انتحرت ويقولون ما قصة الانتحار في الحرم هذه الأيام. أنا شخصياً لن

ألومه لو فعل هذا بي. ليس أمامي سوى ألا يعلم حيدر بأي شكل من الأشكال بفعلتي السوداء.

ثم انتبهت إلى أن فعلتي السوداء غير المقصودة، يمكن أن تسهل لي مهمتي مع سعد.

لمعت الفكرة في ذهني. الحمد لله مسبب الأسباب. لم أقصد فضح سارة، لكن الأمر قد يسير لصالح مريم.

سعد 8

أبي ليس بخير. ساورني شعور أني ربما أكون قد تسرعت بجلبه إلى العمرة. لقاؤه بمريم شوشه جداً. جموع الناس في مكة أيضاً شوشته. عندما وصلنا الكعبة أول مرة قال لي إن هذا بيت أبيه في محلة نجيب باشا، ثم قال لي إن المكان ربما يكون مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وقال شيئاً عن المقبرة الملكية حيث دفن الملك فيصل الأول في الأعظمية.

بعد لقائه بمريم، أصبح ساهماً طيلة الوقت، وأصبح يتحدث في نومه، يقول شيئاً عن عمر، استيقظت لأجده يبحث عن شيء في الحقائب والدولاب، سألته عم يبحث فلم يرد، وعندما حاولت مساعدته نهرني، ثم اكتشفت أن عينيه كانتا تدمعان.

صباحاً وجدته قد كتب أبياتاً من الشعر على دفتر ملاحظات الفندق، كان خطه لا يزال جميلاً منمقاً كما كان من قبل، لولا أثر ارتجاف يده الذي زاد الخط مهابة.

عندي لأجل فراقكم آلام

فإلام أعذل فيكم وأُلام؟

من كان مثلي للحبيب مفارقاً

لا تعذلوه فالكلام كِلام

فكرت: ما الذي جعل أبي يستحضر قصيدة غزلية الآن غير أنه مشوش تماماً بكل ما يحدث حوله. الانتقال من مكان إلى مكان آخر ساهم في ذلك بالتأكيد. لم ينم في مكان آخر غير بيتنا منذ أن بني البيت في السبعينيات، أي منذ أربعين عاماً، ربما سافر في السبعينيات لكن آخر سفرة له كانت قبل

حرب إيران، أي أنه لم ينم في مكان آخر منذ 1980 على الأقل. وجود مريم وشبه عينيها بعيني عمر زاد من تشوشه أيضاً، ضغط ذلك على عصب معين في ذاكرته. لا أريد لهذا أن يستمر. لا أريد أن يزيد انفعاله ويؤثر على كل شيء.

شاهدت ميادة في بهو الفندق بعد عودتي من صلاة العصر، قالت لي إنها تعتقد أن عمرتها اليوم لم تكن محسوبة لأنها كانت مشوشة جداً بسبب حيدر. عمرتها كانت مهداة لعمر لذا فإنها ستعيدها الآن. تريد أيضاً أن تقوم بعمرة لميثم وأبيها لاحقاً، وتخشى أن يدركها الوقت. قالت لي إنها تريد أن تحدثني بأمر هام بعد صلاة العشاء، ثم قالت: إياك أن تأتي بذكر سارة وموضوعها أمام حيدر، إلا إذا كنت تريد أن تتخلص مني.

قلت لها مازحاً: هل تقصدين أن فرصة انتقامي منك أصبحت سانحة؟ أخيراً. أحمدك يا رب.

ردت فوراً: نسيت أن أخبرك أنك لن تفرح بي. سيقتلك قبلي.

* * *

مساء اتصل الحجي ثامر وهو يكاد يصرخ في الهاتف، يريد جوازي وجواز أبي وحالاً.

«ما الأمر يا حجي؟».

«مصيبة يا أستاذ سعد مصيبة، تعال للفندق الآن ومعك الجوازات».

عادة كان يناديني «أبو سعود»، ما دمت الآن «الأستاذ سعد» فهناك مصيبة فعلاً.

كان الحجي ثامر والحملة المرافقة له يقيمون في فندق في شارع أجياد المؤدي إلى الحرم. هرولت راكضاً ومعي جوازي وجواز أبي وأنا أضرب أخماساً بأسداس، هل اكتشف العقد الذي مررناه؟ لكنه في الخزنة في الجناح. أنتظر

فرصة مناسبة لكي أعطيه لمريم. هل في إقامتنا في فندق غير فندق الحملة المسجلين فيها مخالفة لقوانين تنظيم الحملات؟ مائة فكرة لمصيبة وكارثة جاءت في بالي، وصولاً إلى أن يكون والدي مطلوباً في الإنتربول بسبب رتبته العسكرية العالية أو بسبب تشابه في الأسماء. جزء من كوني عراقياً هو أن أتوقع الأسوأ دائماً.

وصلت الفندق ووجدت الحجي ثامر في البهو وهو منهار حرفياً وصوته يصم الآذان وهو يتحدث على الهاتف ويوجه تعليمات لمساعديه عمار وفاضل وينثر رذاذ لعابه يميناً وشمالاً. أشار إلى فاضل فوراً أن يأخذ الجوازين مني، أعطيت الجوازين لفاضل وأنا أحمد الله أنه لا توجد شرطة ولا إنتربول في انتظاري. قال لي فاضل: سنضطر لحجز غرفة لك وللوالد هنا في الفندق، لست مضطراً لأن تنزل هنا ولكن فقط حجز احتياطي.

هذا يعني مزيداً من النقود. لا بأس. أفضل من الإنتربول. لكن ماذا حدث؟

«ألم تعرف؟ من الصباح ونحن غرقى في قصة الحاج المنتحر».

«لماذا؟ ما هي علاقتكم بالأمر؟».

«كيف ما هي علاقتنا. الرجل معنا بالحملة. والآن تحقيق وشرطة وعلينا أن نثبت أننا لم نكن نعلم أن الرجل مريض نفسياً».

كان عراقياً إذن كما سمعنا في مركز الشرطة.

«هل هو مريض نفسي فعلا؟».

«أمه وأخوه معه في العمرة، يقولان إنه فقد ابنه قبل سنتين، ومن يومها وهو في وضع سيئ، لم يتركوا إماماً أو مقاماً أو ولياً إلا وزاروه وقدموا له النذور، ولم ينفع. أخيراً قال شيخ لهم إن علاجه بزيارة بيت الله الحرام، فجاؤوا به على أمل الشفاء. لكن كما ترى. تريد غرفتك على الشارع أم لا مشكلة إن كانت خلفية؟».

«كيف فقد ابنه؟».

«تفجير الكرادة، مجمع الليث التجاري[1]».

تذكرت تلك الليلة، قبل عيد الفطر بأيام، والمجمع التجاري مزدحم بالمتبضعين لشراء ملابس العيد، وانتحاري يفجر سيارته في مدخل المجمع، والحريق يلتهم كل من نجا من الانفجار، أكثر من 300 قتيل يومها.

تبرع أحد الواقفين بالمزيد من المعلومات: أمه تقول إن الولد عمره 14 سنة وجاء بعد أربع بنات، احترق تماماً ولم يعرفوا جثته إلا عبر أظفر مكسور في قدمه.

لا حول ولا قوة إلا بالله. لم هذه التفاصيل؟ هل يريد أن ينتحر شخص آخر؟

سألت عن عمر المنتحر، فقال لي فاضل إنه في أواخر أربعينياته. كان في عمري تقريباً. وابنه الذي توفي قبل سنتين كان عمره 14 عاماً. أي أنه ولد قبل 16 سنة، بعد أربع بنات.

في تلك الفترة تقريباً كنت قد أوقفت كل محاولاتي للعلاج. انتهى. طويت الصفحة. أو على الأقل أعلنت يأسي.

في نفس الفترة رزق هذا الرجل بذكر، بعد أربع بنات. ثم فقده بهذه الطريقة الشنيعة بعد 14 عاماً. واليوم ينتحر.

من منا الأتعس؟ أنا الذي حرمت من طفل، أم هو الذي أُخذ منه بعمر الـ 14؟ أستغفر الله. لا اعتراض على حكمك يا رب. لكن من الذي كان امتحانه أصعب؟ أنا، أم هو؟

أُذن لصلاة العشاء. أخذت حكاية المنتحر معي إلى الحرم. أقيمت الصلاة وأنا لا أزال في شارع أجياد. وقفنا نصلي في الشارع. قرأ الإمام من سورة يوسف. يعقوب ابيضت عيناه من الحزن على فقدانه ليوسف. وانفجرت

(١) تفجير انتحاري في مجمع تجاري مزدحم في الكرادة ببغداد بتاريخ ٣ يوليو ٢٠١٦.

أبكي. بكيت أطفالاً ما كان يمكن لي أن أنجبهم لأني ببساطة لا أنتج حيامن قادرة على أن تخصب بويضة امرأة ما لتكبر وتصير أطفالاً.

بكيت كل الأطفال الذين لم أنجبهم. وكل البويضات التي ضاعت هدراً من سوسن. وكل الأطفال الذين كان يمكن أن أنجبهم لو كان امتحاني أسهل قليلاً. وبكيت هذا الأب المنتحر، وابنه ابن الرابعة عشرة الذي استشهد في انفجار عبثي. أحسست أني أعرفه، كما لو أني كنت هو في (عالم موازٍ). كما لو أني كنت هو عندما يكون امتحاني أصعب. نعم أصعب.

بكيت على الرجل المنتحر بحرارة. بدلاً من أن يأخذوه إلى طبيب نفسي يعطيه أدوية تخفف صدمته واكتئابه أخذوه إلى المراقد والأئمة. وعندما لم يتغير شيء قالوا له إن المشكلة في إيمانه. أقنعوه أن عليه أن يؤمن أكثر كي يحدث مفعول لزيارة المراقد والأئمة. لكنه لم يعرف كيف يؤمن أكثر. لعل ذلك زاد من اكتئابه. ثم أقنعهم أحد أن الحل في زيارة الكعبة. ولعله علق آمالاً كبيرة على ذلك. تخيل أن كل شيء سيزول بمجرد رؤيتها. سيزول عنه همه وغمه ويتقبل حقيقة ان ابنه احترق حتى زالت ملامحه. إظفر قدمه المكسور هو كل ما ميزه. لكن لم يحدث شيء عندما رأى الكعبة. يوم ويومان وثلاثة.. ولم يحدث شيء. وجد نفسه في الطابق العلوي. فكر أن كل عذابه سينتهي لو ألقى بنفسه من هذا المكان. ربما فكر أن قدسية المكان قد تجعل منه شهيداً أو شيئاً كهذا. في لحظات سوداء لم يكن يرى فيها شيئاً غير عذابه بفقدان ابنه، تسلق السياج وألقى بنفسه.

بكيته كثيراً. وأثَّر بكائي على من حولي وتذكروا أوجاعهم وأحزانهم، فبكوا أيضاً. تحول صف الصلاة في شارع أجياد إلى صف بكاء من جنسيات مختلفة، تعددت الجنسيات وتعددت أسباب البكاء، لكن الدموع في النهاية كانت واحدة.

عندما انتهت الصلاة قال الإمام «الصلاة على الميت»، أكثر المصلين حولي انفضوا، تقدمت أكثر لألتحق بمن بقي للصلاة. لم أعرف إن كانت

الصلاة على هذا الشخص أو على متوفٍ آخر، لكن دعوت له بالمغفرة والعفو.

عدت إلى الفندق منهكاً مستهلكاً، شعرت أن ضغطي مرتفع ورأسي يكاد ينفجر. كان الخادم الخاص مع أبي، دققت على غرفة ميادة ولكن لم يرد أحد. لعلها لم ترجع من عمرتها بعد. طلبت عشاء لوالدي فقط وصرفت الخادم.

قال لي أبي: عندما يأتي عمر عليه أن يفحصك، لا تبدو بخير. ربما يكتب لك مقويات أو فيتامينات.

قلت له: نعم، لست بخير. لكن عمر لن يأتي.

رد: لماذا لن يأتي؟ هل هو مشغول؟

قلت باستسلام: نعم لديه خفارة في المستشفى.

رد بعد تفكير: لكنه كان هنا قبل قليل. هو الذي صلح التلفاز.

قلت لنفسي: هذا أفضل بالتأكيد من أن يبحث في الحقائب والدولاب عن شيء لا يجده. نعم أبي، خرج عمر من خفارته وجاء ليصلح التلفاز ثم عاد إلى مرضاه.

هز أبي رأسه متفهماً: ولكن عليك أن تجعله يفحصك عندما يأتي.

قلت إن شاء الله، كنت أبحث عن شريط البانادول ولمحت على الطاولة دفتر ملاحظات الفندق مفتوحاً على الورقة التي كتب فيها أبي أبيات القصيدة أمس، لكنها زادت..

أضاف لها:

إن كنت مثلي للأحبة فاقداً

أو في فؤادك لوعة وغرام

قف في ديار الظاعنين ونادها

يا دار ما صنعت بك الأيام؟

بدا كما لو أنه يستذكر قصيدة بالتدريج، لم يسبق لي أن سمعته يذكر هذه الأبيات من قبل، لكنه كان يحب الشعر ويحفظ الكثير منه.

ما أن أنهيت إطعام أبي ووضعته في فراشه حتى طرقت ميادة الباب.

اعتذرت لأنها تأخرت في العمرة بسبب الزحام الشديد في الطواف. وطلبت أن تتحدث معي.

كنت على وشك الاعتذار منها وتأجيل الأمر للغد لكن تراجعت. جلسنا في صالة الجناح، ظهر ميادة للكعبة، وأنا أجلس أمامها بانتظار ما لديها ورأسي مثقل بالصداع وكل ما حدث اليوم. رجل ينتحر وابنة حيدر تنجب بالحرام وميادة تعتقد أن حيدر هو المنتحر ومجمع الليث التجاري. لو كتبت يومياتي عن أحداث اليوم لبدا الأمر مبالغاً فيه.

«حيدر، هل تذكر يوم الجمعة؟ الجمعة الذي تلى اختطاف عمر؟».

اكتملت أحداث اليوم على هذه الذكرى إذن.

«نعم يا ميادة أذكر. خير؟».

«يومها أعلنوا منع التجول، وانهرت أنا، كنت أريد أن أخرج لأبحث عن عمر، ولكن منع التجول حال دون ذلك، قلت أشياء حقيرة جداً، أشياء في منتهى الحقارة، لعمو ولخالة الله يرحمها، ولك ولسوسن أيضاً، لم أكن في وعيي، وكنت أعرف أني أخطأت جداً، ولكن.. لم أكن في حالة تسمح لي بمواجهتكم والاعتذار منكم جميعاً، وكلما تأخر الوقت صار أصعب، لكني لم أسامح نفسي كل هذه السنين، الآن في هذا المكان، في بيت الله، أريد منك أن تسامحني، أدعو الله أن تسامحني خالة أيضاً، عمو أنت أعرف بحاله، فقط أريد أن أعتذر وأن تسامحني».

«هل أنت جادة؟ من يومين وأنت تحاولين الاعتذار عن هذا؟!». سألتها.

«بالتأكيد جادة يا سعد، ربما لن تتصور كم أتعبني الأمر كل هذه السنين».

«عم تتحدثين يا ميادة؟ كان زوجك مختطفاً ولا نعرف عنه شيئاً في أسوأ الظروف التي مرت بها بغداد، وكنتِ قد فقدتِ جنيناً للتو، ولم تمر سنة على ما حدث لميثم، من يستطيع أن يلومك على ما تفوهتِ به في هذه الظروف؟ هل تعتقدين حقاً أن أياً منا قد أخذ كلامك على نحو يجعلك تعتذرين الآن بعد 12 سنة؟».

«أمك يا سعد ثقل لسانها من لحظتها، أعتقد أن كلامي قد أثر بها جداً، أعتقد أنها أصيبت بالجلطة ساعتها». قالت بعد تردد.

«أنتِ لا تعرفين شيئاً يا ميادة. أمي كانت تقول هذا الكلام قبل أن يختفي عمر. كانت تطلب منه أن يسافر، ولكنه كان يؤجل الأمر بعناد، بقيت تتحدث عن الأمر وألحت عليه، خاصة عندما قُتل صاحبه مصطفى. وقبل ذلك أيضاً.. وعندما لم يأت عمر، في ذلك الأربعاء، كانت تردد طول الوقت - ربما ليس أمامك - نحن السبب، نحن السبب، بقي من أجلنا، يوم الجمعة، وقبل أن تدخلي وتقولي ما قلتِه، كانت هي تقول الشيء ذاته بالضبط، أنها هي وأبي السبب، وكانت تقول إنها ستجبره على السفر فور أن ينتهي هذا الكابوس».

كانت ميادة تبكي بينما أنا أتحدث. أما أنا فقد فقدت قدرتي على البكاء. جفت دموعي تماماً. وكان رأسي يضربني بشدة. فور أن تذهب ميادة سأقيس ضغطي. أو ربما سآخذ حبة الضغط قبل أن أقيس الضغط أصلاً.

«أنا أعتذر عن كل شيء قلته يومها، وليس فقط ما قلته لخالة وعمو». قالت ميادة.

«تقصدين ما قلتِه لي أني عقيم وفاشل؟ وأنه كان يجب أن يأخذوني أنا بدلاً عن عمر؟ لماذا تعتذرين؟ أنا عقيم وفاشل يا ميادة، وكان يجب أن يأخذوني أنا بدلاً عنه».

قاطعتني: أرجوك سعد، لا تكرر ما أعتذر عنه.

رفعت صوتي لأسكتها: لم يمر يوم واحد يا ميادة، لم يمر ولا يوم واحد، طيلة هذه السنوات، دون أن أقول لنفسي هذا الذي تعتذرين عنه، أنا عقيم وفاشل، أنا الذي كان يجب أن يموت وليس عمر، ولم يمر يوم دون أن أستغفر الله على تفكيري بالاعتراض على قدره.. لم يمر يوم دون أن أفكر أن في عالم أكثر عدالة، كنت أنا سأموت بدلاً عن عمر، فلا تعتذري عن شيء أفكر فيه كل يوم.

كان لون ميادة قد تغير وهي تسمع ما أقول، قالت لي بصوت مختنق: أرجوك يا سعد لا تكرر هذا الكلام.

قلت لها: أرجوكِ أنتِ كُفي عن هذا الكلام.. لا شيء يدعو للاعتذار، وإذا كنت تريدين المسامحة فلا تقلقي.. محللة وموهوبة.. هل أجد لديك حبة بانادول؟ أشعر بصداع.

نهضت ميادة وهي تقول: لدي آدفل في حقيبتي، دقيقة..

وضعت يدي على جبهتي وأغمضت عيني. كان يوماً حافلاً جداً، انتهى بمواجهة لا داعي لها. هل يجب أن نقول بصوت مرتفع ما نفكر فيه مع أنفسنا طيلة الوقت. الأمر مؤلم أكثر عندما نسمعه بصوت عالٍ.

سمعت صوت ميادة يقول: علبة الآدفل. خذ اثنتين، ممكن أن تأخذها على معدة فارغة.. ولكن لو قست ضغطك يا سعد..

أزحت يدي عن جبهتي وفتحت عيني. الكعبة أمامي، تبدو متوهجة منيرة، الناس يطوفون حولها.. الحياة تسير رغم كل شيء، مهما توقعنا أنها تتوقف مع أزماتنا وكوارثنا.

قلت لها: سأفعل، شكراً لك، وشكراً أيضاً على تفكيرك بالاعتذار.

حيدر 8

قبل صلاة الظهر تسلمت رسالة لم أفهمها من أميلي. تقول: شكراً لك، لا يمكن أن تتخيل كم أسعدتني وأسعدت سارة. شكراً لك وميلاد سعيد.

هي ليلة الكريسماس إذن. لكن على ماذا تشكرني أميلي. كنت نسيت الأمر أصلاً. وماذا يمكن أن يكون قد فعلته ويُسعد سارة؟ هل تتهكم أميلي؟ هل تسخر من نسياني لتهنئتها بالكريسماس؟ لكن هذا يجب أن يحدث غداً. أنسى اليوم وتعاتبني غداً.

اتصلت بها لأفهم الأمر. صوتها يأتيني فرحاً: صباح الخير هايد، خفت أن أتصل أنا وتكون أنت في مكان لا يسمح لك بالرد، وصلت باقة الورد الرائعة قبل قليل، لا تتخيل كم أسعدت سارة، شكرًا لك حبيبي، سيكون هناك أثر كبير لهذه البادرة، كنت واثقة أن ذهابك إلى مكة سيجعلك تنظر للأمر بشكل مختلف.

«باقة الورد؟» لم أفهم.

سكتت أميلي لثوانٍ ثم قالت: نعم، باقة الورد من «الانترفلورا».

تداركت الأمر: نعم، نعم، لم أعتقد أنه سيصل بهذه السرعة، طلبت منهم أن تصل مساء، اللعنة، لا يمكن أبداً أن نثق بمواعيد العمل بعد الآن، لم يعد هناك إنجليز أصليون في أماكن العمل هذه.. وهذه هي النتيجة». كان عليَّ أن أقول أي شيء خارج الموضوع فقط لكي أبدو طبيعياً.

قالت أميلي: كُف عن عنصريتك البيضاء، لست في غرفة سارة الآن، لو كانت معي كانت ستشكرك بنفسها.

قلت: لا بأس، لا بأس، عليَّ أن أذهب الآن. نتحدث لاحقاً.

أغلقت الهاتف، أخذت نفساً عميقاً وصحت بأعلى صوت: مياااااااادة.

خرجت ميادة فزعة من غرفتها: هل جننت؟ ماذا حدث لك؟

أمسكت بها من كتفها: كيف تجروئين يا ميادة على هذه الفعلة؟ كيف تجروئين على أن تجعلي وجهي صغيراً هكذا أمام سارة وأميلي؟ «شايفتني زعطوط» وتتصرفين على راحتك؟

أبعدت ميادة يدي عن كتفها: عم تتحدث؟ لا أعرف عن أي شيء تتحدث. اتركني أريد أن ألحق طعام الإفطار.

«لا تعرفين عم أتحدث حقاً؟ وباقة الورد الحمراء التي أرسلت باسمي إلى سارة؟ من أرسلها؟ أمي؟».

«أولاً، لم تكن حمراء.. ثانياً.. ربما أمك هي التي أرسلتها فعلاً.. هل تحب أن نتصل بها الآن ونسألها؟».

«ميادة، لماذا فعلتِ ذلك؟ كيف تفعلين هذا دون أن تطلبي موافقتي؟».

«وهل كنت ستعطيني الموافقة على ذلك؟ طبعاً لا. لذلك لم أطلب موافقتك. عموماً لا تقلق، إن شئت أتصل بأميلي الآن وأعتذر لها وأقول لها إني بالخطأ وضعت اسمك بدلاً عن اسمي في البطاقة. وأكون أنا العمة الحنونة المتفهمة وأنت الأب الكريه».

«أريد أن أرميك من النافذة يا ميادة». قلت وأنا أضغط على أسناني غيظاً.

«توقعت ذلك وتأكدت أنها من النوع الذي لا يمكن أن يفتح بأكمله».

دق هاتف غرفتي فذهبت وأنا أقول لها: أنقذك الجرس. كانت موظفة خدمة الغرف تسألني عن شيء متعلق بملابس الإحرام التي أرسلتها للتنظيف.

أكملت المكالمة وكانت ميادة قد خرجت، سألت مريم: أين أمك؟

رفعت مريم عينيها من الجهاز اللوحي أمامها وقالت لي: قالت إنها ستنزل لتتزقنب[1]. ماذا حدث خالو؟

* * *

في المصعد بينما أذهب لصلاة الظهر ،وصلتني رسالة صوتية من سارة.

فتحتها فوراً. الحقيرة كان صوتها متعباً ولكن كان فرحاً. شكراً أبي. تعرف أن «ذلك» يعني العالم كله بالنسبة لي.

لا والله لا أعرف أن «ذلك» يعني العالم، بل أني لا أعرف ما هو «ذلك» تحديداً.

كنت غاضباً ومضطرباً ومصدوماً مما فعلته ميادة الحمقاء. كيف لها أن تتصرف على هذا النحو؟

بعد الصلاة وجدت نفسي أكثر هدوءاً. أعدت سماع الرسالة الصوتية. تمنيت لو أنها كانت في ظروف أخرى. لو أنها كانت تزوجت هذا السافل - ولو كان هذا السافل بلون أفتح قليلاً، ولو أنه أشهر إسلامه في الحسينية أمام أعين الجالية، لكنت في حال مختلفة تماماً.

لديَّ الكثير من الاستدراكات! كما قالت ميادة، كان يجب أن أبدأ بها قبل هذا الوقت بكثير.

أعدت سماع الرسالة الصوتية وأنا في طريقي إلى الفندق. مرة، مرتين، ثلاثة.

لن أنكر. بدأت ألين وأضعف تجاهها. ساقطة وحقيرة. لكنها ابنتي.

أمي تتصل. أهلاً أمي. لو تعرفين ماذا نخبئ أنا وميادة عنك. لا. لن نقول لأن ذلك قد يجلطك حرفياً. أمي تعاملني في أحوالها الاعتيادية كطفل

---

(١) الزقنبوت هو السم، ويقال عن الطعام الذي يؤكل عندما يكون الشخص مكدراً، المعنى هنا قريب من «أتسمم» الذي يقال في بعض البلدان العربية.

في العاشرة تخبره أن ينظر إلى الجهتين قبل أن يعبر الشارع. تقول لي إنها سمعت أن مكة هذه السنة باردة، لذا فهي توصيني بأن ألبس جيداً كي لا أبرد. أنا أعيش في مكان تهبط فيه درجة الحرارة إلى دون الصفر المئوي في هذه الفترة من السنة، وهي تعيش في مكان أبرد بكثير، ورغم ذلك فهي تقلق عليَّ من شتاء مكة. لا فائدة من النقاش. تطمئن إن كنت آكل جيداً. وتشكو من ميادة لأنها لا تنقل كل أخباري. تقول لي إنها ستتصل لاحقاً بأميلي وسارة لتهنئهما بالكريسماس. إن شاء الله يا أمي.

علينا أن نحتوي موضوع أمي كما قالت ميادة. لا يجب لها أن تعرف أن سارة قد أنجبت بالحرام. ولا يجب أن يحدث هذا بالصدفة أيضاً. هي ستتصل اليوم بأميلي بشكل عادي، ولكن من يدري كيف تسير الأمور.

سأخبر أميلي أن تأخذ احتياطاتها.

يبدو أني سأحتاج لتعاون ميادة في موضوع أمي بكل الأحوال. لن أسيطر على الأمر وحدي.

سمعت الرسالة الصوتية مرة أخرى. ترددت طويلاً. ثم أرسلت قلباً أحمر.

ساقطة، لكنها ابنتي.

مريم 8

أردت لهذه الليلة أن تكون مميزة. هذا أول - وغالباً آخر - كريسماس أقضيه برفقة أهل أبي الذين تعرفت عليهم قبل أيام. هذا هو اليوم الثالث فقط، ولكني أشعر أني أعرف عمي وجدي منذ زمن طويل. العبارة كليشيه مستخدم جداً. لكني عرفتهما فعلاً في أول ست سنوات من عمري، ثم انقطعت عنهما اثنتي عشر عاماً، أكثر من ثلثي عمري، لكن غالباً بقي شيء في لا وعيي منهما. مثل ذلك العطر الذي يستخدمه جدي والذي أدركت منذ أول لحظة أني أعرفه من قبل. ومثل حضن عمي، ثمة شيء يحتويني فيه، ربما يعيدني إلى حضن أبي الذي لا أذكر أي شيء عنه في ذاكرتي الواعية، وربما هناك الكثير منه في لا وعيي.

هناك الكثير من تلك اللحظات التي يسمونها «ديجا فو» - رأيته من قبل - مع عمي وجدي. كما يحدث عندما نرى شيئاً ونشعر بغموض أننا مررنا به من قبل، ربما في حلم سابق، أو في طفولة بعيدة. لو كنت بوذية لقلت حياة سابقة. الكثير من الأشياء في مكة تحتوي على لحظات (الديجا فو) هذه. خاصة عند الكعبة. ثمة شعور غريب أنك كنت هنا سابقاً، وأنا أعرف تماماً أني لم أكن هنا في أي يوم من الأيام.

كنت أتحدث لنزرين أمس عن عمي وجدي، فسألتني: ماذا عن الهدف الأساسي في رحلتك؟ ماذا عن تصميم الحرم المكي؟

قلت لها إني أشعر أن المكان متوحد مع الناس فيه بطريقة لا يمكن فيها أن أفصل بين استكشافي لجدي وعمي واستكشافي للمكان. أشعر أن العلاقات الاجتماعية، وعلاقات القرابة هي مثل مادة البناء هنا، سابقة على التصميم

وأساسية في توجيهه. بالنسبة لي كان عمي وجدي عالماً مغلقاً لا أعرف عنه شيئاً غير تصوراتي المسبقة عنهما المبنية على ستيريو تايب شائع عن الشرقيين عموماً. منذ اللحظة الأولى عرفت أن لا شيء أبعد من ذلك في الحقيقة. وكلما تقربت أكثر أدركت ذلك أكثر.

الشيء ذاته مع عمارة الحرم، توقعت أني سأجد نمطاً معمارياً يمكن إعادة تشكيله وتغييره ليكون أكثر روحانية، لكني وجدت شيئاً مختلفاً تماماً، وجدت أن عبقرية المكان نابعة من شيء آخر غير ما تعودته عندما أرى بناء معمارياً مبدعاً، عبقرية المكان تنبعث من مكان آخر تماماً، لا أعرف كيف أحدده، ربما من قدسيته، أو من روحانيته، لا أعرف أصلاً كيف يمكنني استخدام هذه الكلمات في هذا السياق، لكنه عالم كان مغلقاً تماماً بالنسبة لي، مثل عالم عمي وجدي، وكنت أيضاً أحمل حكماً مسبقاً وستيريو تايب عن المكان، لكنه مختلف جداً عن كل ما سبق، ولا أعرف كيف أبرز هذا الاختلاف، كما لو كان يحتاج إلى لغة جديدة، أو أبجدية جديدة، تلك الشهقة التي خرجت مني أول مرة شاهدت الكعبة، وأنا في الطابق الثامن، كانت شهقة لا علاقة لها بي كمعمارية، كانت شهقة «إنسانية» لم أفهمها عندما خرجت مني. حاولت المعمارية التي في داخلي لاحقاً أن تعقلن الشهقة وتجد لها تفسيراً، ربما هناك أشياء في شكل المكعب وعلاقته بالدماغ البشري، لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير، تحتاج عبقرية هذا المكان وقدرته العجيبة على التأثير إلى دراسة مفصلة بالفعل. بالتأكيد لن تكفيني هذه الأيام في فهم المكان. لكنها كانت كافية جداً لكي أفهم أن الأمر لا علاقة له بتصوراتي المسبقة، وأن عبقريته قادمة من مكان آخر غير «التصميم».

سألتني نزرين بعد هذه المحاضرة الطويلة: ماذا سيكون تصميمك المقترح؟ كيف ستحولين كل هذا الكلام إلى «عمارة»؟

هذا هو التحدي الحقيقي الذي أحاول تجنب التفكير فيه. بينما أطلق المكان سراحي في فضاءاته اللا متناهية، فإن أجنحتي المعمارية تبدو كما

لو أنها قد قصت.لا أجرؤ على التفكير في تصميم بديل. أشعر كما لو أن أجنحتي أقل شأناً من أن تحلق في هذا الفضاء.

رغم هذا فقد كتبت عدة ملاحظات، فكرت أنها قد تزيد من تقريب المعاني للشعائر، شاشات رقمية عملاقة تزيح التشويش الذي يمكن أن يحدث بسبب المباني العملاقة، ترجع للمحيط بعضاً من بساطته، وتقربه من السماء، ربما تساعد حركة الغيوم في الشاشات على أن تكرس فكرة الطواف والدوران حول المركز، ربما الأعمدة في الحرم يمكن أن تكون متجهة نحو الكعبة في درجة ميلان معينة كما لو أنها تسجد.. في المسعى بين الصفا والمروة ربما يمكن للتصميم أن يرجع الإحساس بالسعي بين جبلين، لأن الإحساس في التصميم الحالي يجب أن يستحضر عبر المخيلة فقط، دون أن يساعد التصميم على ذلك.

بعيداً عن التصميم البديل كنت أخطط اليوم لشيء آخر أكسر من خلاله واحداً من مبادئي التي لم أعتقد أني سأكسرها هكذا بكل طواعية. سأعد مائدة الكريسماس، وستحتوي على الديك الرومي. أنا النباتية التي لا تقرب أي منتج حيواني، سأكسر هذا المبدأ، وأقدم ديكاً رومياً، مسكيناً ولا ذنب له، على عشاء الكريسماس الذي أعده للعائلة. الكريسماس الوحيد الذي يمكنني أن أقضيه مع جدي وعمي. قررت التضحية بمبادئي - وبالديك الرومي - من أجل العائلة. فاتحت أمي أولاً بإمكانية تقديم «البدائل الفيغان ويكون تغييراً أيضاً عما تعودوا أكله». لكن أمي قالت إن أي وجبة «نباتية» ستعامل في بغداد كإهانة - أو نكتة في أحسن الأحوال - «لا تسوينا فرجة» قالت لي بحسم. «المثل يقول إذا أطعمت فاشبع، إما أن تكون المائدة عامرة أو لا داعي لها أصلاً». قدمت رشوة لضميري بأني لن آكل ما يخالفه وإن كنت سأقدمه على المائدة.

كان لا بد من الحصول على صلصة التوت البري الأساسية على مائدة الكريسماس، والتي يبدو أنها غير شائعة في البلدان العربية. كيف يأكلون

الديك الرومي دون صلصة التوت البري؟ ولكن يبدو أن الديك الرومي ليس شائعاً جداً أيضاً. معهم حق، لكن ذلك يجب أن ينسحب على كل أنواع اللحوم أيضاً.

اتفقت مع مطعم الفندق على هذه المائدة الاستثنائية. ديك رومي، بطاطا مشوية، سباغيتي وترايفل، عليَّ أن أجلب صلصة التوت البري بنفسي، أو بدائل عنها في أسوأ الأحوال. كل شيء يجب أن يكون جاهزاً قرابة الثامنة مساءً.

كانت خطتي تتضمن أيضاً أن تكون هناك شجرة كريسماس عملاقة. لن يكون كريسماس إن لم تكن هناك شجرة الكريسماس. ولأني لم أتوقع وجود أشجار كريسماس في الأسواق هنا، قمت للتحضير للأمر عبر عارضة رقمية تتصل بجهازي اللوحي، ويمكن أن تعرض على الجدار ما أشاء من صور، وعلى نحو مجسم بأبعاد ثلاثية يجعلها أقرب ما يمكن إلى الحقيقة.

أخبرت أمي بخطتي، فطلبت مني أن أفعل كل ما بوسعي لأروح عن خالي بسبب الظروف التي يمر بها، ولم تنس أن تلقي عليَّ بمحاضرة جديدة تتعلق بما فعلته سارة وابتداء من أول علاقة لها.

«إياكِ أن تعتقدي أني سأتصرف على نفس النحو معك لو أخطأتِ واحد بالمائة من خطأ سارة». قالت لي.

«وما هو تصرفك معها الآن؟».

«أحاول تهدئة خالك وأنصحه باحتواء سارة وشراء لوك». قالت كما لو أن شراء لوك أمر طبيعي تماماً.

«شراء لوك؟ يا للعنصرية. لوك ليس عبداً كي يشتريه خالي!».

«أقصد شراء محبته يا هبلة.. أن يتقرب منه فيقنعه بالإيمان بالإسلام وبمؤسسة الزواج ويتزوج من سارة».

«يدفع له لكي يتزوج من سارة؟ هذه نصيحتك لخالي؟ هل هذا صحي أصلاً؟».

«صحي؟ وهل ما فعلته سارة صحي؟! لقد أنجبت منه! كيف يمكن أن يكون الأمر أكثر خطراً على الصحة من هذا».

«ولكن هذا زواج! كيف يمكن أن نتعامل معه هكذا؟!».

«لسنا كاثوليك، يمكن حدوث الطلاق بشكل أسهل، ويمكن لهما أن يوقعا وثيقة مخالصة مالية قبل الزواج بحيث لا يخسر أي منهما أي شيء، لو كان عند الحا في لوك أي شيء يخاف عليه».

«خالي تحدث عن وثيقة مخالصة بعد يوم واحد من إنجاب سارة؟».

«لا، ولا عنده فكرة. هذه خطتي، الآن يركز على احتواء سارة.. لاحقاً هناك تفاصيل يجب تنبيهه عليها».

أمي وضعت سيناريو لكل شيء.

«لا تفكري لحظة واحدة أني سأكون بهذه الأريحية لو صدر خطأ منك».

أعرف ذلك. لكني لن أتصرف هكذا. قد أخطئ. وهي تعرف هذا. لكن لا يمكن لي أن أصل إلى أن تكون اختياراتي خاطئة لهذه الدرجة. سأبقى ضمن حدود الخطأ الذي تقاطعني فيه بضعة أيام، ليس الخطأ الذي تقول معه «سودتي وجهي» و «يا ريت لو ميتة قبل هاليوم»، أمي زرعت في داخلي ألغاماً تنفجر لو كانت غير راضية عني. زرعت ألغاماً نفسية تطيح بشعوري بالأمان. جزء من تقييمي لذاتي أصبح مرتبطاً برضاها عني. بتقييمها لي. الأمر مَرَضيٌّ جداً. وهو مُرض لها أيضاً، لو كانت تعرفه. لكنها لا تعرفه. لم أخبرها عن هذه الألغام كي لا تتمادى أكثر في تحكمها، لأن لديها القابلية على التمادي دوماً. عدم معرفتها بالأمر يتيح لي بعض المساحة التي أستطيع أن أرد على تحكمها بي من خلالها.

قلت لأمي أني سأنزل لأبحث في الأسواق المجاورة عن صلصة التوت البري، فشككت في إمكانية وجودها، ثم قالت لي أن أجلب معها صلصة أخرى لأنه من المستبعد جداً أن يحب عمي وجدي صلصة التوت البري مع الديك الرومي. لماذا؟ سألتها مستغربة.

«التوت البري ليس شائعاً، لذلك لن تجدي صلصته بسهولة، اجلبي كاتشب أو مايونيز أو لبن رائب.. أو اجلبيها جميعاً».

هززت رأسي بيأس: كاتشب ومايونيز بدل صلصة التوت البري؟!

قالت: أقول لكِ، اطلبي أيضاً مندي دجاج، وكباب أيضاً، احتياطاً، العراقيون لا يحبونَ الديك الرومي أصلاً.

قلت بتعجب: مندي وكباب في الكريسماس؟!

فردت فوراً وهي تقلد تعجبي: وكريسماس في مكة؟!

أحمد 7

مساء وصلنا إلى المدائن نحو ستة فراسخ جنوب بغداد.

في الظلام بدت بقايا إيوان كسرى كئيبة وموحشة. تشاءمت كثيراً وأنا أطوف في المدينة التي تبدو اليوم كقرية صغيرة مهملة وقد كانت عاصمة الساسانيين ذات يوم، نظرت لها بجزع وفكرت: هل سيحل ببغداد ما حل بالمدائن؟ هل ستضحي أثراً يمر به المسافرون فيقولون كانت هنا عاصمة العباسيين؟

صلينا المغرب والعشاء في مسجد سلمان الفارسي، وسألنا عن خان يمكن المبيت فيه، فأشاروا لنا أن نبقى في المسجد إن شئنا.

بعد أن تهيأنا للنوم، وفرش إسحاق عباءته وعباءتي لننام عليهما.. جلس شمس الدين وأسند ظهره إلى جدار المسجد ثم قال: علينا أن نحدد الآن أين سنذهب.

نظرنا إليه أنا وإسحاق. كان صامتاً أغلب الطريق وينشد مع نفسه نغماً حزيناً.

«لا معنى في التوجه إلى دير مار يونان، أو إلى طريق الشام كله من الأساس».

قال شمس الدين وهو ينظر إليَّ.

«إذن إلى أين؟». سألته.

قال: اسمع يا ابن العم، ليس هناك من يريد أن تنجو هنا أكثر مني، تأكد من ذلك، فضل بني العباس عليَّ وعلى المسلمين يجبرني على أن أكون خادماً

أميناً لك إلى أن تصل إلى حيث يشاء الله، لذلك دعني أقول لك.. إذا كنت تريد مجرد الحماية، نعم، ربما تجد في الشام من يحميك، لكن إذا كنت تريد من ينصرك، من يحمل رايتك، من يعينك على استعادة ملكك وملك أجدادك، واستعادة بغداد، وإعادة الخلافة إلى حيث وضعها الله.. فطريقنا إذن ليس إلى الشام..

سحرتني الكلمات.. أما إسحاق فسأله: ما أمر الشام؟ هل لديك خبر من هناك لا نعلمه بعد؟

أطرق شمس الدين إلى الأرض لوهلة ثم نظر إليَّ بثبات: يقولون إن الناصر يوسف بن صلاح الدين الأيوبي قد طلب معاونة هولاكو في غزو مصر لطرد المماليك منها واستعادتها منهم..

أطرقت وأنا أفكر: ابن الناصر صلاح الدين يفعل هذا؟! وكنا نأمل أن يكون ظهيراً لنا في مواجهة التتار.

سأله إسحاق مرتاعاً: هل أنت واثق مما تقول يا شمس؟

قال شمس: لست واثقاً من أن الناصر يوسف طلب معاونة هولاكو في غزو مصر، لكن من المؤكد أنه أرسل رسلاً له في معسكره في خانقين، ومن المؤكد أيضاً أن هولاكو يجمع جيوشه في ديار بكر وآمد، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا للاتجاه إلى حلب.. سواء للتعاون مع الناصر يوسف أو للغدر به.

لو أن صاحب حلب الأيوبي تحالف مع هولاكو، أو أن هولاكو دخل الشام، ففي الحالتين لا معنى لذهابنا في دير في الطريق إلى الشام..

بقي إسحاق ساكتاً كما لو أنه قد أُسقط في يده.

«أين العزم إذن يا شمس؟». قلت عندما رأيت سكوت إسحاق.

قال شمس: يقول المثل.. إذا تركوك تحج، خذ طريق المدائن[1].

---

(١) من أمثال بغداد في العصر العباسي.

«الحج؟» غمغم إسحاق بصوت خفيض.

«نذهب إلى طريق الحج.. هولاكو لا يبدو مهتماً بغزو الجزيرة.. وبعض قبائل العرب هناك لديها ولاء لبني العباس.. وليس لها مصلحة في تحالف مع هولاكو».

«طريق الحج؟.. نذهب إلى الحلة ثم إلى الكوفة فالحيرة؟». سأل إسحاق.

«تماماً، وهذا لا يجعلكما معزولين عما يحدث، طريق الحج تنتقل فيه الأخبار، وهكذا ستعرفان ما يحدث عن تقدم التتار أو انكسارهم.. وكذلك تحددان من يمكن أن يكون نصيراً لكما».

«هل ترى من أحد يا شمس يمكن أن ينصرنا.. بعد ما سمعناه عن الناصر يوسف؟».

«نعم، لا أزال أرى.. سيف الدين قطز، قائد في جيش المماليك في مصر، شارك الملك الصالح في حملته ضد الفرنجة، ولا أخاله سيصالح التتار يوماً، فهم من هدموا المملكة الخوارزمية التي كان أميراً فيها، وقتلوا أسرته وباعوه مملوكاً في الشام.. بل إن اسم «قطز» جاء من تسمية التتار له.. «الكلب الشرس».. من شدته في مقاومتهم.. لديه ثأر يمكن التعويل عليه.. لكن لا بد من معرفة كيف ستسير الأمور في الشام».

كنت سمعت بقطز وانتصاراته على الفرنجة. لكن لم أعرف أن لديه هذا الثأر الكبير مع التتار.

«ولكن معرفة أين ستسير الأمور سيتطلب وقتاً». قال إسحاق.

«نعم، ولهذا أرى أن قبائل العرب هناك على طريق الحج يمكن أن تجيركما إلى أن تتبين الأمور.. وبعدها لن يكون صعباً وصولكما إلى مصر».

«هل ثمة قبيلة بعينها يا شمس؟ هل ستأخذنا إلى أحد تثق به؟». قلت بلهجة من يريد جواباً.

أمسك بيدي وقال: مولاي، لن تعرف أبداً كم سررت عندما علمت بنجاتك. لا يمكن لي أن أتركك في عرب الصحراء دون أن أثق بمن يجيرك.. أسأل الله أن يتقبل مني هذا.. وأن يجعلك سبباً في عودة الخلافة إلى بغداد».

سأله إسحاق: من يا شمس؟

رد: بنو مهارش، من عرب الحلة.

* * *

بعد يومين وقبل أن يتركنا مع بني مهارش، احتضنني شمس الدين وبكى طويلاً على كتفي.. ثم أعطاني لفافة مختومة.. وطلب مني أن لا أفتحها إلا عندما يبايعني الناس على الخلافة.

سألته: ماذا فيها؟

قال: أسأل الله أن يمكنك من تغيير ما كتبته فيها.

سعد 9

عندما هنأتني مريم اليوم بالكريسماس، ارتبكت، وقلت لها دون شعور مني «كل سنة وأنتِ بخير».

كنت نسيت أصلاً أن الاحتفال عادة يكون في ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، أي عملياً في الرابع والعشرين من الشهر.

فكرت أولاً أن التهنئة بالكريسماس أمر يجب أن لا يربكني كثيراً، إنها شيء تعودته مريم مثل «بحق يسوع» التي قالتها دون شعور عندما شاهدت الكعبة.

لكني فكرت أكثر، الأمر مختلف، «بحق يسوع» عبارة تلقائية تصدر بحكم التعود ضمن البيئة المحيطة، لا دلالة دينية فيها، وحتى لو كانت فيها دلالة، فهي دلالة عابرة.

لكن «ميري كريسماس» وبالطريقة التي قالتها مريم كانت مختلفة جداً. قالتها بفرح، فرحة بالكريسماس وفرحة لأنها أول من هنأني به. كان الكريسماس عيدها، جزء من تقاليدها وهويتها. لم يكن معناه دينياً، كنت واثقاً من ذلك، لكنه كان ثقافتها وأسلوب حياتها. قدرت أنها ربما لا تعرف بوجود خلاف كبير حول «جواز تهنئة المسيحيين بعيدهم» وأن هناك معارك تحدث على السوشيال ميديا بسبب هذا الأمر، أما أن يتبادل مسلمان التهنئة، فهذا ما لا خلاف عليه.

لم أكن أعير اهتماماً كبيراً لهذا الأمر. ماذا أفعل إذا رأيت جاري «أبو سلوان» في يوم عيده؟ أدير بوجهي إلى الجهة الأخرى وأتظاهر بأني أرد على مكالمة مهمة؟ ماذا أفعل إذا رأيت «الست كريمة» في أسواق «عبد الله الدليمي» وهي التي درستني في الابتدائية؟

كان الأمر بديهياً لا يحتاج إلى فتوى، ترى شخصاً تعرفه وتسلم عليه في الأحوال الطبيعية، كيف يمكن أن تتجاهل «يوم عيده»؟

كانت أمي تزور صديقتها «خالة فايقة» في عيدهم. لكن عيدهم كان في 6 كانون الثاني وليس 25 ديسمبر، خالة فايقة كانت أرثوذوكسية. كانت تأتي لنا بالبيض الملون في عيد الفصح. الله يرحمها. هناك معركة أخرى كبيرة حول الترحم عليها. لكن ما علينا. الله يرحمها. ماتت في أمريكا، سافرت في أولى سنوات الحصار إلى ابنها وابنتها هناك. قالت ابنتها لأمي إنها ماتت حنيناً إلى بغداد. لو بقيت في بغداد لماتت أيضاً من الحنين إليها، فبغداد التي عرفتها كانت قد غادرت أيضاً.

مريم لا فكرة لديها عن كل هذا. قالت لي «ميري كريسماس» بمنتهى الثقة عندما شاهدتها ونحن نخرج من الحرم بعد صلاة الفجر.

ميري كريسماس، بعد صلاة الفجر، في مكة.

سألتها: بكم عيد تحتفلون عندكم؟

كنت أريد أن أعرف إن كانت تعتبر الأعياد الأخرى «الإسلامية» أعيادا أيضاً.

سألتني: تقصد أيام العطلة الرسمية؟

-لا. أقصد عندما تحتفلون بالعيد في البيت.

- غير الكريسماس؟ عيد رمضان، والفصح. هناك عيد آخر.. نسيت اسمه.

- عيد الأضحى.

- نعم، العيد الذي تذبحون فيه الخراف! قالت مع علامات استنكار على وجهها.

لديها كل الأعياد إذن. وقالتها بتسلسل يشي بأنها لا تفرق كثيراً بينها. كريسماس ورمضان وعيد الفصح وأخيراً العيد الذي نسيت اسمه.

- ماذا تفعلون عادة في العيد؟

- الشيء ذاته كل مرة، عشاء عندنا أو في بيت خالي، تأتي أحياناً جدتي من السويد، ومعها زوجة خالي ميثم وأولاده. أيضاً هناك خال لأمي في لندن نذهب أحياناً لزيارته. تجمع عائلي. غالباً تحدث مشاجرة في هذه التجمعات، وهناك من يهدد بالمغادرة وهناك من يبكي.

- نعم، هذا تجمع عائلي عراقي «كلاسيكي»، سعيد بأنكم محافظون على تقاليدنا.

ضحكت مريم بسرور. كان ذهني في مكان آخر تماماً. مريم مزدوجة الهوية تماماً. اعتقدت دوماً أن ازدواج الهوية مساوٍ لفقدانها. لا أعرف الآن إن كانت مريم «فاقدة لهويتها»، أم أن هويتها هيَ في الجمع بين هذين العالمين. شعرت بالخوف على مريم لأول مرة في هذه الرحلة. هنا أراها وهي مهتمة بالعمرة وبملابس «مناسبة»، الرجل المحافظ مسترخٍ في أعماقي. لكن هذه الهوية المزدوجة تذكرني بجزء آخر من مريم. جزءٌ رأيت إشاراته على الإنستغرام. ملابس قصيرة. أكتاف ظاهرة تماماً وغير مقبولة حسب مقاييس بغداد وأعرافها وكل ما أؤمن به.. شاهدت بعض الصور أيضاً وهي تجلس مع أصدقاء، ومن الواضح أنهم يشربون الكحول.

تذكرت مصيبة سارة. لم أتخيل أبداً أن تصل الأمور إلى هذا الحد. لكن سارة وضعها مختلف. أمها أجنبية وحيدر لم يهتم. بينما ميادة «أخت رجال» ويعتمد عليها وتربيتها كانت بطريقة مختلفة.

لكن إلى أي حد يمكن لميادة أن تنجح بمفردها؟ أين الحدود التي ستقف عندها؟ .. أو ربما الحدود التي ستبدأ عندها.. ميادة تغيرت كثيراً، أصبحت أقوى بكثير بفعل الغربة وكل ما مرت به، وكذلك فهي «عاقلة» ولا أظنها ستحارب كل شيء. تعرف أنها لن تنتصر لو فعلت ذلك.

كانت مريم تريد شراء شيء من محل إلكترونيات، تركتها تختار ما تريد ودفعت عنها، حاولت هي أن تدفع فنهرتها ولكنها أصرت، ثم حسم البائع الأمر عندما أشار لها أنه لا يستلم بطاقات فيزا.

«لا يصدق، أشعر أني في القرون الوسطى، لن أستغرب إن قال لي بائع أنه يتعامل بالمقايضة أيضاً، هاتي خروفاً وخذي الآيباد». قالت بتأفف. هذا الجيل يعتقد أن النقود الورقية من مخلفات القرون الوسطى. غالباً يعتبرنا جميعاً ضمن هذه المخلفات.

قلت لها: هذا أفضل، على الأقل أدفع أنا عنك.. هل تذكرين؟ كنتِ بين فترة وأخرى تقررين أنه «يوم ميلادك» وعلينا شراء هدية.. كنت آخذكِ إلى محل لعب أطفال في شارع 14 رمضان، أكبر محل لألعاب الأطفال في بغداد، «محلات الحاج مهدي الجيلاوي».. وكنت تختارين ما تريدين.. آخر مرة اشتريت دراجة حمراء اللون.. وقبلها اشتريت «لعبة سوداء كبيرة الحجم».. تركت الألعاب الشقراء وباربي وشقيقاتها واشتريت لعبة سوداء.. ضد العنصرية من يومك.

سألتها: هل تذكرين أي شيء من هذا؟

قالت بعد تفكير: أذكر الدراجة الآن. أذكر أني كنت أبكي لأني لم أركبها. لماذا لم أركبها؟

أعتقد أن صوتي تغير عندما أجبتها: كان من المفترض أن نحتفل بميلادك الافتراضي هذا يوم الخميس، اشترينا الدراجة الأحد، واتفقنا أنها كبيرة عليك ويوم الخميس ستكونين قد كبرت ويمكنك أن تركبيها.. لكن يوم الأربعاء اختطف أبوك..

بدت على وجهها الكآبة وندمت أنا لذكر الأمر. ثم قالت كما لو لتغير الموضوع: هل هذه المحلات لا تزال موجودة؟

قلت لها: لا، لقد أغلقت.

لم أشأ أن أقول لها كيف أغلقت، قتل أولاد الحاج الجيلاوي الثلاثة وحفيده أمام المحل.. وجن الرجل تماماً، أصبح يسير في الشوارع بملابس ممزقة. ثم مات بعد ذلك.

سألتها: مريم.. هل تصلين؟

نظرت لي مستغربة وضحكت: ليس كثيراً الحقيقة.

ليس كثيراً! أغرب جواب أسمعه عن سؤال كهذا. هل تقصد أنها «تصلي بتقطع»؟ أم أنها «تصلي أحيانا»؟

لم أستطع ترك الجواب دون سؤال آخر: ماذا تقصدين؟

قالت بوضوح: عمو، أنا لست روحانية كثيراً، في الحقيقة لست روحانية أبداً بالمعنى الذي تفهمه أنت من ذلك!

قلت لها بسرعة: لكنك كتبت أنك روحانية في تعريف الإنستغرام الخاص بك..

قلتها وانتبهت أني فضحت تلصصي المزمن على كل منصات التواصل.

رفعت حاجبيها بدهشة: واو! لدينا متعقب سري هنا.

تلعثمت وخرجت عبارات مضطربة: ماذا كنت تظنين إذن! ليس لدينا أغلى منك.

نظرت لي وقربت وجهها كمن تتفحصني: هل كنت تعلم عبر تعقبك هذا بأني معجبة بفرانك غيري ورينزو بيانو وأنتون غاودي عندما حزرت ذلك في لقائنا الأول؟

أووووبس! لقد انكشفت.

قلت وأنا عاجز عن إخفاء ارتباكي: لا. لا. ليس لهذه الدرجة..

قالت وهي تنظر إلى الأمام: على أي حال.. بالفعل كتبت ذلك قبل المجيء إلى مكة، أحببت أن أدخل في الجو الروحاني قليلاً كي أستطيع الاستفادة قدر الإمكان في مشروع تخرجي الذي أعد له منذ الآن.

حاولت استيعاب ما قالت. يبدو هنا أن العمرة كلها حدثت بنية «مشروع التخرج»، وليس بنية العمرة.

بدا الأمر مرعباً. شعرت كما لو أن الأمر طعنني في أحلامي. كما لو أن مريم خذلت أحلامي وآمالي.

قلت لها بحذر مع صوت حاولت أن يبدو محايداً قدر الإمكان: إذن الهدف الأساسي من هذه السفرة هو مشروع التخرج؟

قالت فوراً: بالتأكيد 100 %.

لم أملك إلا أن أسأل: لماذا الاهتمام أصلاً بتصميم الحرم المكي إن كنت لا تهتمين بالأمر؟

قالت فوراً كما لو أن الجواب كان جاهزاً ينتظر أن أطلبه: لأنهم هناك، في مرحلة ما، سيعاملونني على أني مسلمة مهما كنت أشبههم، مهما كنت أعيش مثلهم، سيعاملونني على اسمي ولون بشرتي، لذا، قررت، ما دام الأمر هكذا بكل الأحوال، أن تكون بصمتي المعمارية التي تميزني مستوحاة من العمارة الإسلامية، والمزج بينها وبين المدارس المعاصرة».

هكذا إذن، وبوضوح. الدين بالنسبة لمريم كان تصميماً معمارياً يميزها عن بقية البريطانيين من زملائها.

كنا نهبط على السلم الكهربائي في المول. شعرت بالدوار وكما لو أني أريد أن أفرغ ما في جوفي. بنيت أحلاماً كثيرة على نية مريم. ثم ها هي تطيح بها «100 %».

بقيت صامتاً. ونظرت لي مع ابتسامة خبيثة كما لو أنها فهمت ما برأسي «لكن.. لا يمكنني أن أنكر أن التجربة ككل جعلتني أشعر بأشياء كثيرة لم أمر بها من قبل.. صرت أقرب بكثير إلى الروحانية.. إلى الصلاة وهذه الأمور».

تنفست الصعداء. وددت أن أقبلها. مرت في بالي كل المخاوف التي يحملها الآباء على بناتهم.. أو التي أفترض أنهم يحملونها على بناتهم.. هل يفكرون

ببكارتهن مثلاً؟ هل يقلقون على عذريتهن أم يحاولون تجنب التفكير في هذه الأمور..

قلت لها: هل تعرفين أن والدك هو من «أدخل» الصلاة إلى بيتنا؟ لم نكن نصلي قبله.

ردت هي: وربما ذلك ما قتله. بالنسبة لي ولكثيرين من جيلي هذا هو الدين.. هو الذي قتل الملايين.

فضلت أن لا أناقش هذا الأمر الآن.

سألتها دون مقدمات: هل لديكِ بوي فرند؟

لم أستطع فهم إن كان ما ظهر على وجهها انزعاجاً أو استغراباً.. قالت: لا. اطمئن. ليس بعد.

كانت تفهمني جيداً. اطمئن وليس بعد. يعني أنه لم يحدث حتى الآن ولكنه سيحدث.

أكملت هي بينما نخرج من باب المول: هل تعرف ميادة آل باقر؟ إنها صعبة جداً في هذه الأمور. أي بوي فرند محتمل سيمر أولاً عبر ماكينة تقطيع اللحم الخاصة بها، ولن يبقى شيء منه بعد ذلك، فلن يكون هناك ثانياً.

هززت رأسي بتفهم وأنا أتظاهر بالحزن والتعاطف مع مريم: نعم مفهوم.. الله يكون في عونك.

وكان قلبي يرقص فرحاً وهو يهتف: ميادة ميادة ميادة!

اتصل بي «الخادم الخاص» الذي تركته مع والدي. قال لي أن آتي فوراً إلى الجناح لأنه فقد سيطرته على أبي.

هرولت أنا ومريم بسرعة إلى الفندق. في دقائق كنا في المصعد وأنا أدعو الله أن لا ينتهي هذا اليوم نهاية سيئة.

دخلنا الجناح، كانت الفوضى في كل مكان، أبي كان قد نثر كل ما في الحقائب على الأرض وهو يبحث بينها بشكل هستيري. الخادم الخاص كان مرتعباً جداً مما يراه. وقف كما لو كان أبي قد قيد وثاقه.

«أبي، ماذا حدث؟ ما الذي تبحث عنه؟».

نظر لي كما لو كان ينظر في الفراغ. ثم أدار وجهه إلى مريم..

قال: أبحث عن عيون عمر.. عيون عمر.. لا بد أنها موجودة في مكان ما.

ميادة 9

دخلت مريم الجناح واجمة، وضعت مشترياتها وخلعت غطاء رأسها وجاءت لتجلس جنبي على السرير.

بقيت ساكتة، كانت تعلن تذمرها من غطاء الرأس في كل مرة تنزعه. هذه المرة لم تقل شيئاً.

سألتها: ما الأمر؟ لم تجدي صلصة التوت البري؟!

قالت: وجدتها. لكن دخلنا على جدي الآن وكان يبحث عن عيون أبي.

ارتبكت وقلت لها إنه مسكين ومتقدم بالعمر ولا بد أنه الألزهايمر.

قالت مريم: لكن هذه ليست أول مرة يذكر فيها عيون أبي.

احتضنتها وقلت لها: جدك كان يحب أباك كثيراً، وعيناه كانتا جميلتين مثل عينيك.

ثم حاولت أن ألطف الجو فقلت ضاحكة: أمك سقطت في حبه بسبب هاتين العينين.

زمت مريم شفتيها: فهمنا أنها حلوة. لماذا يبحث عنها في الحقائب والدولاب؟

قلت لها: ألزهايمر. فقط ألزهايمر. لا شيء أكثر من ذلك.

لقد حميتها طيلة هذه السنين من معرفة تفاصيل ما حدث. ولن أنسف هذه الحماية الآن.

* * *

يوم قيل لنا أن نستلم عمر من الطب العدلي قرب مدينة الطب، قيل لنا أيضاً أن لا يذهب أحد من «رجال أسرته». هناك من يتصيد عند الطب العدلي، وسينتهي بهم الأمر إلى الطب العدلي أيضاً.

كان ذلك يعني أن لا يأتي سعد معي. أصر هو وكان يخرج بالفعل، لكن أمه تعلقت برجليه وهي تتوسل به أن لا يذهب. اتصلت بأبناء عمي وقالوا إنهم سينتظرونني هناك.

أصر عمو على المجيء. لم يكترث لما قيل من تحذيرات.. «ما الذي سيفعلونه بي. رجلي في القبر. يتفضلون عليَّ إن قتلوني. أي عيشة هذه».

أصر أن أنتظره بينما هو يرتدي طقمه كاملاً، ثلاث قطع مع ربطة العنق، كما لو كان ذاهباً لحفل تخرج أو تكريم. أنزل الله عليَّ سكينة منه. لم أغضب منه ولم أنفعل. لا أعرف كيف.

عندما وصلنا، كانت رائحة الجثث المنبعثة من الطب العدلي تصل إلى الشارع. على الرصيف نسوة يلطمن ورجال يغالبون دموعهم. اثنان من أبناء عمي، كرار ومرتضى، وصلا قبلنا. حاولا البحث عن عمر ولكن طُلب منهما أوراق ثبوتية. قلت لعمي أن يتركني أنا أبرز هويتي. كنت واعية وقوية على نحو أثار استغرابي أنا شخصياً. ربما كانت تلك هي نقطة التحول في كل حياتي. أشار لنا الموظف إلى مجموعة من الجثث المرمية على الأرض بين الثلاجات، وقال: ربما تجدونه هناك على اليمين.

دخلت وعمي نبحث بين الجثث. بعضها كان يحمل بطاقة باسم المتوفى إذا كان قد عرف عبر هوية يحملها. بعد عدد من الجثث التي مررت عليها، وجدت جثة كتب عليها: عمر أحمد عبد الرحمن بكر. طبيب. خلف السدة.

لم أفهم ما علاقة هذا «الشيء» بعمر. كانت الجثة مشوهة جداً وبلا ملامح على نحو غير مفهوم. للحظات قلت في نفسي: الحمد لله، ليس هو.

لكن ركزت أكثر. كان الوجه مليئاً بدماء متجلطة. لون الشعر مثل لون شعره. الشاربان أيضاً. الصدر عارٍ ومليء بثقوب كما هي العادة، ثقوب فهمت لاحقاً أنها أحدثت بالدريل الكهربائي. البنطال جينز مثل الذي كان يرتديه. قلبت الجثة لأرى علامة الجينز. نفسها. ما في التركية. اشتراه من المنصور قبل أشهر.

عمي كان يردد: ليس هو.. ليس هو.

كنت أتمنى ذلك.. لكن كنت أشعر أنه هو.

قال لي الموظف: أنت زوجته؟ إذا كنت تعرفين علامة بارزة على جسده قد تساعدك.

علامة بارزة؟ كل عمر كان علامة بارزة. كل ما فيه كان علامة بارزة بالنسبة لي، لكن لم أعتقد أن عليَّ أن أبحث عن «علامة بارزة» لكي أتعرف على جثته.

قلت بصوت مسموع: عنده شامة على ظهره على الكتف الأيمن.

تراجع عمي خائفاً من أن تكون هناك شامة على ظهره. وجاء الموظف ليساعدني في قلبه. نعم، شامة على جهة الكتف الأيمن.

احتضنته وقد أيقنت أنه هو. آه يا عمر. آه يا عمر. كنت عاجزة عن رفع صوتي بالبكاء. لست متأكدة أصلاً إن كنت أبكي.. فقط أعرف أني احتضنته بقوة.

قال عمي: لا. ليس هو. ليس وجهه.

يا رب. ربما الشامة صدفة. والجينز أيضاً. ولون الشعر والشاربين.

أرجعته على ظهره وتأملت الوجه. نزعت الإيشارب من رأسي وأخذت أمسح الدم المتجمع على الوجه لعلي أجد شخصاً آخر وينتهي هذا الكابوس.

مسحت الدم. لم أفهم ماذا رأيت. كان مكان العينين فارغاً.

«شالعين» عينه. شالعين عينه. ارتفع صوتي وأنا أقولها وأكررها.

كان الوجه له. لكن دون العينين.

لحظات مرت عليَّ وأنا أفكر: هل اقتلعوها وهو حي؟ هل تألم كل هذا الألم وهو حي؟ أم أنهم كانوا أرحم به فقلعوها بعد موته؟ هل مات تعذيباً أم قتلوه وانتهى الأمر؟ تذكرت أن هذه الأسئلة سألتها صديقة لي في الثانوية، أعدم والدها في زمن صدام. كان طبيباً مشهوراً وكانت عيناه زرقاوين. تسلموا الجثة بلا عينين. وكانت تسأل نفس أسئلتي في العزاء.

سمعت صوت عمي وهو يقول للموظف: هل رأيتم عينيه؟

تصورت أنه يقصد كم هما جميلتان. لكنه كان يسأل الموظف إن كانوا قد وجدوا عيني عمر في مكان ما.

كان سؤاله صفعة لي. الرجل لم يتحمل الصدمة. تمالكت نفسي ووجدت أن عليَّ أن أهدئ الرجل. كرامة لعمر على الأقل. إن كنت قد فقدت زوجي، فهذا الرجل قد فقد ولده.

طبطبت على كتفه وأنا بحاجة لمن يلطم معي. عمو، لم لا تنتظر في السيارة؟

قال: ميادة، ربما نجدهما بين الجثث أو في مكان آخر..

لقد جُنَّ الرجل.

قلت له وأنا أبكي: عمو، دعني أبحث عنهما وانتظر أنت في السيارة.

نظر لي ودموعه تهبط بصمت: إن شاء الله، لكن يجب أن نجدهما يا ميادة.. عديني بذلك.

احتضنته وأنا أقول: إن شاء الله عمو. إن شاء الله.

* * *

أكملت الإجراءات وحمل كرار ومرتضى عمر في تابوت إلى السيارة. على الرصيف كانت النسوة لا يزلن يلطمن.

فكرت: لم العجلة؟ عندي العمر كله لألطم. يوم قُتل ميثم، دخلت على أمي صديقة لها، قتل ابنها في حرب إيران، رأتها تلطم، قالت لها: سعاد، «على كيفك».. لم العجلة، لديكِ العمر كله لتلطمي عليه.

ها أنا أنضم إليهن، إلى النسوة اللواتي لديهن العمر كله ليلطمن على من فقدن.

سألني عمو في السيارة: هل وجدتِهما؟

أجهشت في البكاء ولم أرد. لم أعرف أبداً أنه سيستمر بالبحث عنهما حتى بعد اثنتي عشرة سنة.

وتسألني مريم اليوم: ما الأمر؟

لا شيء سوى الألزهايمر حبيبتي. لن أفسد عليك احتفالك بالكريسماس، ولا زيارتك لمكة. لن أفسد عمرَك بما دمر عمري.

مريم 9

أخذت صورة لما أعددته من ديكور للكريسماس وأرسلتها إلى نزرين.

أرسلت لي «واو» ثم بضعة قلوب حمراء.

ثم قالت: يمكن تسمية هذه الصورة «شيزوفرينيا»، ويمكن لها أن تكون الصورة التي تعبر عن جيل بأكمله. الجيل M.

لم يخطر ببالي عنوان «الشيزوفرينيا» عندما أعددت الديكور. آخر شيء في بالي كان هذا.

كنت قد جربت أن أوجه صورة شجرة الكريسماس على أكثر من حائط وفشلت. كانت هناك لوحات مثبتة تعوق ذلك. لذلك لم أجد سوى أن أنزل الستارة الشفافة على النافذة الكبيرة، وأجعل صورة الشجرة على الستارة.

أطفأت الأضواء. كانت النتيجة رائعة بصرياً. شجرة الكريسماس على الستارة الشفافة، وخلفها الكعبة متلألئة بأنوارها. أنوار الحرم المحيطة بالكعبة وأنوار الجبال في مكة اختلطت مع زينة الشجرة.

كان المشهد خلاباً فعلاً من الناحية البصرية. كما لو أني قد استخدمت برنامجاً متقدماً من برامج تعديل الصور لمزج الصورتين. الكعبة وشجرة الكريسمساس.

فهمت ما تعنيه نزرين. كنت أعرف الظروف التي تعاني منها. والدها يحاول إقناعها بالزواج من أحد أقاربها في أذربيجان. هو يحاول أن يجعلها تزور أذربيجان لتتعرف عليه، وهي تخاف أن يكون ذلك فخاً لقسرها على الزواج. تقول إن ذلك قد حدث فعلاً في أسرتها، مع ابنة عم بعيدة لها، استدرجت إلى قريتها قرب باكو من مكان دراستها في تبليسي، قيل لها إن

أمها مريضة جداً، ووجدتها في استقبالها وقد أعدت ثياب العرس التقليدية، زوجت خلال يومين. كانت أسرتها قد سمعت أنها قد صادقت في الجامعة شاباً من أقلية اللذجي في أذربيجان، تعرضت الفتاة لكشف عذرية أولاً، وتأكد الجميع أنها لا تزال بكراً، ثم زوجت لشاب يكبرها ببضع سنوات، كان مجبوراً هو الآخر على الزواج غالباً.

قلت لنزرين إن والدها مختلف ولا يمكن أن يذهب إلى هذا الحد. قالت لي إن والدها مختلف لكنه «حرفياً شخصان»، شخص درس في ألمانيا وعاش حياة الغرب، وشخص آخر متمسك بتقاليد قريته في أذربيجان، الشخص الأول كان أبوها طيلة أول اثني عشر عاماً من حياتها، الشخص الآخر ظهر بعدها، الأول لم يختف تماماً، لكن الآخر موجود بقوة.

سبق لنزرين أن قالت لي أكثر من مرة - عندما تكون في أسوأ حالاتها - أنها تحسدني لأني بلا أب، لأني نجوت من تسلط الذكور.

كنت أقول لها دوماً إن أمي يمكن أن تعطي الذكور دورات متقدمة في التسلط.

قلت لنزرين: الشيزوفرينيا تشخيص خاطئ. تقصدين اضطراب تعدد الشخصيات.

قالت لي: نعم، لكن الشيزوفرينيا عنوان أكثر جاذبية من «اضطراب تعدد الشخصيات».

لكن هذا عشاء الكريسماس وليس ألبوماً غنائياً أطلقه لكي أركز على العنوان.

ساعدتني أمي في ترتيب المائدة. كانت فرحة لأني أرغب في «تجمع عائلي» على هذا النحو. لكنها ألمحت أن أتوقع تعليقاً من عمي سعد على الاحتفال بالكريسماس. قلت لها إني هنأته به ولم يعلق بشيء، فقالت لي إنها ستستغرب كثيراً لو مرر الأمر دون تعليق.

مائدة الطعام كانت مصابة باضطراب تعدد الشخصية أيضاً. ديك رومي وصلصة توت بري وبطاطا مشوية مع الكباب والمندي، سباغيتي لي، إلى جانب الترايفل. كملت المائدة هكذا. شرق وغرب وشمال وجنوب. يقول المثل: أنت ما تأكله. هذا صحيح تماماً في حالتنا على الأخص. نحن كمن وضعنا في خلاط كهربائي كبير مع شعوب وثقافات أخرى وصرنا نتاج عملية الخلط.

جاء عمي وهو يدفع جدي على كرسيه. جدي بكامل أناقته وربطة عنقه تحيط به غيمة عطره المميز. وعمي يرتدي دشداشة بيضاء. اضطراب تعدد شخصية آخر؟

كانت الأضواء في الجناح خافتة بحيث أن انعكاس صورة الشجرة كان واضحاً على الستارة، وكذلك تداخل الانعكاس مع الكعبة. علق عمي على المائدة وأسماها «وليمة» وامتدح حسن الترتيب.

طلب جدي أن يقترب لأكثر من النافذة فقربه عمي وهو على كرسيه. بدا كأنه يتأمل في الكعبة ويردد شيئاً مع نفسه بالفصحى. كان جزء من الشجرة منعكساً على جدي على نحو بدا كما لو أن جدي قد أصبح جزءاً من المشهد الذي صممته. زاد ذلك من روعة المشهد على نحو آسر.

ثم دخل خالي وهو يشتم دول الشرق الأوسط كلها لأن المصعد تأخر كثيراً، ثم توقف عن الشتيمة عندما رأى جدي وعمي وأخذ يمتدح طعام الشرق الأوسط. اضطراب تعدد شخصية آخر؟!

قررت أن أقول كلمة صغيرة. هنأتهم جميعاً بالكريسماس، وأخبرتهم أن هذا هو أجمل كريسماس مرَّ عليَّ وأني لن أنساه أبداً لأنه جمعني بعائلتي في مكان استثنائي القداسة. ذكرت لهم ما قالته نزرين عن أن الأمر يشبه اضطراب تعدد الشخصية، هذا الاحتفال بالكريسماس في مكة، وقلت لهم إني أوافقها الرأي إلى حد ما، لكن أصحاب هذا الاضطراب من حقهم أيضاً الاحتفال.

قلت أيضاً إني لم أرحب كثيراً بفكرة مجيء جدي وعمي إلى مكة واللقاء بهما لأني لم أعرفهما من قبل وتخيلت أن اللقاء سيكون مضيعة لوقتي الذي أردت أن أقضيه في دراسة تصميم الحرم، لكن على العكس، تعرفت عليهما لأعرف أن علاقتي بهما قديمة جداً وأني أعرفهما في لا وعيي على نحو لا يمكنني فهمه، مثل الكعبة التي شعرت أني أعرفها أيضاً بطريقة غير مفهومة.

قال عمي وهو يقلد ما يحدث في الأفلام بعد هذه الخطب: أوه، لقد أبكيتني.

قالها وهو يمثل أنه يضحك. ولكني لمحت دمعة في طرف عينيه.

ثم قال: هل لي أن أقول شيئاً؟

ثم قام دون أن ينتظر إذناً من أحد.

أخذ علبة مستطيلة وضعت في جانب كرسي جدي، لم أكن قد انتبهت لها، ثم وقف وقال: سلام عليكم جميعاً، لديَّ شيء أريد أن أعطيه لمريم، ليس بسبب الكريسماس، نحن ليس لدينا كريسماس لأنه ليس عيدنا، ولكن بسبب أننا اجتمعنا اليوم.. وهذا الذي..

قاطعه خالي: من تقصد بـ «نحن»؟ من «أنتم» الذين ليس لديكم كريسماس؟

كان خالي عصبياً. غالباً لأني لم أذكره في كلمتي. كنت أريد أن أذكره أيضاً بأي شيء لكن عمي قاطعني وبدأ يتحدث.

بدا لي أن الأمر سيتحول إلى تجمع عائلي عراقي نموذجي. أولى الحلقات بدأت. المشاجرة.

قال عمي ببرود مستفز: نحن المسلمون طبعاً.. ليس لدينا كريسماس.. لدينا عيد فطر وعيد أضحى كما تعلم.

أخذ خالي الطعم وابتلعه. استفزه عمي: أنتم المسلمون ونحن ماذا.. كفار؟

قال عمي ببرود أكثر استفزازاً: كيف فهمتها هكذا دكتور؟ قلت «نحن».. قصدت «نحن» جميعاً.. وأشار بيده إلى الجميع.

رد خالي: حقاً؟ كنت تقصد نحن جميعاً؟ لكننا نحتفل بالكريسماس! فهل نحن مسلمون؟

كانت لهجته قد زادت حدة، تدخلت أمي قائلة: يا جماعة صلوا على النبي..

قال لها خالي: على أي نبي تقصدين؟ يبدو أن سعداً يعتقد أن نبينا غير نبيهم..

قال عمي: لا لا يا دكتور، حاشاكم ذلك، نبينا واحد وقبلتنا واحدة.. حسب ما قالت لي مريم فإن احتفال الكريسماس عندكم عيد عائلي واجتماعي، لا معنى دينيا فيه..

قال خالي: أنتم مصابون بفصام حقيقي، تستوردون كل شيء من الغرب وتذمونه في الوقت نفسه..

رد عمي الضربة: ربما هي درجات في الفصام.. لن تصل ببعضنا إلى إلى الاحتفال بالكريسماس.. وتصل بغيرهم إلى ذلك..

لم يسكت خالي: على الأقل نحن متصالحون مع فصامنا. المشكلة فيمن يلعن كل جزء منه الآخر..

ربما المشاجرة ستعود الآن.

قال عمي: تعرف يا دكتور.. ربما كنت على حق بعد كل شيء.. ربما البعض متصالح مع نفسه والبعض ليس كذلك.. لكن ربما كان التصالح أحياناً مثل التصالح مع السرطان عند بعض المرضى الذين يستسلمون للمرض.. ليس كل تصالح يكون إيجابياً بالضرورة يا دكتور وأنت أعرف..

قال خالي بمرارة: الآن أصبح الغرب سرطاناً، لكن عندما يصيبكم السرطان تركضون للغرب ومستشفياته..

تساءلت مع نفسي: متى فقرة «هذه آخر مرة أحضر بيها هذه التجمعات»

و «أنا صوجي[1] أني إجيت»؟

تدخلت أمي: يا جماعة استهدوا بالرحمن واخزوا الشيطان.. شنو غرب شنو شرق.. وإيش دخل السرطان - سلام قولاً من رب رحيم - بالموضوع.. الأكل سيبرد وأنتما مختلفان على الشرق والغرب.. أنا سأصب وأبدأ الأكل.. عمو ماذا أضع لك؟ تحب الديك الرومي أم الكباب؟

ذهب عمي إلى الستارة.. قال: انظروا.. الشجرة مجرد خيال.. الكعبة حقيقة.. بمجرد فتح الستارة.. يذهب الخيال.

فتح عمي الستارة فاختفت الشجرة.

أترون؟ قال منتصراً.

رد خالي: نعم.. أرى بيت الله مضاءً بأجهزة صنعها أصحاب الشجرة التي تقول إنها مجرد خيال..

اعترض عمي: لا.. هذه هي القبلة.. لا شيء يجب أن يتداخل معها، لا الكريسماس ولا أي شيء آخر..

اقترب عمي من جهاز العارض وغير اتجاهه إلى الحائط. أصبحت شجرة الكريسماس على الحائط.

قال: هكذا أفضل، على الأقل نزيح التداخل. لست مع شجرة الكريسماس بكل الأحوال، لا تعني لي شيئاً في ثقافتي، ولكن وجودها هناك على الستارة كان مزعجاً أكثر.

حوار لطيف حقاً. يشبه كرة الطاولة.

تدخلت أمي بحسم: اجلس يا سعد الله يرضى عليك وخلي الليلة تعدي على خير.. يعني «ماكو» أكل إلا و لازم يصير زقنبوت؟

عمو ماذا أضع لك؟ ديك رومي أم كباب أم رز مندي؟

(١) ذنبي ، الحق علي، أصلها من كلمة سوتش التركية وتعني الذنب.

قال لها جدي بصوت مرتفع:

يا دار أين الساكنون وأين ذا

ك البهاء وذلك الإعظام؟

يا دار أين زمان ربعك مونقاً

وشعارك الإجلال والإكرام

يا دار مذ أفلت نجومك عمنا

والله من بعد الضياء ظلام

عم الصمت فوراً. سكتنا جميعاً ولم نستوعب ما الذي قاله.

قلت لعمي: ماذا كان هذا؟

قال عمي: أبي يتذكر هذه الأيام قصيدة ويكتب أبياتاً منها.

سألته أمي: هل هي من نظمه؟

رد عمي: لا. لا أعتقد. لم أعرف عنه هذا أبداً.

أشر جدي إلى عمي كما لو أنه يريد قلماً وورقة فذهب عمي إلى الجناح الآخر. قالت أمي لجدي: جميلة جداً القصيدة يا عمو. عاش ذوقك. ماذا أضع لك؟ ديك رومي أم كباب أم رز مندي؟

جاء عمي بدفتر وقلم وأخذ جدي يكتب بهدوء. أمي قررت أن جدي سيأكل رز مندي وكباب، وبلا هذا الديك الرومي. أخذت تقطع الديك الرومي وهي تقول بصوت منخفض أنه قد برد بسبب «لغوتكم الله يلعنها».

لكنه كان لذيذاً جداً. الشيف الباكستاني في مطعم الفندق كان عظيماً.

أكمل جدي كتابة الأبيات. أخذتها لأقرأها. لم أفهمها جيداً لكن بدت لي قصيدة غرامية عن الفراق والأشواق.

قلت لجدي: يا جدو اتضح أنك دون جوان خطير. والله قلت إن هذه الأناقة خلفها سر.

انتفض عمي: كيف نسيت؟ كنت على وشك أن أعطيك يا مريم شيئاً قبل أن ندخل في معركة الكريسماس!

رفع العلبة التي كانت معه وقال: هذا الشيء ليس هدية. بل هو حق لك يا مريم. كان يعود للمرحومة جدتك، كانت معتزة به جداً لأنه من أمها، رغم أنها لم تكن ترتديه أبداً، كانت تتشاءم منه..

لم يكن ما يقوله مفهوماً رغم أنه كان واضحاً أنه يتحدث عن ذهب أو شيء مماثل امتلكته جدتي. لا بد أنه يقصد أني ورثته منها.

فتح عمي العلبة. كان طقماً ماسياً يخطف الأنظار. قالت أمي لعمي أن يقربه لتراه جيداً وطلبت مني أن أناولها نظارتها من حقيبتها.

عن قرب كان يخطف الأنظار أكثر. لا خبرة لدي بالألماس لكن لو كان حقيقياً فهو حتماً يقدر بثروة.

سألت عمي بغباء: هل هو حقيقي؟

ردت أمي وقد تحولت إلى خبيرة أحجار ثمينة وهي تتفحصه بنظارتها: هششش، طبعاً حقيقي.

قال عمي: نعم، حقيقي.. الماسات الكبيرة في العقد والإسورة حجمها 4 قيراط، الصغيرة 1 قيراط.

صفرت أمي. لم أكن أعرف أنها تعرف كيف تفعل ذلك. لم أفهم إن كانت هذه الأرقام كبيرة أو صغيرة لكن رد فعل أمي كان يدل على أنها أرقام كبيرة.

قال عمي: والماسة الخضراء في الوسط تشبه لون عيني مريومة، هل انتبهتم؟

رأيت الجميع ينظرون إلى الماسة ثم إلى وجهي. أمي تحرك شفتيها بصوت غير مسموع، بالتأكيد آيات ضد الحسد.

أكمل عمي: بس مريم أحلى..

قالت أمي: عجيب، لم أر خالة الله يرحمها ترتديه أبداً، ولم ترني إياه أبداً. كان هناك واحد آخر ترتديه في المناسبات، ألماس أيضاً..

قال عمي: نعم.. أعطيته لسوسن.. كنا لا نزال معاً.

كانت هذه أول مرة يأتي فيها على ذكر زوجته أمامي. بدا الألم على وجهه لثوانٍ.

أكمل: أما هذا فلم تكن ترتديه لأنها كانت تتشاءم منه. اشتراه جدي من نبلاء روس في إسطنبول هربوا وتشردوا بعد الثورة البلشفية عام 1917. كانت تقول إنها متأكدة أن من باعته كانت «عينها لا تزال فيه» وأنها «باعته مضطرة»، لذا كانت تخاف أن يحدث فينا ما حدث لهم، لكن بما أن ما خافت منه حدث لنا وانتهى الأمر، فقد قلت إنه الآن يمكن ارتداؤه دون خوف.

لم تحتمل أمي فضحكت بشدة وقالت: يلعن إبليسك يا سعد.. فعلاً والله حدث بنا ما حدث بهم وأكثر.. دون أن نرتديه.

رفع عمي كتفيه وقال: نعم أخبرتك، لقد زالت اللعنة، في حال وجودها أصلاً.

قلت: ربما كان العقد لواحدة من أميرات أو دوقات آل رومانوف.. ربما كان لأنستازيا أو واحدة من شقيقاتها.. من يدري؟

ردت أمي: يقول لك نبلاء روس باعوه في إسطنبول، أنستازيا ما وصلت هناك.. مريم، لا تفاولين[1] علينا بهالربط، اللي صار بينا يكفي.

ضحك عمي وقال: أكيد اللي صار بينا أكثر، وآل رومانوف أصلاً كانوا مجرمين، لا أعتقد أننا كنا مثلهم.

سأله خالي: كيف أدخلت هذا الطقم من المطار؟

---

(١) تفاولين: تجلبين الشر بتوقعه.

أجاب عمي: الحجي ثامر.. أعظم ساحر.

لم يستسغ خالي النكتة: «وكيف تعتقد أننا سندخله إلى المملكة المتحدة؟ دول «الكفار» فيها قوانين وليست «خان جغان»[1] مثل اللي عندكم».

قاطعته أمي كما لو كانت خائفة أن يتراجع عمي عن الأمر: ماذا جرى يا حيدر؟ نرجع الطقم يعني؟!

قال عمي: وضعت في حسابي أنكم ربما تضطرون لدفع ضريبة أو شيء مماثل. المبلغ مؤمن إن شاء الله.

أخذت أمي العلبة من يد عمي ووضعتها في يدي: اشكري عمك يا مريم.. الآن.. تريدون الشاي قبل الحلويات أم بعدها؟

احتضنت عمي وقبلته. لم أعتبر طقم الألماس حقاً لي قدمه لي عمي. بل اعتبرت أنه صلة إضافية - باهظة الثمن - لجدتي التي لم أعرفها. كنت أريد أن أشكره على هذا وليس على قيمته فقط. عرفت شيئاً عن حس جدتي المرهف وتعاطفها مع ناس لم تعرفهم قط.

كان خالي واقفاً على النافذة وقال: إنها تمطر.. تعالوا انظروا الحرم..

كان المنظر رائعاً جداً، قطرات المطر واضحة وكبيرة وينعكس عليها الضوء من الحرم فتبدو مضيئة بذاتها. شلال من المطر المضيء يتساقط على أرض الحرم التي بدأت تفرغ من الطائفين الذين أخذوا يتسارعون إلى الطوابق العليا.

البرق يضيء السماء وزخات المطر تزداد قوة، قطرات المطر تبدو مثل نشرة ضوئية تغطي السماء.

---

(١) خان جغان: تعبير بغدادي موافق لعبارة سداح مداح التي تقال في مصر للتعبير عن الفوضى، وأصله أن خان (نُزل) في بغداد كان يعود لشخص اسمه جغان وكان كبيراً ويضم غرفاً كثيرة جداً بحيث إن أي أحد سيجد له مكانا مهما كان الموسم مزدحماً، أي أن الكل يدخل فيه دون تدقيق.

كنت أصور وأبث على الإنستغرام فوراً، لكن حتى كاميرا الآيفون Xs كانت عاجزة عن التقاط روعة المشهد.

قلت: هذا رائع.. لم أر المطر هكذا من قبل.

قال جدي: هذا نهر الله.. إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى..

لم أفهم ما يقصد جدي بنهر عيسى. هل هذه جملة عدائية ضد المسيحيين؟

التفتُّ إلى عمي مستفهمة، فأشار لي أنه لا يعرف عم يتحدث جدي.

سأله بصوت مرتفع: ما هو نهر عيسى؟!

بدا الاستنكار على وجه جدي: نهر عيسى؟ ما كان يمكن لنا أن ننجو لولاه. كيف تنساه؟

بدا الحديث مربكاً لعمي أيضاً. كان من الواضح أنه لا يعرف عن نهر عيسى أكثر مما أعرف أنا، وفهم فوراً أن كلمة جدي قد فُهمت على نحو «ديني».

لا أعرف لم يتأخر هذا الجيل في استخدام غوغل. يحتاجون من يذكرهم باستخدامه باستمرار. بالنسبة لي الأمر كالتنفس. لا داعي للتذكير به.

قلت له: غوغل نهر عيسى.

أمسك هاتفه فوراً وكتب بطريقة الكبار في السن المثيرة للأعصاب. يمسك الهاتف بيد ويكتب بأصابع اليد الأخرى. ثم قال: نهر عيسى من أنهار بغداد في العصر العباسي، حفره ووسعه عيسى عم الخليفة أبو جعفر المنصور.

نقر على الهاتف مرة أخرى ثم قال «إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى» مثل شائع في العصر العباسي، ويضرب لتحقير شيء إذا جاء أفضل منه.

ظهرت براءة جدي من تهمة التعصب الديني. لكن لم أفهم ماذا قصد بأن «نهر عيسى أنقذه». تباً للألزهايمر.

أياً كان، هذا الألزهايمر لم يمنع جدي من أن يقول «نهر الله» وصفاً للمطر. وصف رائع.

التفتُّ إلى النافذة لأشاهد نهر الله المتدفق من السماء.

قلت: لم أكن أتخيل أن المطر يمكن أن ينزل بهذه القوة في مكة.

علق خالي: على العكس، المطر يؤدي إلى سيول أغرقت الكعبة مرات كثيرة.

قال جدي من كرسيه: ولهذا شقت زبيدة العين المشهورة بعين زبيدة، تسقي مكة وحجيجها وتجمع مياه السيول لتوصلها إلى شوارع مكة.

سألت: من زبيدة؟

رد جدي: زبيدة هي بنت جعفر المنصور، زوجة هارون الرشيد.. أنفقت من مالها الخاص على قناة للري من وادي نعمان حيث تتجمع السيول إلى مكة، عشرة أميال، وأدخلتها إلى شوارع مكة.. بقيت تسقي مكة وحجاجها لقرون طويلة.

قاطعه عمي وهو يقول لي: جدك موسوعة متحركة عن الدولة العباسية، يمكن أن يتكلم عن الأمر لغاية فجر الغد دون أن يكل أو يمل.

كانت طريقة جدي في الكلام جميلة جداً. يتحدث بلهجة لم أسمعها كثيراً. تقول أمي إنها طريقة «أهل أول» في الكلام. تمنيت لو أنه يتحدث بالفعل حتى الصباح.

سألت عمي: لماذا الدولة العباسية تحديداً؟ أعرف أن تخصصه كان عسكرياً.

رد وهو يعدل من وضع جدي على الكرسي: صحيح لكن رسالته في الدكتوراه كانت في الخطط العسكرية التي اتبعها التتار في الهجوم على بغداد، وهل كان يمكن أن يتغير ما حدث لو أن العباسيين استخدموا خططاً مختلفة.. جعله هذا يهتم بكل ما هو عباسي.

أها. مثير للاهتمام. كان جدي يفكر لو أن التاريخ سار بطريق مختلف.

قال جدي كأنه يحدث نفسه ويستذكر شيئاً بصعوبة..

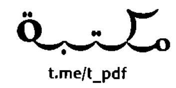
يا سادتي أما الفؤاد فشيق

قلق وأما أدمعي فسجام

والدار مذ عدمت جمال وجوهكم

لم يبق في ذاك المقام مقام

أعطاه عمي الدفتر والقلم فوراً. وأخذ جدي يكتب الأبيات بهدوء.



حيدر 9

سعد المعقد التافه تغير ولم يعد كما كان، سابقاً كان كل كلامه ترهات.. لكن كلامه الآن صار بترهات أقل.

ليس يسيراً أبداً أن أعترف أنه كان محقاً في كلامه. ولكن.. كان في كلامه جزء من الحقيقة.

لم تفارقني كلماته وأنا أتقلب في فراشي. كلنا مصابون بالفصام، لكن كما قال سعد، بدرجات.

عشت عشرين عاماً وأنا في حالة «هدنة» مع فصامي، هدنة جعلتني لا أنتبه إلى أني مضيت بعيداً في الفصام. لو أني حافظت على توازن ما، لو أن فصامي كان بدرجة أقل، لو أن شجرة الكريسماس كانت في جهة أخرى واتجاه آخر، بحيث لا تشوش على القبلة، أما كان يمكن أن تكون الأمور مع سارة مختلفة؟ أما كان يمكن ألا نصل لهذا الذي وصلنا له؟

هل فات الأوان؟ هل أضعت نفسي وأضعت سارة؟ هل أسمع كلام ابن خالي.. أتزوج في العراق وأخلف ذكوراً أو إناثاً أعوض بهم مصيبتي وعاري في سارة؟

لكني لا أريد أن أعتبر أن سارة انتهت. ولا أريد أن أخسر أميلي. ولا أريد أن أعيش المزيد من الازدواجيات في حياتي. لا يمكنني أن أحل مشكلتي مع سارة بإنجاب المزيد من المشاكل، على أمل أن يكونوا أفضل منها.

أحب سارة. لا أستطيع أن ألغيها من وجودي وحياتي. ما فعلته كان كارثة، لكني أنا المسؤول الأول عن ذلك، لا يمكن أن أعاقب سارة على جريمة كنت شريكاً لها بها.

قمت من السرير. ذهبت إلى الصالة في الجناح. مريم وميادة كانتا نائمتين في غرفتهما. آثار مائدة الكريسماس كانت قد جمعت على جنب بانتظار أن تحملها خدمة الغرف لاحقاً. الستارة مفتوحة، شجرة الكريسماس اختفت، والكعبة لا تزال تنير المكان. والمطر لا يزال يهطل بشدة.

كان الحرم خالياً تقريباً بسبب المطر. منظر الكعبة كان مغرياً جداً.

قررت أن أنزل إلى الحرم الآن وبينما المطر يهطل بشدة. أردت أن أغتسل بالمطر النازل على أرض الكعبة. خفت أن ينقطع المطر فجأة، فأسرعت بالنزول دون أن أغير ثيابي أو أرتدي شيئاً إضافياً..

عندما وصلت المطاف حول الكعبة كانت زخات المطر تشتد، بعض الطائفين كانوا يحملون مظلات، وآخرون كانوا يغطون رؤوسهم بأكياس.. وآخرون لم يكونوا يبالون.. لم أكن من أي منهم، كنت أريد من المطر أن يغمرني.. أن يغسلني.. أن يطهرني..

تقدمت إلى الكعبة وأنا أرفع يدي إلى السماء، لا أريد مظلة ولا كيساً ولا أريد لشيء أن يمنع عني هذا المطر النازل من السماء، كنت رافعاً يدي كما لو كنت أحتضن الماء النازل من عند الله..

يا رب.. سارة.. سارة.. يا رب..

لم أقل شيئاً في دعائي.. فقط سارة يا رب، يعرف الله كل شيء..

لا أعرف كم مر من الوقت، لكني فجأة وجدت نفسي بالقرب من الحجر الأسود، لا يفصلني عنه سوى أقدام.. في كل مرة أطوف بها تكون هناك أكوام بشرية مزدحمة حوله.. الآن يبدو الاقتراب ممكناً..

ثوانٍ وكنت ألمسه.. شعرت كما لو أني أحلم.. لا أعرف ماذا يقال عند الحجر الأسود.. لم أجد على لساني غير سارة.. يا رب سارة.. قبلت الحجر الأسود.. ومر في ذهني ذلك الشعور الحارق بأن الملايين قد قبلوه من قبل.. وأن الرسول أبا الزهراء عليه الصلاة والسلام قد قبله.. وأمير المؤمنين

علي.. وسيد شهداء الجنة أبا عبد الله الحسين.. سلام الله عليهم.. كلهم قد قبلوه في نفس الموضع الذي وضعت شفتي عليه..

انسحبت وصليت تحت المطر، كان الماء قد غسلني حرفياً من رأسي لقدمي.. وعندما سجدت كان وجهي مغموراً بالماء على أرض الحرم.. وكنت أشعر أن كل هذا يخفف من أثقالي وأدراني وذنوبي..

في سجودي تحت المطر ذاك كنت أهمس له.. أقول: يا رب.

* * *

عدت إلى الجناح وأنا أقطر ماء، في الطريق بين الحرم والجناح وجدت في قلبي شعوراً جديداً، كما لو أنه عز وجل قد أرساني..

الساعة الثانية عشرة في مكة. لا تزال العاشرة في ميدلزبره. اتصلت بأميلي.

كانت مع سارة طبعاً. سارة نائمة. سمعت صوت رايان وهو يبكي. ارتجف قلبي. نظرت إلى الكعبة أمامي ونزلت الدموع من عيني.

«أنت بخير؟». سألتني أميلي.

«أنا بخير، ولكن أريد أن تساعديني». قلت بعد أن انتظرت لثوانٍ ليعود صوتي إلى طبيعته.

«أكيد، دوماً يا هايد.. أساعدك في ماذا؟».

«في أن أسترد سارة».

«سارة ليست ملكاً لك أو لي كي تستردها يا هايد، عليك أن تتقبل هذا».

«أعرف أميلي، ليس استردادها بمعنى امتلاكها، بل بمعنى أن تعود ابنة لي.. لقد فقدتها كابنة، وأريد أن أعود أباً لها.. أريد منها أن تتقبلني.. وأنا سأتقبلها أيضاً.. سأتقبل لوك ورايان، لا أريد أكثر من كلمة يقولها لوك وورقة يوقعان عليها معاً. هل هذا كثير؟».

«تريدني أن أساعدك في إسلام لوك وفي زواجهما؟».

«نعم.. ألا يستحق ريّان سعينا في أن يكبر ضمن أسرة مستقرة؟».

تعمدت أن أقول ريّان، وليس رايان.

«المشكلة أنهما لا يعتقدان أن الورقة ستؤخر أو تقدم في هذا الاستقرار!».

«أحتاج مساعدتك في هذا.. أرجوك.. أتنازل أنا وتتنازل هي قليلاً.. ألست أباها؟ ألا تحبني؟ لا بد من وجود منطقة وسط بيننا».

«بل تحبك، أكيد تحبك».

«ماذا قلت أميلي؟ هل تساعدينني؟».

«نعم بالتأكيد سأفعل.. دوماً معك يا هايد».

شكرا أميلي.

سجدت أمام النافذة تجاه الكعبة وتضرعت لله أن يساعدني.

أحسست أن ثمة من يقول لي في ذهني: وأنت؟ ألن تساعد نفسك؟

بلى. سأفعل. سأتغير. سأكون أقرب. سأحاول على الأقل.

سمعت صوت ميادة: حيدر؟ لا تزال مستيقظاً؟ عليك أن تنام وترتاح. السيارة إلى المدينة ستنتظرنا مبكراً.

أحمد 8

ما كان يبدو معجزة يبدو الآن في متناول اليد.

من يصدق، بعد كل هذه السنوات، يبدو الحبس هو أفضل ما حدث لي، هو الذي أنقذني من الذبح على يد التتار.. وهو الذي يوصلني اليوم للخلافة..

طيلة سنوات حبسي العشر، لم أفكر لحظة واحدة أن الدوائر ستدور بحيث تأخذني إلى سدة الخلافة. كنت أطمع بأن يعفو عني ابن أخي، أن يقتنع بطريقة ما أن الأخبار التي وصلته عن مطامعي كانت مزيفة، رغم أنها لم تكن كذلك تماماً..

لم أكن أعرف أن أفضل ما حدث لي هو أنه رفض كل طلبات الرحمة التي كنت أقدمها له، يد الله كانت تبقيني في مأمن، بعيداً عن أعين التتار، بعيداً عن أعين الجميع، حتى تخرجني من هذا المأمن في الوقت المناسب، قدر الله كان قد جعل خلاص بني العباس على يدي أنا.. حماني من التنافس المحموم بينهم لعشر سنوات، أبقاني في محبس اختاره هو، لكي يحبس شر الجميع عني، ولكي يحبس عني سيف التتار.. ثم أرسل لي إسحاق ليسهل طريق خروجي، ثم البطريرك ليوصلني إلى شمس الدين، ثم شمس الدين ليوصلني إلى بني مهارش الذين جاؤوا بي إلى هنا.. قاهرة المعز.

قدر الله الذي اختار لي النجاة، اختار لي أن أكون الخليفة، كيف شككت بذلك لحظة واحدة، سبحانك يا الله وعفوك، مرت بي أيام وشهور وقد نسيت هذا، ولم أكن أطمع إلا بالخروج من السجن، لكن قدرك وعفوك ورحمتك أوسع وأجزل في العطاء..

سأعيد لبني العباس مجدهم وعزهم.. سأعيد لبغداد نورها وألقها، سأعيدها عاصمة الدنيا، سأجعل شمس الدين يتغزل في جمالها ويتغنى بعظمتها.. سأمحو كل ما فعله التتار بها، وأعيدها أفضل مما كانت..

أنا الخليفة الذي ستستقيم به الدنيا.. أنا ظل الله في الأرض..

إسحاق يهمس: لقد جاؤوا يا مولاي.. هيا بنا.

كل شيء أُعد بدقة للبيعة.

يقف قاضي القضاة تاج، سيعلن أولاً نسبي ويثبت أني ابن الخليفة الظاهر، عم الخليفة المستعصم.. ثم سيأتي السلطان الظاهر بيبرس ليبايعني، ثم يليه قاضي القضاة، ثم كبير العلماء العز بن عبد السلام.. ثم كبار القوم..

سألوني أن أختار لقباً لكي ينقش على السكة، فاخترت لقب أخي المستنصر بالله، كان قد أعاد لبغداد بعض هيبتها وعزها، بنى المدارس والمساجد والمستشفيات وهزم التتار.. سأكمل أنا دربه.

من اليوم.. أنا أحمد المستنصر بالله الثاني.

وسيأتي يوم يقال عن أخي أبو جعفر المستنصر أنه شقيق الخليفة أحمد المستنصر بالله، وعن أبي الخليفة الظاهر أنه أبو الخليفة المستنصر الذي أعاد لبني العباس مجدهم..

انتظريني يا بغداد، لن أبطئ عليكِ..

المستنصر بالله: أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد.

قال الشيخ قطب الدين: كان محبوساً ببغداد، فلما أخذت التتار بغداد أطلق فهرب، وصار إلى عرب العراق، فلما تسلطن الملك الظاهر بيبرس، وفد عليه في رجب ومعه عشرة من بني مهارش، فركب السلطان للقائه ومعه القضاة والدولة، فشق القاهرة، ثم أثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، ثم بويع له بالخلافة، فأول من بايعه السلطان، ثم قاضي القضاة تاج الدين، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الكبار على مراتبهم، وذلك في ثالث عشر رجب، ونقش اسمه على السكة، وخطب له، ولقب بلقب أخيه، وفرح الناس، وركب يوم الجمعة وعليه السواد إلى جامع القلعة، وصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا فيها للسلطان والمسلمين، ثم صلى بالناس، ثم رسم بعمل خلعة خليفة السلطان، وبكتابة تقليد له، ثم نصب خيمة بظاهر القاهرة، وركب المستنصر بالله والسلطان يوم الاثنين رابع شعبان إلى الخيمة، وحضر القضاة والأمراء والوزير، فألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده وطوقه، ونصب منبر فصعد عليه فخر الدين بن لقمان فقرأ التقليد، ثم ركب السلطان بالخلعة، ودخل من باب النصر، وزينت القاهرة، وحمل الصاحب التقليد على رأسه راكباً والأمراء مشاة.

(تاريخ الخلفاء 336)

* * *

وَكَانَ ممَّن نجا من سيوف التتار من بني الْعَبَّاس أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن الظَّاهِر عَم المستعصم الْمَقْتُول قيل كَانَ محبوساً بِبَغْدَاد فَلَمَّا أخذت التتار بَغْدَاد أطلق فهرب وَصَارَ إِلَى عرب الْعرَاق فَلَمَّا تسلطن الْملك الظَّاهِر بيبرس بعد الْملك المظفر قطز وَفد عَلَيْهِ إِلَى مصر فِي رَجَب سنة تسع وَخمسين

وستمائَة وَمَعَهُ عشرَة من بني مهارش عرب الْحلَّة الْبَلدة الْمَعْرُوفَة فَركب السُّلْطَان الْملك الظَّاهِر بيبرس للقائه ثمَّ أثبت نسبه على يَد قَاضِي الْقُضَاة تَاج الدّين ابْن بنت الْأَعَز الشَّافِعِي ثمَّ بَايعه بالخلافة السُّلْطَان ثمَّ قَاضِي الْقُضَاة الْمَذْكُور ثمَّ الشَّيْخ عز الدّين بن عبد السَّلَام ثمَّ الْكِبَار على مَرَاتِبهمْ وَذَلِكَ فِي ثَالِث عشر رَجَب من السّنة الْمَذْكُورَة وَضربت السِّكَّة باسمه وخطب لَهُ ولقب بلقب أَخِيه الْمُسْتَنْصر.

(سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل 530)

* * *

وفي سنة تسع وخمسين وست مئة، في شهر رجب، قدم إلى مصر جماعة من العرب، ومعهم شخص أسمرُ اللون، اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمدِ ابنِ الإمام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر، فعقد الملكُ الظاهر بيبرسُ مجلساً، أحضر فيه جماعة من الأكابر، منهم: الشيخ عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز، فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمدِ بنِ الإمام الناصر، فيكون عمَّ المستعصم، وأقام القاضي جماعة من الشهود، واجتمعوا بأولئك النفر، وسمعوا شهادتهم، ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فأثبت القاضي تاجُ الدين نسبَ أحمد المذكور، ولقّب: المستنصر بالله، أبو القاسم، أحمدُ بنُ الظاهرِ بالله محمد.

وبايعه الملك الظاهر والناسُ بالخلافة، واهتم الملك الظاهر بأمره، وعمل له الدهليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم له عسكراً، وغرم على تجهيزه حملاً طائلةً، قيل: إن قدر ما غرم عليه ألف ألف دينار.

(التاريخ المعتبر في أنباء من غبر 42-41)

ميادة 10

بعد صلاة الفجر، أسرعت إلى قاعة المطعم للإفطار، كانت مريم قد قالت إنها ستأكل في الطريق إلى المدينة بقايا الترايفل، وجدت سعداً وأباه في القاعة، كانا مستعدين على ما يبدو للسفر، عمو في ملابس الخروج، وسعد وضع بجانبه حقيبة متوسطة الحجم. فكرت أنه ربما يكون الوقت المناسب لمفاتحة سعد. هو وحده الآن. أستطيع أن أتحدث معه دون وجود مريم وحيدر. آمل أن لا يأتي أحد منهما الآن.

كان سعد يقرأ شيئاً على هاتفه، وأخذ يضحك بشدة.

«ما الأمر؟ أشركنا في الضحك معك». قلت له.

«تذكرين خلدون؟ صديقي خلدون؟».

«تقصد صديقك الوحيد خلدون، طبيب الأسنان». قلت وأنا أضحك. كان صديقه الوحيد بالفعل، وكان نسخة معاكسة له في كل شيء، مقابل ثقل دمٍ وحضور سعد أيامها، كان خلدون خفيف الدم والظل، سريع البديهة ولطيفاً للغاية.

«نعم، صديقي الوحيد فعلاً». رد سعد وهو يضحك.

لو قلتها قبل عشر سنوات لتحول الأمر إلى معركة ولوجد سعد عشر جمل لئيمة ليجعلني أبكي في نهاية الحوار.

«كيف هو؟ أين حل الدهر به؟».

«في بغداد، ما شاء الله ناجح جداً، ولديه أربعة أطفال، 2-2، ولم يعودوا أطفالاً الآن أصلاً».

«ما شاء الله، يستاهل كل خير». لم أكن أذكر أنه قد تزوج أصلاً. فكرت أن أسأل من تكون زوجته ولكن قدرت أن فضولي الآن لن يكون مناسباً، لأنه سيضيع الوقت وأنا لديَّ ما أريد أن أقوله قبل أن يأتي حيدر أو مريم.

«أرسل لي رسالة الآن، يقول لي بما أني في مكة الآن في هذه الفترة، فلا بد من سماع أغنية «لاست كريسماس last Christmass» لجورج مايكل والترحم على روحه».

ضحكت بشدة وأنا أقول «غير مضحك أبداً».

«ثم كتب يقول إن بقيت في مكة إلى نهاية السنة، فلا بد من سماع أغنية «Happy New Year» لـ ABBA والدعاء لهم بدوام الصحة والعافية، بما أنهم سيعودون للغناء بعد 30 عاماً من الانفصال، وسيصدرون أغنية جديدة، ويقومون بجولة حفلات وهم على العكاز».

«حقاً؟».

«جولة على العكاز لا أعتقد، هذه من زيادات خلدون، لكنهم سيصدرون أغنية جديدة فعلا».

«كنت أحب جورج مايكل كثيراً.. ABBA كانوا منتشرين أكثر في جيلكم».

«نعم، نعم، جيلنا، باعتبار أني أكبر منك بعشرين سنة، هي كلها أربع سنوات».

«خمسة، وتفرق كثيراً في حساب الذائقة الموسيقية في تلك الفترة».

«صحيح، لكن جيلي أحب جورج كثيراً أيضا».

«أعتقد أن أغنية Careless whisper[1] كانت الأولى في العراق طيلة فترة الثمانينات».

« نعم.. ولا تنافسها إلا « Hello»[2] ....»

---

(١) أغنية رائجة في منتصف الثمانينات للمطرب البريطاني جورج مايكل

(٢) أغنية رائجة في منتصف الثمانينات للمغني الأمريكي ليونيل ريتشي

«صحيح، ولكن البنات كن مجنونات بجورج مايكل، وكان الشباب يقلدونه، كان رمزاً للرجولة في الثمانينات، ثم اتضح أنه كان مثلياً، لقد خدعنا جميعاً». قلت وأنا لا أزال أضحك.

«نعم، جيلي وجيلك شرب المقلب كاملاً، كمثال على كل المقالب الأخرى التي شربناها». قال بمرارة وهو يضحك.

«وانتهى الأمر بمغني الكريسماس الأخير، أن يموت في يوم الكريسماس بالذات، مثل هذا اليوم، سبحان الله، قادر يا الله.. مات وحيداً وقد أصبح بديناً ومدمناً على الكحول، ذهب لدار حقه أياً كان، نهاية تصلح لموعظة نستغفر الله فيها عن ذكرنا لكل هذا الآن».

كنت أريد أن أغلق الموضوع قبل أن نستذكر مادونا ومايكل جاكسون بما أننا فتحنا سيرة الثمانينات. خلدون هذا سيضيع علينا عمرتنا.

قال سعد: بغض النظر عن أي شيء، كلمات الأغنية التي تعبر عني الآن لا علاقة لها بكل هذا، إن كان هناك من شيء يمكن أن أسمعه في آخر يوم في السنة فهو شيء مختلف تماماً.

ماذا ستسمع؟ سألته وأنا أريد أن ينتهي هذا الموضوع لأدخل في المهم.

قال: ولو تزعل، ياس خضر. كل الطرق تؤدي إلى ياس خضر كما قلت لك.

تذكرت كلمات الأغنية.. ولو تزعل، ولو أدري، العتاب يعذب الخاطر، لكن لا، ما أخلي الخصام يدوم للآخر، نتعاتب على المكشوف، وبعينك أقلك شوف..

خلص عمري، خلص عمري..

وصفيت بعشرتك خاسر..

«صفيت بعشرتك خاسر؟ لمن تقولها يا سعد؟». سألته.

«من غير نصيبي؟ أنا الخاسر الأكبر يا ميادة». قال مع ابتسامة أشد حزناً من أي بكاء.

هزتني كلمته وشعرت بصدق ما قال. لكن لا مجال عندي الآن لمواساته.

قلت دون مقدمات: سعد، أنا خائفة على مريم.

تغير وجهه «ماذا حدث؟».

«لا، لم يحدث شيء، لكن ما حدث مع سارة ألا يوحي لك بكل المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها مريم؟».

«ماذا تقولين؟ بالتأكيد الأمر مختلف مع مريم. لا أنتِ مثل أم سارة – مع كل احترامي لها أنا لا أعرفها – ولا أنتِ مثل حيدر، مريم ناضجة وعاقلة، وما شاء الله عليكِ، ربيتِ وأحسنتِ التربية، تعبك عليها واضح يا ميادة».

«الحمد لله، لم أقصد بالضبط كما الأمر مع سارة، لا.. أنا واثقة من هذا، واثقة بأن الأمور مستحيل أن تصل حتى لشيء قريب من هذا، لكن مريم كل مجموعتها في الجامعة بريطانيات من أصل بريطاني أو في بريطانيا منذ فترة طويلة، ليس لديها أي أصدقاء عراقيين مثلاً، وهي كبرت، اقتربت من سن يمكن فيها أن يتقدم لها أحد.. أو ترتبط هي بأحد».

«هل هناك أحد؟».

«لا، لكن لو أصبح هناك أحد، في الظروف الحالية، فمن الصعب جداً أن يكون عراقياً، وأنا أريده أن يكون عراقياً يا سعد».

«بالتأكيد، لازم عراقي، ولكن لماذا صعب ذلك الآن؟».

«لأن ميدلزبره التي نعيش فيها لا عراقيين فيها إطلاقاً غيرنا، نحن وحيدر، «ذاك من ذاك[1]» لما يكون هناك عراقي بالمنطقة كلها.. العراقيون متمركزون في لندن، هناك أكثر من 150 ألف عراقي هناك، جالية قوية وشبكة علاقات

(١) أمر بعيد وغير محتمل بحيث أن يسمي «ذاك» لبعده.

قوية ومن السهل جداً أن يتقدم لها كثيرون، ليس فقط لمواصفات شخصيتها.. بل أيضاً لأنها «بكر آغا - آل باقر» يعني يمكن للمتقدمين أن يكونوا من السنة أو الشيعة.. السنة سيقولون: مريم عمر بكر آغا، سنية طبعاً.. والشيعة سيقولون: سنية لكن أمها شيعية وهي التي ربتها!.

«الحل لكي تتزوج مريم من شخص عراقي هو أن تنتقلوا إلى لندن؟». سأل سعد.

«الحل هو توفير بيئة مناسبة لكي تراها العائلات العراقية، نحن في المنفى في ميدلزبره، الذهاب إلى لندن سيجعل مريم «مرئية» على الأقل.. والباقي قسمة ونصيب، ومريم أيضاً ذات شخصية مستقلة ومعاييرها ليست سهلة، لن تقبل بأي كان».

«أسعار العقارات في لندن غالية جداً صحيح؟». سألني سعد وأزاح عني هم الدخول الصريح في الموضوع. أنا أبدو استغلالية بكل الأحوال، لكن الأمور ستكون أسهل لو كانت أقصر.

«نعم، جداً، خاصة في المناطق التي يتركز فيها العراقيون، ولكن هناك طبعاً أماكن أنسب».

«متى تعتقدين أن ذلك يجب أن يحدث؟».

«مع تخرجها تقريباً، خلال عامين».

سكت وهو يفكر، ثم أخذ هاتفه وسألني: ما المنطقة التي يكثر فيها العراقيون؟

قلت: ممكن كنغزتون أو آكتون، ولكن هناك أماكن أخرى أقل سعراً.

نقر شيئاً على هاتفه ثم صفر وهو يرفع حاجبيه. لا بد أنه قرأ السعر!

«هناك أسعار أقل». قلت له، وقلت لنفسي وهذا كله يؤثر في الزواج.

«طبعاً إن انتقلتِ إلى لندن ستبيعين البيت الحالي في ميدلزبره؟».

«نعم بالتأكيد، لكن فرق السعر كبير، قد يصل إلى خمسة أضعاف وأكثر، فرق سعر المتر المربع بين لندن وميدلزبره خرافي، لذلك فبيع المنزل في ميدلزبره لن يكفي حتى لشراء شقة بحجم « كنتور»[1] في لندن، الفكرة هي أني أرغب في سحب مريم إلى لندن، سواء للسكن والعمل أو للدراسة، هي تفكر بإكمال دراستها هناك، في الجمعية المعمارية في لندن، حيث تخرجت زها حديد، وهو أمر ترغب فيه مريم أساساً، ولكنه صعب من دون الحصول على منحة دراسية تغطي كلفة الدراسة، والحصول على هذه المنحة ليس مستحيلاً، لكنه قد يتأخر.. ووجودها في لندن للدراسة ليس مثل وجودي معها هناك.. مجرد وجودنا في لندن سيسهل ظهور مريم في تجمعات الجالية ومناسباتها، وهذا سيسهل كل شيء لاحقاً».

أردت أن أوضح أن كلفة الدراسة حسب هذه الخطة، تقريباً 30 ألف باوند أخرى إن لم نحصل على «معونة طلاب»، ولكن قلت لنفسي «كفى».

ردد سعد: من يدري؟ قد تكون مريم بكر آغا ذات يوم بنفس شهرة ومكانة زها حديد؟

آمين يا رب العالمين. لكن زها لم تتزوج. أريد لمريم أن تتزوج ، قلت في سري.

قال سعد: تعرفين طبعاً أننا لا نملك من نهتم به غير مريم. هي كل ما بقي، ليس من المرحوم عمر فحسب، ولكن من أبي أيضاً ، هي كل من سيبقى من نسله.. وأنا شخصياً أثق جداً بقراراتك، لذا فسأعمل كل ما يمكنني لتنفيذ خطتك، لكن أحتاج بالتأكيد وقتاً لذلك.

بهذه السهولة؟ كنت أؤجل الأمر منذ أن قابلته. وكل ساعتين ترسل أمي رسالة تسألني إن كنت قد أخبرته أم لا.

يبدو الآن كما لو كان يمكن حله بمحادثة واتس آب.

---

(١) كنتور: دولاب، خزنة ملابس.

كان عمو يكتب في الدفتر وهو يتحدث بصوت خفيض.

ثم رفع عينيه ونظر لي وقال: أنا أعرفكِ.. أنتِ زوجة عمر.

قمت واحتضنته: الله يديمك لنا يا عمو.

مريم 10

الطريق بين مكة والمدينة يستغرق خمس ساعات.

في البداية لم يكن ضمن خطتي أن أذهب إلى المدينة. أنا جئت من أجل دراسة تصميم الحرم المكي وبوقت محدود للغاية، لماذا أنفق يومين من وقتي المحدود في الذهاب للمدينة؟

هذا كان قبل أن آتي إلى هنا. الكلام كان نظرياً جداً، لكن التجربة المكية غيرت كل شيء. اتضح أن لديَّ مجسات تستشعر عوالم ما تخيلت وجودها. شعرت أني أريد أن أستكمل التجربة هناك في المدينة. لا بد أن أمنح مجساتي فرصة نموها.

جلست مع جدي في المقعد الأمامي المجاور للسائق، بينما جلست أمي مع خالي وعمي في المقعد الخلفي. أحببت شعور القرب من جدي، العطر الذي يحيط به كان عاملاً جاذباً، أو ربما كان لديَّ قابلية الانجذاب أصلاً بغض النظر عن العطر، لأن لديَّ جوعاً في داخلي لأبي الذي لا أذكره تقريباً، أو للقرب من «الجد» الذي لم أعرفه من الجانبين.

كان جدي يبتسم لي بحنان، وسألني: أنتِ ابنة عمر؟ صحيح؟

قلت له: نعم جدّو..

قال لي: عمر لم يخبرني أنكِ أصبحتِ جميلة هكذا، كان معي أمس، ولكنه لم يقل ذلك.

قلت لنفسي: عمر لا يعرف أيضاً يا جدي.

كنا لا نزال قريبين من الفندق عندما أشار السائق إلى منطقة مرتفعة وقال «هذه شعب أبي طالب»، وكان واضحاً أن كل من في المقعد الخلفي يعرف عم يتحدث السائق، سألتهم: ما هذا؟

قال عمي: مكان في الجبل حاصر فيه كفار مكة المسلمين.

قال خالي: وكان يعود لأبي طالب، والد الإمام علي عليه السلام، للأسف لم يبق شيء من بيوت آل البيت سلام الله عليهم في مكة، تم هدمها لبناء الفنادق والمولات.

قال الجملة الأخيرة بطريقة غريبة، كما لو أنه يريد أن يغيظ أحداً.

قالت أمي فوراً: لكن يا حيدر لا يمكن أن تنكر الرعاية والخدمات الموجودة في الحرم، الحرم دائماً نظيف رغم وجود هذا العدد الهائل من البشر.

لم أفهم الربط بين الجملتين.

قال عمي بلهجة من يريد أن يغيظ أحداً أيضاً: في الحقيقة كنت أتمنى لو كانت البيوت موجودة، لكن عقلية بعض شعوبنا لا تحتمل ذلك، سيتركون الكعبة ويطوفون حول البيت ويتعلقون به، لذلك ربما من فوائد هدم الآثار هو جعل الناس يركزون في الشعائر الأساسية.

بدأ خالي يقول شيئاً عن «الهدم»، لكن أمي قاطعته بحدة: والله العلي العظيم إن لم يتوقف هذا النقاش الآن فسأنزل وأرجع إلى الفندق واذهبوا إلى المدينة أنتم.

لا بد أن خالي كان سيقول شيئاً مستفزاً جداً. لا تستخدم أمي هذه الورقة إلا في الملمات. وقد نجحت. سكت الاثنان.

لكن كلام عمي بدا معقولاً، كل الشعائر التي تؤدى في مكة لم يكن لها علاقة مباشرة - حسبما فهمت - بأي شيء من حياة النبي، الشعائر تتعلق بإبراهيم أكثر. لو كانت هناك آثار للنبي أو بيت له أو مواضع معروفة له، لكان

الناس حولوها إلى أماكن مقدسة، وسيشوش ذلك حتماً على صفاء الاتجاه نحو الله.

شعرت هنا أن الذهاب إلى المدينة وزيارة المسجد الذي بناه النبي وقبره، سيعوض عن عدم وجود آثار في مكة. العلاقة مع النبي يمكن أن تبنيها في المدينة.

التفت لي جدي وسألني: هل لا تزالين تحبين «الفستق عبيد»؟

فستق عبيد؟

قالت لي أمي: يعني الـ peanuts.

فستق عبيد. تذكرته فجأة. تذكرت رائحته. كان يأتي به ساخناً. جدي هو الذي كان يأتي به. تذكرته يهبط من السيارة وأنا أركض نحوه. هل جئت لي بـ «عبيد»؟

قلت فجأة: محمد المصري.

شهقت أمي: كيف تذكرته يا مريم؟ سبحان الله.

قال جدي: ماذا كنت أجلب لك أيضاً؟

سبقتني دموعي: شامية وشيبس. من محمد المصري أيضاً.

سألت أمي: من هو محمد المصري؟ أذكر اسمه فقط ولكن لست متأكدة من شكله.

رد عمي: كان لديه كشك أمام عمارة جدك، يبيع فيها بيبسي وحلويات وشيبس.

سألت أمي: هل لا يزال محمد المصري موجوداً؟

أجابها عمي: نعم، ولكنه استأجر محلاً قريباً بدلاً من الكشك، قريب تقاطع الرواد. أموره جيدة وتزوج من عراقية كانت تعمل في مكتبة قريبة.

قال جدي: إذن أنت تذكرين!

قال عمي بصوت منخفض: هذه أول مرة يذكر فيها أبي شيئاً واضحاً دقيقاً منذ أشهر. الحمد لله. شكراً لك مريم. منحتِه قوة على ما يبدو وأنعشتِ ذاكرته.

قلت لجدي وأنا أحتضنه: نعم، الآن أذكر يا جدي.

سألني: هل ترين والدك كثيراً؟

قلت له: للأسف لا.

سألني بصوت منخفض: هل تريدين أن تقولي شيئاً له، عندما أراه في المرة القادمة؟

هبطت دمعة مني وأنا أقول له: قل له إننا نحبه كثيراً، وإن أمي تفتقده كثيراً، وأخبره أننا بخير وأني دخلت الجامعة.

مد جدي يده المرتجفة ومسح دمعتي وقال: إن شاء الله سأفعل.

وضعت رأسي على كتف جدي. ونمت.

في نومي رأيت أبي. رأيته كما لو كنت أتظاهر بالنوم وأراه من عين نصف مفتوحة. سمعت صوته وهو يقول مريومة؟ نمت؟ لم أرد كي يصدق أني نائمة. مد يده وأخذ يداعب قدمي ليضحكني. ضحكت وفشل تمثيلي. كنت مستيقظة تماماً ولكني أريد أن أنام في سرير أمي وأبي. غنى أبي لي شيئاً، ميزت اللحن فقط، الكلمات كانت غريبة. عن بابل وسومر. أو شيء كهذا. سمعت أمي تقول: خلص عمر خليها تنام اليوم هنا. أحلم أني فتحت عيني ليلاً ورأيت أبي يحتضنني وهو نائم.

سمعت صوت عمي يقول شيئاً. أريد أن أكمل الحلم. أريد أن أبقى في حضن أبي. لكن صوت عمي ينزعني من الحلم.

بابا.. بابا.. تسمعني؟

استيقظت مذعورة. السائق يوقف السيارة على الجانب بسرعة. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ أسأل ولا أحد يجيب. عمي لا يزال يتحدث مع جدي وجدي أسند رأسه على النافذة بلا حركة.

نزل خالي بسرعة وفتح باب السيارة ووضع يده على عنق جدي وهو يقول بصوت مرتفع: عمو.. عمو.

أنزلوا جدي من السيارة، وأخذ خالي يقوم بإسعافه. قبلة حياة. ويضغط على صدره. ثم يعيدها. ويعيدها. لا استجابة.

عمي على الأرض قرب وجه جدي. يبدو فزعاً مشدوهاً أكثر من أي شيء آخر. أقف مع أمي على جانب الطريق، أريد إخبارها إنه قال لي للتو إنه سيرى أبي وسألني إن كان هناك ما أقوله له. لم أجد صوتي لأقول شيئاً. كانت تبكي وتضع يدها على فمها كي لا يخرج صوتها.

قال خالي: ليتصل أحد بالإسعاف.

قال السائق: اتصلت بهم.

كنا على بعد عشرين كيلومتراً من المدينة.

وكنت أعرف أنه مات.

انتهى حلمي، فور أن بدأ.

حيدر 10

في اللحظة التي وضعت فيها يدي على عنق والد سعد، عرفت أنه مات.

عندما حاولت معه، كنت أفعل ذلك بحكم الواجب المهني. حتى لا يقال لم يفعل شيئاً. لكني بعد كل تلك السنوات من الطب، أميز الميت عندما أراه.

لم أكن أريد أن أقول لسعد إن أباه مات. كنت أريده أن يعرف هو بنفسه. أو أن يقول له موظفو الإسعاف عندما يأتون. استمرت محاولاتي فقط لأتجنب النظر في عينيه. لكن مع الوقت، بدأ صوت سعد يتغير. وتوقفت عن المحاولة. جاءت ميادة وجلست قربه على الأرض وأخذت تقرأ القرآن، جاءت مريم معها، كانت تبكي جدها بطريقة هيستيرية.. جدها الذي تعرفت عليه قبل أيام فقط.. لم أر مريم تبكي من قبل، حتى عندما كانت صغيرة، كانت تحبس دموعها وترفض أن تنزلها بعناد. بالنسبة لي كانت مريم دائماً شخصية منغلقة وترفض التعبير عن مشاعرها، وكنت أفسر ذلك كوسيلة دفاع نفسية ضد ما مر بها مع والدها.. الآن تبدو كما لو أنها تخرج كل ما احتبسته منذ طفولتها، دفاعاتها انهارت وقررت أن تبكي الآن بالنيابة عن كل أحزان طفولتها.

اقترب سعد من أبيه وأمسك يده وأخذ يقبلها.

شعرت بالغيرة من سعد. امتلأت بالغيرة لأنه امتلك هذه اللحظات التي لم أمتلكها أنا. أن يكون مع أبيه عندما يموت. أن يقبل يديه بينما الروح قد تركتها للتو. أن يشهد أنفاسه الأخيرة. وأن يحضر دفنه. وأهم من كل هذا أن يكون معه في سنواته الأخيرة.

ليست مجرد لحظات نالها سعد بالصدفة. بل سنوات بقي بجانب والده، جعلته مستحقاً لتلك اللحظات التي لم أنلها أنا لأني لم أستحقها. شعرت

بالخجل من غيرتي من سعد.

فكرت: بدلاً من أن أكون أنا بجانب أبي وهو يموت، وقف عمر بجانبه. وها أنا أقف أمام والد عمر وهو يموت. سبحان الله. من كان يتصور أن يحدث هذا؟

طلب سعد القرآن من ميادة. فتحه وأخذ يقرأ بصوت مسموع..

﴿يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

بدأ صوته متحشرجاً كما لو كان يختنق، ثم أصبح أقوى وأوضح بالتدريج. كما لو أن الآيات صارت تمده بالقوة، كان مختنقاً وأعطته الآيات دفعة حياة. قبلة حياة. كلما كان يقرأ أكثر كان صوته يصبح أقوى وأجمل.

ثم وصل..

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

حل نوع غريب من السكون علينا جميعاً. نشيج مريم صار دموعاً صامتة. ميادة كانت تحتضنها وتربت عليها، وسعد كان يحرك جسده إلى الأمام والخلف وهو يقرأ، وكان يقترب في كل مرة أكثر من أبيه المسجى على الأرض..

ملأتنا الآيات الأخيرة بأمل لقاء لاحق مع من نفارقهم. فكرت بأبي

ويميثم. ولا بد أن ميادة فكرت بهما أيضاً، وبعمر، بالتأكيد.

ولا بد أن سعداً فكر بأبيه الذي فارقه للتو.

كان الجو غائماً، ثم بدأت تمطر مطراً خفيفاً كالرذاذ، حاول سعد أن يحمي وجه أبيه، فاحتضنه ليسقط المطر عليه بدلاً من أبيه.

وصلت سيارة الإسعاف، هبط منها شابان بملابس طبية، عرفت بنفسي وقلت لهما تشخيصي: سكتة قلبية أثناء النوم.

فحص واحد منهما النبض والقلب، ثم قال: أحسن الله عزاءكم.

بدت كلمة العزاء مفاجئة لسعد، كما لو أنه لم يستوعب الأمر حتى اللحظة، أو كان يتمنى حدوث معجزة، فانهمرت دموعه مجدداً، قلت أنا بصوت مرتفع: رحم الله والديه من قرأ سورة الفاتحة.. ورفعنا جميعاً أيدينا نقرأ الفاتحة بينما كان المسعفان يضعانه - رحمه الله- على السرير المتحرك وينقلانه إلى سيارة الإسعاف.

أمسكت سعداً من كتفه وقلت له هامساً ما يقال في العزاء: البقية بحياتك، اللي خلف ما مات..

فوجئت به يحتضنني بشدة ويجهش بالبكاء. غيَّر ذلك من هدوء الجميع، وجدت نفسي أحتضنه أيضاً وأبكي.. لم أكن أعرف من كنت أبكي.. هل كنت أبكي أبي أم أبيه أم أخي أم أخيه.. صديق عمري ونسيبي؟

أم كنت أبكي نفسي.. وسارة.. وكل شيء..

وقف الشاب المسعف جانباً ينتظر انتهاء عاصفة البكاء، وعندما خفت قليلاً سأل عمن يكون الأقرب للمتوفى، وطلب بعض المعلومات ليكمل ملء بياناته.

كان أمامنا يوم حافل بالإجراءات.

سعد 10

في الطريق إلى المدينة شاهدت أبي وهو يهمس لمريم بشيء، ثم رأيتها تضع رأسها على كتفه.

رأيته يعدل من وضع رأسها بحيث يكون مريحاً، وبدت لي نائمة. اقترب أبي من جبهتها وقبلها، ورأيت على شفتيه ابتسامة لم أرها منذ أن قُتل عمر.

كنت سعيداً جداً بما أراه. قبل أن نأتي إلى العمرة ما كنت أطمح بنصف هذا الذي أراه الآن. كنت خائفاً من أن نكون فقدنا مريم إلى الأبد، فقدنا عواطفها ومحبتها، لكن الآن، أعرف أن الله كان كريماً معنا فوق ما كنت أطمح. الحمد لله، يستحق الحمد.

أعتقد أني غفوت قليلاً، ثم انتبهت إلى أن أبي قد مال برأسه على النافذة. اقتربت منه كي أرى حركة تنفسه. أفعل ذلك منذ أكثر من عشر سنوات. أدخل إلى غرفته وهو نائم فأراقب حركة صدره لأطمئن، ثم أخرج.

لم أر حركة صدره الآن. قلت في نفسي ربما وضعيتي هذه لا تسمح برؤية تنفسه، عدلت من وضعه، لكنه عاد فوراً. عودته كانت متخشبة جداً.

حركته لأوقظه. حركة هادئة أولاً. لا استجابة. حركته بقوة أكبر. لا استجابة. هززته بشدة وأنا أقول بصوت مرتفع: بابا.. بابا.. هل تسمعني؟

هنا انتبه الجميع. أوقف السائق السيارة بسرعة على جنب الطريق. مريم تسأل بفزع عما يحدث. حيدر ينزل ويفحص أبي. أقف أنا كالمتفرج المرتعب مما يدور حوله. انتظر أن ينتهي الكابوس. الكابوس الذي كنت أخشاه منذ أكثر من عشر سنوات، والذي أجد نفسي متفاجئا به كما لو أنه لم يكن في

بالي..

حيدر كان يحاول إسعاف أبي. كنت أنتظر نهاية سعيدة. أن يشهق أبي فجأة وينتهي الأمر. حبست أنفاسي. لم أعد أسمع شيئاً. ثمة صوت يطن في أذني، كما لو أني أهبط من طائرة. حيدر يكرر المحاولة وأنا معلق بشفتي أبي. الآن سيشهق. الآن.

لكنه لم يفعل. استمر حيدر بالمحاولة حتى أنهك، لا أعرف كيف وصل القرآن ليدي، كان مفتوحاً على سورة يس، وبدأت أقرؤها بصوت مرتفع وأنا أحاول أن أتذكر لم تُقرأ هذه السورة بالذات. تقرأ على الموتى. أذكر أني سمعت أن الأمر مجرد بدعة. من فتح القرآن عليها يا ترى؟ لا بد أنها ميادة. ثم استوعبت الأمر. أبي مات. أنا أقرأ سورة يس لأنه مات.

جاء المسعفون. قلت ربما يحدث شيء. لكن لم يحدث. قال واحد منهم: أحسن الله عزاءكم.

ثم قال حيدر «الفاتحة».

كان هذا بمثابة إصدار شهادة الوفاة. أبي مات «رسمياً» الآن.

دفنت عمر، ودفنت أمي، وها أنا أدفن أبي أيضاً. فكرت: لم يبق أحد ليدفنني.

سمعت حيدر يواسيني: اللي خلف ما مات.

لن تقال هذه عندما أموت أنا. وعملياً لا يجب أن تقال حتى عن أبي. لقد خلف اثنين، واحد منهما لم يرزق بذكر يحمل اسم جده. والآخر لم يخلف شيئاً. أستغفر الله. أستغفر الله.

انفجرت باكياً وأنا أحتضن حيدر.

سمعت كلمات المواساة والدعم من ميادة وحيدر، وانتبهت إلى صوت مريم وهي تبكي. كان صوت بكائها هو مواساتي الحقيقية. على الأقل كانت هناك

فرصة لتعرفه وتبكيه.

انتبهت إلى صوت المسعف يسأل عن معلومات ليكمل إجراءاته، بينما كان أبي يُحمل إلى سيارة الإسعاف.

صعدت ميادة معي، حاول المسعفون منعها لكنها لم تكترث، جلست أمامي وأبي مسجى بيننا وقد غُطي وجهه بملاءة بيضاء. حاولت إزاحتها ولكن ميادة منعتني وقالت لي: استهد بالله يا سعد، عليك أن تقوي نفسك.

كنت أريد أن أقول لها: لماذا؟ لماذا عليَّ أن أقوي نفسي؟ من أجل من؟ كل من يقال له ذلك يكون عليه أن يستجمع قواه من أجل شخص آخر، لكي يسنده، من لي أنا كي أكون قوياً من أجله.

أمسكت بيد أبي من تحت الملاءة، كانت باردة جداً، كنت على وشك أن أهب لتدفئته. ثم تذكرت. انتهى هذا الأمر. ذهب الدفء. جاء موسم البرد الدائم.

لا أذكر الكثير مما حدث، لكن ميادة طلبت مني رقم الحجي ثامر، أعطيتها الهاتف فقط وأخذت تبحث عن رقمه هي، سمعتها تحدثه ثم سألتني عن جواز أبي فأخرجته من سترتي، تركت لها قيادة الأمر. كنت منهكاً ولا أقوى على تدبير شيء.

وصلنا إلى المستشفى، يجب فحص أبي من قبل الطبيب، وبعدها يجب أن يكون هناك إجراء آخر في مكتب حكومي لإصدار شهادة الوفاة، وبعد ذلك يصدر تصريح بالدفن.

سمعت الكلمة فانتبهت، دفن، أين ندفنه؟ أريد أن آخذه معي إلى بغداد. لدينا مدفن خاص بالعائلة في مقبرة الكرخ في «أبو غريب» . قبره بين قبر عمر وقبر أمي. ترك هو مساحة فاصلة بينهما وقال: ادفنوني هنا. بينهما.

قالت لي ميادة: وما تدري نفس بأي أرض تموت يا سعد.. بكل الأحوال علينا أن ننتظر الحجي ثامر، قال لي إنه سيأتي فوراً، وهذا يعني خمس

ساعات في أحسن الأحوال.

بعدها قالت لي ميادة أن أذهب إلى الفندق لأنام، وسيأتي حيدر هنا بالقرب من «عمو» ويتصل في حالة الحاجة لي. كنت شارداً وساهماً ولا أعرف بم أفكر، فقالت لي إن أمامي الكثير من الإرهاق، ويجب أن أرتاح الآن ما دمنا سننتظر مجيء الحجي ثامر بكل الأحوال.

كنت بحاجة إلى النوم بالفعل. ربما كنت بحاجة إلى الهروب من كل شيء عبر النوم. انتظرنا حيدر وذهبنا أنا وميادة إلى الفندق، كانت الغرفة التي حجزتها في المدينة لشخصين بطبيعة الحال، وجدتها موحشة وكئيبة مع وجود السرير الذي كان يفترض أن ينام أبي عليه. كان حيدر قد وضع الحقيبة وكرسي العجلة في المدخل. سيدفن أبي وسيبقى كرسي العجلة.

أعطتني ميادة حبة وقالت لي إنها ستساعدني على أن «يصفى رأسي».

لم يصف رأسي لكني نمت، حلمت بأشياء كثيرة مشوشة، حلمت بسوسن وأطفالها ومدرستي عندما كنت صغيراً وبعمر وأمي وشجرة زيتون في حديقة البيت وبصديق لم أره منذ أيام الثانوية.

نمت قرابة خمس ساعات متواصلة. استيقظت على صوت قرع الباب. ميادة تقول إن الحجي ثامر قد وصل وأن علينا الذهاب الآن إلى المكتب الصحي. كان حيدر قد سبقنا إلى هناك وبقيت مريم في الفندق.

أول ما رآني الحجي ثامر أخذ يبكي على نحو مفتعل، أو أن الحبة التي تناولتها كان لها مفعول يجعلني بارد المشاعر. لم أتفاعل معه أبداً. فور أن انتهى من البكاء دخل في دور آخر تماماً: معقول يا أبو سعود تريد أن تنقل المرحوم لتدفنه في بغداد؟ عدا عن صعوبة الإجراءات والوقت الذي تستغرقه الموافقة وتأخير الدفن، هل هناك من يفضل مقبرة الكرخ على مقبرة البقيع؟ البقيع يا رجّال. الصحابة وزوجات النبي عليه الصلاة والسلام وآل البيت.. من يحصل على هذا؟!! كل من معنا في الحملة عندما عرفوا قالوا ليتهم يموتون مثل موتة الحجي ويدفنون في البقيع. أنا شخصياً أتمنى أن أموت الآن

في المدينة كي أدفن في البقيع.. هذه «ميتة» يحسد عليها الميت!

قال ذلك فعلاً!

البقيع؟! لم يقولوا لي إن الدفن سيكون في البقيع.

هزت ميادة رأسها كأنها تؤيد الحجي ثامر ثم قالت: الأمر أولاً وآخراً لك. لكن كلام الحجي ثامر صحيح. من يحصل على ميتة كهذه؟ «عمو» طيب.. وهذه أكيد بشارة على الجنة إن شاء الله.

كنت قرأت عن فضل الدفن في البقيع. لا أذكر الآن إن كان الحديث في ذلك صحيحاً أو ضعيفاً، لكن بغض النظر عن ذلك، مجاورة الصحابة وآل البيت أمر مغرٍ جداً.

فكرت بمقبرة «أبو غريب» والمساحة التي تركها والدي بين عمر وأمي. فكرت بشجيرات «الياس» المزروعة على قبريهما. يبدو أن المساحة ستبقى فارغة إلى أن يأتي وقتي.

أكمل الحجي ثامر حملته في الإقناع: يُصلى عليه الفجر في المسجد النبوي، تخيل يا أبو سعود، الآلاف يصلون على الحجي في المسجد النبوي ويترحمون عليه ويستغفرون له، لو صلينا عليه في بغداد كم واحداً سيأتي، أنت «ما عندك أحد أصلاً» ولو جئت بكل أقاربك وجيرانك وأصدقائك لن يصل العدد إلى ثلاثين..

نظرت له وأنا أتساءل عن درجة ذكائه العاطفي بحيث يقول جملة كهذه.

قلت: البقيع .. نعم.

إسحاق

في اللحظة التي وصل فيها أحمد إلى مصر، ورأى استقبال الناس له، تغير تماماً، حتى قبل أن تتم له البيعة.

لم يعد نفس الشخص الحذر الذي يطيع ما أقوله له لأنه يعرف أني أعرف أكثر منه. تغير فجأة. حذره كان

ربما محض غطاء أورثه السجن إياه، عندما رأى أن القوة أصبحت في متناول يديه، أصبح مختلفاً تماماً، كما لو كان قد خلط بين الحذر وبين تردد المستعصم، فذهب إلى الطرف الآخر باندفاع وتهور..

هذا الجيش الذي جهزه له السلطان، قاده بلا خطة، يريد أن يذهب ليستعيد بغداد على الفور، نقل له البعض أن عادة التتار هي تخريب المدن ثم تركها، فظن أن الطريق إلى بغداد سيكون سهلاً، ولن يقابله التتار، حاولت أن أثنيه عن الأمر، قلت له إن ذلك لم يبد أبداً مما رأيناه منهم من الترتيبات التي أعدوها في بغداد، فأصر أن هزيمتهم في عين جالوت لا بد أن تكون قد غيرت من ذلك، وأن كتب أهل العراق كانت تحثه على المجيء بسرعة، فقلت له: ألا يذكرك هذا بشيء؟ ألم يحدث مع ابن عمك شيء مماثل؟

غضب هنا واحمر وجهه وبدا عليه أنه تشاءم.. ثم رفض أن يسمع لي تماماً.

بعد يومين من تجاوزنا لحديثة وعانة أغار علينا التتار، كنا لقمة سائغة، لم تكن هناك عيون تسبقنا تراقب الطريق إلى بغداد، لم تكن معركة، كانت مذبحة، هربت أنا إلى النهر مع آخرين، ثم عدت لأبحث عنه بين الجثث، لم أجده، لكن هناك من رآه وهو يُذبح بيد التتار.

قال آخرون إنهم رأوه وهو يهرب، وعندما عدت إلى دمشق، وجدت أخباره تسبقني هناك، قيل لي إن هناك من رآه يصلي في مسجد صغير في دمشق، وآخرون قالوا إنه يجمع الجند من عرب البادية، وقيل أيضا إنهم يرون وجهه على القمر.. سألتهم إن كانوا قد رأوه أصلاً لكي يعرفوا أن هذا وجهه.. فقالوا: وجه من يكون إذن؟

كنت واثقاً أنه قد لقي حتفه.. رحمه الله.

وإنا لله وإنا إليه راجعون، له الأمر من قبل ومن بعد، وتلك الأيام يداولها بين الناس.

ولقب المستنصر بالله، أبا القاسم أحمد ابن الظاهر بالله محمد، وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة، واهتم الملك الظاهر بيبرس بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم له عسكراً، وغرم على تجهيزه جملاً طائلة. قيل إن قدر ما غرمه عليه ألف ألف دينار.... وبرز الملك الظاهر والخليفة المذكور في رمضان من هذه السنة، وتوجها إلى دمشق، وكان في كل منزلة يمضي الملك الظاهر الى دهليزه الخاص به، ولما وصلا إلى دمشق، نزل الملك الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة في جبل الصالحية، ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده.

ثم جهز الخليفة عسكره إلى جهة بغداد، طمعاً في أنه يستولي على بغداد، ويجتمع عليه الناس، فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق، وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الأمور، ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة، ثم سار إلى الديار المصرية ودخلها في سابع عشر ذي الحجة من هذه السنة، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية، أنه قد استولى على عانة والحديثة، وولى عليهما، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، ثم قبل، أن يصل إلى بغداد، وصلت إليه التتر وقتلوا الخليفة المذكور، وقتلوا غالب أصحابه، ونهبوا ما كان معه وجاءت الأخبار بذلك.

المختصر من أخبار البشر (3 - 213)

ثم إن المستنصر هذا عزم على التوجه إلى العراق، فخرج معه السلطان يشيعه إلى أن دخلوا دمشق، ثم جهز السلطان الخليفة وأولاد صاحب الموصل، وغرم عليه وعليهم من الذهب ألف ألف دينار وستين درهم، فسار الخليفة ومعه ملوك الشرق وصاحب سنجار، فاجتمع به الخليفة الحلبي الحاكم، ودان له، ودخل تحت طاعته، ثم سار ففتح الحديثة، ثم هيت، فجاءه عسكر من التتار، فتصافوا له، فقتل من المسلمين جماعة، وعدم الخليفة المستنصر، فقيل: قتل وهو الظاهر، وقيل: سلم وهرب فأضمرته البلاد، وذلك في الثالث من المحرم.

(تاريخ الخلفاء 336)

مريم 11

فجراً بدأت أستوعب ما حدث.

لأربعة أيام، فهمت أنها كانت كالوقت الضائع في مباراة فاصلة، تعرفت على جدي وعمي، اقتربت منهما، أحببتهما، واستيقظت في داخلي ذكريات نائمة كنت أجهل وجودها في رأسي، أول مرة في حياتي أرى أبي في الحلم. أراه ليس كما في الصور، بل أراه كما كان في ذهني، كما لو أنه استيقظ تواً من خلايا نائمة في دماغي.

وفجأة، كمن يستيقظ من الحلم، أجد جدي قد مات وأنا أسند رأسي عليه.

في لحظة، الحلم يصبح كابوساً.

لم يكن لديَّ ما أقوله، حتى لنفسي. كنت عاجزة عن فهم ما حدث. لماذا هذا التوقيت؟ لقد قال لي إنه سيرى أبي، وسألني إن كان هناك ما أريد قوله. لم يفعل هذا طيلة الأيام السابقة؟ هل هذه صدفة؟ هل هناك صدفة كهذه في العالم كله؟

دخلت الغرفة في الفندق وأنا أريد أن أصرخ، أن أحطم شيئاً، لم أعرف كم أفتقد وجود الأب في حياتي إلا في هذه الأيام الأربعة، كنت في حالة إنكار لهذا، أنا مكتفية بأمي، لا نحتاج لأحد. ثم فجأة، ألتقي بعمي وجدي لأكتشف من خلالهما أن في داخلي ثقباً هائلاً لا يملؤه إلا أب.

والآن عليَّ أن أعيش وهذا الثقب الهائل فارغ، على الأقل كنت سابقاً لا أعرف بوجوده.

لم أعرف ماذا أفعل. كانت أمي مع خالي لإجراءات الوفاة وكانت تتصل بي كل نصف ساعة تقريباً لتطمئن عليَّ، من الواضح أن عمي سعد هو الذي

يتوجه له الجميع بالمواساة والدعم. لم أخبر أمي بعد بحواري الأخير مع جدي.

حاولت النوم وفشلت، قررت أن أذهب إلى المسجد النبوي الذي لم نكن قد دخلناه بعد، كان الفندق قريباً جداً، بضع دقائق مشي فقط، الساعة تجاوزت منتصف الليل، وجدت زحاماً في مصلى النساء، فوقفت مع الواقفات، دفعني الزحام إلى وسطه، لم أفهم بالضبط لم التزاحم، ثم وجدت أن هناك مرشدة على الباب تشرح للنساء ما يجب عليهن عمله، تعيد الشرح بالعربية والإنجليزية وبالأوردو. كنا مصطفات على «الروضة» - لم أكن أعرف ماذا يعني ذلك - لكن فهمت أنها كانت المسافة بين حجرة النبي ومنبر المسجد - وأنها تعتبر «جزءاً من الجنة»، دخلت الروضة مع مجموعة من السيدات اللاتي انتظرن معي، عرفت من لهجتهن أنهن مصريات، فجأة علت أصواتهن بالزغاريد، كان ذلك مربكاً وحميمياً في الوقت نفسه، وجدت الزحام على شباك مذهب، عرفت فوراً أنه قبر النبي، وجدت نفسي أذهب إليه، كانت المرشدات يمنعن أي أحد من الاقتراب الزائد أو الإمساك بالإطار، وقفت للحظات هناك وأنا أحاول أن أجد شيئاً أقوله، كانت المرشدة تقول بصوت مرتفع أن نسلم عليه وعلى «صاحبيه» فقط، ممنوع الاستغاثة أو التوسل، كنت أحتاج الغوث ولكن ليس عن طريق الاستغاثة، كنت أحتاج أن أشكو له، شعرت فجأة بأني أشم عطر جدي في المكان، العطر 4711 يعبئ الهواء في الروضة. التفتُّ أبحث عن مصدر العطر فلم أعرف، لكني شعرت أن العطر صادر من القبر، ربما كنت واهمة، ربما كانت حواسي غير قادرة على التمييز بسبب كل ما مررت به اليوم، لكن هذا الإحساس بوجود العطر أرجعني إلى شعوري الحميم على كتف جدي. شعرت براحة غريبة بعد ذلك. كما لو أن جدي لم يمت. أو كما لو أني صرت أعرف طريقة للتواصل معه.

أخرجني الزحام من الروضة كما أدخلني إليها، بقيت في المسجد إلى أن أُذِن لصلاة الفجر. اتصلت أمي وقالت لي إنها ستأتي بعد قليل وإن جدي سيُصلى عليه بعد صلاة الفجر ويدفن في مقبرة قريبة خلف المسجد، قلت لها

إني يجب أن أحضر، فردت بأن هذا الأمر مستحيل هنا، النساء لا يحضرن الدفن.

بدأت في التذمر من التمييز الجنسي ضد النساء، فتحدثت معي بكلمات عراقية لا أعرف معناها بالضبط، تستعملها في أقصى حالات الغضب، وأفهم منها أن عليَّ أن أخرس.

عندما بدأ الإمام في القراءة، زال عندي أي شعور بالتمييز الجنسي.

من بين كل سور القرآن، اختار الإمام في فجر ذلك اليوم «سورة مريم».

* * *

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

هذه المرة سمعتها بشكل مختلف. ليس فقط لأن الإمام كان يمتلك صوتاً حزيناً بالغ الشفافية. ولا لأن وضعي النفسي كان مختلفاً، ولكن لأن طريقة رؤيتي للأشياء تغيرت. بدا كما لو أني أرى كل شيء على نحو مختلف.

مرت عليَّ سورة مريم من قبل، غالباً لأن اسمي مريم، مثل اسم السورة. لكن هذه كانت أول مرة أشعر أن السورة تعبر عن المعاناة الإنسانية التي مرت بها أمي، شعرت أن السورة تعبر عني أيضاً، مريم التي تريد أن تثبت نفسها للآخرين، التي تريد أن تنجح بالرغم عنهم وعن تصوراتهم المسبقة عنها، شعرت أن كل امرأة في العالم يمكن أن تعبر عنها هذه الآيات، على الأقل في مرحلة من مراحل حياتها.

كنت أبكي. لا أعرف لماذا. هل كنت أبكي جدي أم أبكي السيدة العذراء أم أبكي أبي أم أبكي نفسي.

أم كنت أبكي لأني أتعرف على نفسي من جديد. أرى نفسي من جديد لأول مرة. كانت أربعة أيام لم تعرفني على أهل أبي فقط، بل على جزء آخر من نفسي لم أكن أعرفه. على مشاعر داخلي لم تكن لدي أدنى فكرة عن وجودها.

ربما كنت أبكي فرحاً لأني وجدت نفسي، كما لو أني وجدت حضن أبي، أو حضن جدي.

كنت في دوامة مشاعر مضطرمة، لكني كنت واثقة من شيء واحد: لديَّ الكثير مما يستحق أن أتمسك به. الكثير مما يمكن أن يمنحني القوة.

بعد نهاية الصلاة قال الإمام: الصلاة على الميت..

كان الميت هو جدي.

* * *

عندما وجدت أمي خارج المسجد احتضنتها كما لو أني لم أشاهدها منذ أسابيع. كانت عيناها منتفختين من الدموع.

سألتها بلا مقدمات: كيف اخترتم اسم «مريم» لي؟

بدت متفاجئة بالسؤال ولكنها قالت: فتحنا القرآن عشوائياً فجاءت سورة مريم. كنت أريد أن أسميك «روان» وكان أبوك يريد أن يسميك «هبة».. عندما جاءت «الخيرة» باسم «مريم» اقتنعنا فوراً نحن الاثنان.

كنت سعيدة بهذا الآن.

انتبهت عندما خرجت إلى أني دخلت المسجد النبوي دون أن أركز في تصميمه.. لأول مرة أدخل إلى مكان دون أن أنتبه إلى عمارته وأدقق فيها، كما لو أني كنت منشغلة هذه المرة بالعمارة من الداخل. ببنائي الداخلي. تأملت الأقواس والأعمدة الأنيقة. أحسست بحاسة النقد المعماري عندي مسترخية، مستعدة للاستسلام دون قيد أو شرط، أطلقت حواس استشعار الجمال، للمرة الأولى أفهم حقاً كيف أن العمارة تحتوي القيم وتعبر عنها. للمرة الأولى أفهم أن الإسلام ليس «هوية معمارية» أضيفها إلى تصاميمي كي أتميز بها عن زملائي، بل هو هذا السلام الداخلي الذي استشعرته للحظات ضوئية يمكنني أن أحملها بقية عمري، هذا الصلح داخل نفسي، مع نفسي، الذي شعرت فيه بعدما عشت عمري في فصام مستمر.

«كيف هو عمي؟» سألتها.

«الله يعينه. لا يزال (صوابه حار)[1]، لا أعتقد أنه قد استوعب الأمر بعد».

«سيدفنون جدك بعد قليل، تعالي نجلس ندعو له بالثبات عند السؤال، وندعو لعمك أيضاً.. لعله يحتاج الدعاء أكثر».

---

(١) الصواب الحار: تمالك النفس عند حصول صدمة.

سعد 12

أن تضع شخصاً تحبه في حفرة تحت الأرض.

أول مرة وضعت عمر.

ثاني مرة وضعت أمي.

واليوم أضع أبي.

لا شيء يجعلنا نتعود على الأمر. لا شيء يجعل مشاعرنا تتبلد، تتأقلم مع حفرة تضع فيها حبيباً لك.

مهما كررناه، التجربة لن تخفف من وطأته، سيبقى الأمر مرعباً. مروعاً. موحشاً.

لم يكن نور النهار قد انشق بعد، عندما حملنا أبي لدفنه.

لم يكن عددنا كبيراً، أنا وحيدر والحجي ثامر ومعارف له، لم يتجاوز عددنا عشرة. لكنه كان أكثر من كافٍ، كان أبي خفيفاً، هيناً، ليناً. على الأقل هكذا انتهت به الأمور.

جاء أحد الوعاظ وقال شيئاً عن موعظة الموت. ثم قيل لي أن أنزل إلى الحفرة قبل أبي لأتسلمه عندما ينزلونه. نزلت، وتسلمته بكلتا يدي. قيل لي أن أضعه في اللحد، جانب الحفرة، قبل أن أفعل أدركت أن هذه هي آخر مرة سيمكنني أن أحتضنه فيها في الدنيا، فاحتضنته بشدة، بشدة، بشدة.

ثم وضعته في اللحد. ووضعت الحجر عليه. خرجت من الحفرة وأنا أذكر كل ما كنت أحرص على توفيره له من خدمات بأرقى ما يمكن مهما كانت كلفتها. الآن ينتهي الأمر بحفرة، وأحجار. من محلة نجيب باشا وشارع الأميرات وساندهرست ورتبة اللواء وشهادة الدكتوراه، إلى حفرة.

«الله وياك يابه» هكذا قلت، ودعته كمسافر في درب هجرة. الله وياك يابه.

وعندما بدأنا نهيل التراب عليه، ولم أعد أرى الكفن الذي يحويه، أدركت لأول مرة هول ما حدث. لقد أصبحت وحيداً. وحيداً تماماً. منذ أن غادرتني سوسن، وأبي هو كل ما أملك. ليس لديَّ شيء يشغلني في حياتي غير الاعتناء به. كل يومي من الصباح إلى المساء يدور حوله وحول رعايته.

الآن، أنا وحيد. وحيد تماماً.

هذا العالم صار ضيقاً مثل قبر، لكنه ليس قبر أبي.

فكرت أني بحاجة إلى سوسن. تمنيت لو كان بإمكاني الإتصال بها. اتصال واحد فقط. وحدها كانت قادرة على احتوائي وتهدئتي. كانت معي في كل ما مررت به. قوتني ودعمتني في كل شيء. لكنها رحلت. الله يوفقها ولا يريها مكروهاً في أولادها.

أنا وحيد. وحيد تماماً.

* * *

صباحاً جاءت مريم إلى غرفتي. تبعتها ميادة، ثم جاء حيدر.

حاولت ميادة دعمي ومواساتي: كان «رجلاً كبير السن، وارتاح» كما يقال عادة عندما يموت شخص متقدم في العمر. تركت ميادة وحيدر يقولان ما شاءا من كلمات العزاء.

ثم قررت أن أكون صريحاً على نحو فج. ربما تأثير الحبة لا يزال فعالاً حتى الآن.

قلت: لست حزيناً على أبي. عاش حياة جيدة، وأنعم الله عليه بنعمة جعلته ينسى موت عمر أو ما حدث له. ومات ميتة يقول الحجي ثامر إنه «ينحسد»

عليها.. لست حزيناً عليه كثيراً، حزين لفراقه نعم، حزين لأني لن أراه لوقت طويل على الأقل.

قلت بصراحة إني حزين أكثر على نفسي، لم يعد لديَّ ما أفعله. أصبحت وحيداً. وحيداً تماماً. أبكي على نفسي لأني سأعود وحيداً إلى بغداد، ولن أجده هناك لأرعاه وأحممه وأقلم أظافره.

هزت ميادة رأسها بتفهم وقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله. أحسست أنها تفهم ما أقصد.

قال لي حيدر: لكن ضميرك مرتاح يا سعد، اعتنيت بأبيك بأفضل شكل ممكن، فعلت كل ما بوسعك وأكثر، لا تقلل من أهمية هذا. غيرك يعيش عمره نادماً لأنه لم يفعل.

فكرت مع نفسي: هل ضميري مرتاح حقاً؟ فعلت كل ما بوسعي نعم. لكن هل سيعوض ذلك عن الفترات التي كنت جاحداً فيها. لا أعرف.

قالت لي ميادة: الحياة تستمر يا سعد وأنت تعرف ذلك، تستطيع أن تتزوج وتبدأ حياة جديدة.

ضحكت بمرارة: أتزوج؟ الآن؟ لماذا؟

قالت لي: الزواج ليس فقط للإنجاب.. الزواج رفقة يا سعد، أنت تحتاج إلى رفقة، ونَس أليف.. عليك أن تفكر بهذا فعلاً..

قالت لي مريم: لن أتركك. يجب أن تأتي إلينا. وسآتي أنا أيضاً إلى بغداد.

قبلت يدها وقلت: إن شاء الله.

ثم قلت لميادة: يبدو أن الأمور ستسير أسرع مما توقعنا بخصوص ما تحدثنا عنه، أحتاج أن تقوم مريم بعمل وكالة عامة لي من السفارة في لندن، سأبدأ بعمل القسام فور تصديق شهادة الوفاة.. مريم الآن تجاوزت الثامنة عشرة، لذا الإجراءات أسهل.

نظرت مريم إلى شهادة الوفاة ثم سألتني: هو مواليد 1930؟ كان يقترب من التسعين إذن.

قلت لها: نعم 30 حزيران 1930، نفس يوم توقيع معاهدة استقلال العراق عن بريطانيا.

ثم قالت: أحمد عبد الرحمن بكر آغا؟ تصورت أن جدي اسمه مركب.

قلت: لا، اسمه احمد واسم أبيه عبد الرحمن. من أين جاءك هذا التصور؟

قالت: أكثر من مرة كنت معه في الجناح ويأتي عامل الخدمة المنزلية، ويوقع جدي على الفاتورة باسم «أحمد المستنصر بالله»، فتصورت أن هذا هو اسمه وأنه مركب.

سألتها: «أحمد المستنصر بالله»! فعلاً؟ وقَّع بهذا الاسم؟! منذ فترة لم يتحدث عنه.

عن من؟ سألت مريم.

«أبي كان مهتماً جداً بشخصية وسيرة أحمد المستنصر بالله وهو أحد أمراء العباسيين، وكان قد نجا من مذبحة التتار.. هو عم الخليفة المستعصم الذي قتله المغول عندما احتلوا بغداد، كان سجيناً وعندما هاجم التتار بغداد وقتلوا أغلب بني العباس.. فر من السجن وطالب بالخلافة».

«مثل ابنة القيصر أنستازيا رومانوف؟» سألت مريم.

ذكية هي مريم. تذكرت العقد الذي جلبته معي لها. كانت أيضاً قد علقت ضاحكة أنه يمكن أن يكون لأنستازيا رومانوف. تذكرت أن بيت «شارع الأميرات» بكل ما يحمله اسم الشارع من معنى يرتبط أيضاً بطريقة ما بأنستازيا وبالمستنصر بالله..

هل هذا هو ما نورثه لها حقاً؟ البحث عن المجد الضائع والحنين إلى الماضي.

قلت: تقريباً، بفارق أنهم اعترفوا به وبايعوه كخليفة للمسلمين في مصر، لكنه قتل على يد التتار عندما حاول استعادة بغداد، كان والدي مهتماً جداً بهذه الفترة، وكان يقول إن هذه الشخصية وظروفها كانت آسرة، وعندما بدأ الألزهايمر يزيد عنده بدأ يتحدث أحياناً كما لو أنه هو أحمد المستنصر بالله. لا بد أنه نوع معين من الألزهايمر.

سكت الجميع وهم يحاولون استيعاب ما قلت.

سألت مريم: لماذا كان مهتماً تحديداً بهذا الشخص؟

قلت: ربما كلاهما كانا يبحثان عن زمن ضائع، عن بغداد أخرى يعتقدان أنهما يمكن أن يستعيداها دون تغيير.. أبي كان يريد في أعماق لا وعيه أن يرجع كل شيء كما كان، قبل أن يُحال إلى التقاعد، عمر موجود وأمي موجودة وكل شيء بخير، لم يفقد أحد بعد.. بغداد كما كانت من قبل، وشارع الأميرات كما كان من قبل.. وأحمد المستنصر بالله كان يريد أن ترجع الخلافة العباسية إلى سابق مجدها، رغم أن تدهورها كان تدريجياً واستمر لقرون.. لكنه كان يعتقد أنه بإمكانه أن يُرجع عقارب الساعة إلى الوراء.

فكرت مع نفسي: ربما كان أبي يرى أن أحمد المستنصر بالله يمثل الكثيرين منا، التمسك بالمجد الضائع والتصور أن بإمكاننا تحويل عجلة الزمن للخلف. الكثيرون منا يعيشون في الماضي ويعتقدون أنهم يستطيعون أن يسحبوه إلى الحاضر.

وربما كنت أنا أيضاً مثل هذا الأحمد المستنصر بالله. فاشل وعقيم ولن يبقى لي ذكر. لست سوى محاولة فاشلة لن يذكرها أحد.

وقفت أمام النافذة: كانت قباب المسجد النبوي الخضراء تعكس ضوء الشمس بحيث إن خضارها بدا غامقاً ومختلفاً. ذكرني اللون بعيني عمر اللتين لم تدفنا معه.. وبلون الماسة التي في العقد.. وقادني هذا إلى مريم. مريم هي كل ما سيبقى من نسل أبي. تقليدياً هذا لا يحتسب. النسل يحسب

بالذكور فقط. لكن، الزمن تغير، ربما عليَّ أن أتقبل هذا، مريم يمكنها أن تفعل ذلك. تبدو مريم بعشرة ذكور.

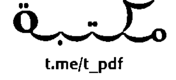
قلت لمريم: تحملين إرثاً ثقيلاً، أعانك الله.

لا أعرف إن كانت فهمت. لكنها ابتسمت لي، وابتسمت معها عيناها.. كان هذا كافياً جداً لي.

ثم تذكرت: بالمناسبة، تذكرون القصيدة التي كان يكتبها والدي؟ بحثت عنها في الإنترنت وتبين أنها ليست قصيدة غزلية، بل هي قصيدة عن بغداد نظمت في نفس الفترة، بعد نهاية العصر العباسي، الشوق هو لبغداد التي خربها التتار.. ولناسها الذين قتلوا والذين فروا..

يا الله.. قالت ميادة: ما اسم الشاعر؟

قلت: اسمه شمس الدين الكوفي.



مطار جدة 31 ديسمبر 2018

الحجي ثامر يولول ويقول إن هذه أسوأ حملة قام بها في حياته، وإنه سيعتزل تنظيم حملات الحج والعمرة ويفتتح سوبر ماركت في شارع الربيع و«يريح رأسه». المعتمرون حوله يتدافعون بين مؤيد لقراره وبين حزين لتركه المهنة.. «مع من سنذهب للعمرة حجي؟» وبين من يقول له إن شارع الربيع أصبح مزدحماً جداً بمحلات السوبر ماركت وأن من الأفضل أن يفتتحه في شوارع فرعية.

سبب انهيار الحجي ثامر وقرار اعتزاله كان ظهور إشارة «تأخير» على إقلاع الطائرة المتوجهة إلى بغداد. لم يفكر في الاعتزال مع انتحار شخص من المعتمرين، ولا مع وفاة آخر. حملته تعود ناقصة «شخصين»، لكن تأخير إقلاع الطائرة هو ما يزعجه.

قال الحجي ثامر: والله العظيم، لولا أن طيارينا لا يوجد بكفاءتهم، لتعاقدتُ مع خطوط جوية أخرى تريحنا من مآسي التأخير، لكن ماذا نفعل؟ كل الطيارين الآخرين لا يعرفون كيف يهبطون بالطائرة مثل الطيار العراقي.

علت عبارات التأييد من المعتمرين حول الحجي ثامر. لا يوجد في العالم كله طيارون بكفاءة الطيارين العراقيين.

قال سعد لميادة: عبارتان يتفق عليهما كل العراقيين سنة وشيعة، الأولى هي هذه، لا يوجد طيار بكفاءة الطيار العراقي، ونحن مقتنعون بهذا تماماً ونصفق للطيار في كل هبوط كما لو أنه قد هبط على القمر، وقد يردد هذا من لم يجرب أي طيار من جنسية أخرى أو حتى من لم يركب طائرة بحياته.

سألته ميادة: والثانية؟

خفض سعد صوته وقال لها: عندما يجتمع عراقيون ويتعرفون على بعضهم لأول مرة، ويكتشف كل جزء منهم أن الآخر من الفئة الثانية، يحرص الجميع على تأكيد أنه لا فرق بين سنة وشيعة، ثم يسألون» بس لو نعرف من وين اجت هالطائفية». تأكل وتشرب معهم منذ قرون، وبعدين يسألون هذا السؤال الخالد.

ضحكت ميادة بصوت حاولت التحكم به. قالت: صحيح يا سعد، لكنها كانت تأكل وتشرب معهم دون أن تقتل. هذا هو الفرق.

هز سعد رأسه موافقاً. أكل وشرب بلا قتل، لكنها موجودة.

قالت ميادة: تعرف أن الحجي ثامر شخصية ظريفة، عراقي بغدادي جداً، بكل انفعالاته الطالعة والنازلة سريعاً. أكثر من شخص من أقاربنا في الكرادة يشبهونه جداً، منذ زمن لم أتعامل مع أشخاص يشبهونه. عراقيو بريطانيا مختلفون، أو على الأقل من اختلطتُ أنا بهم.

ابتسم سعد وهو ينظر للحجي ثامر وقال: صحيح، «كلاسيك»، شخصية تكاد تنقرض حتى في بغداد، وليس بين عراقيي بريطانيا فحسب.

قالت ميادة: نعم، للأسف.

نظر سعد إلى الأرض وقال: كل شيء يتغير يا ميادة. بغداد تتغير، ناسها يتغيرون، لهجة الناس فيها تتغير، تختفي كلمات ومصطلحات وتظهر كلمات جديدة، تختفي عوائل وطبقات وتحل محلها أخرى.. نصر نحن على التمسك بصورة واحدة عن بغداد وناسها وشوارعها، ونقول إنها انتهت، لكن ما ينتهي حقاً هو ما عرفناه منها، تذهب بغداد التي عرفناها وتأتي واحدة أخرى، يألفها ويحبها ويكبر فيها ناس آخرون وتكون هي بغداد التي يعرفونها.

هزت ميادة رأسها بأسف: صعب أن أستوعب ذلك. لكن يبدو أن هذا هو الواقع.

قال سعد: لقد أحببنا بغداد ربما أكثر مما أحبتنا.. كل العلاقات من هذا النوع تنتهي هكذا..

نظرت ميادة إلى سعد: معك حق بالفعل يا سعد.. أحياناً يخيل لي أنها لم تحبني أبداً..

رد سعد: لا. هي مثل فتاة جميلة، عشاقها كثيرون، ونادراً ما تكترث هي أصلاً لأحد..

جاءت مريم من بعيد وهي تحمل صينية فيها أربعة أكواب قهوة.

نظرت ميادة لها وعلى وجهها مزيج من الخوف والامتنان: (هذه هي اللي طلعت بيها من الدنيا).

نظر لها سعد ثم التفت لميادة: تصدقين؟ أنا أيضاً. ليس عندي غير مريم..

ثم قال بصوت منخفض كما لو كان يحدث نفسه: ولا أعرف إن كان يمكن أن أقول إني طلعت بها من الدنيا.

جلست مريم بالقرب من سعد وقالت لأمها: سأزيل غطاء الرأس الآن، الكثيرات هنا لا يلبسنه.

ردت ميادة: براحتك، أنا سأبقيه..

نظر لميادة كلٌّ من سعد ومريم، كانت في عيني سعد فرحة وفي عيني مريم قلق، فأكملت ميادة: حالياً.

نظرت مريم لعمها وهي تزيح غطاء الرأس وتضعه في حقيبتها، وقالت له بلهجة بين الجدية والمزح: ماذا؟ هل ستلقي عليَّ محاضرة عن النار التي تنتظرني إن خلعته؟ هذه حرية شخصية!

رفع سعد يديه متعجباً: أنا؟ لم أفتح فمي!

قالت مريم: أوكي، جيد. احتياطاً فقط أحببت أن أذكرك أنها حرية شخصية وأني لست مقتنعة بما تريد أن تقوله.

التفت سعد لميادة: ميادة! النجدة! بنتك أخذتني «حاصل فاصل»[1].. لديها فكرة خاطئة عني.

ردت ميادة ضاحكة: متأكد أن فكرتها خاطئة؟! لقد «تغدت» بيك قبل أن تتعشى بها!

* * *

أتى حيدر وهو يحمل أكياساً اشتراها من السوق الحرة.

سألته ميادة: لمن؟

قال وهو يجلس ويضع الأكياس: من يعني؟ سارة وأميلي وأمي.

هبت ميادة من مقعدها: ذكرتني! أوصتني أمي على هدايا لجمانة وبناتها.. ستبطش بي إن نسيت.

يعترض حيدر: هل أنتِ متأكدة أنك تريدين الذهاب للتسوق الآن؟ حسب معرفتي بكِ سنصل لندن قبل أن تكملي جولتك الأولى التي لم تقرري بعد ما ستشترين فيها.

أسكتته ميادة: طيارة تفوت ولا سعاد الدباغ تقتلني.. ولكن سأتسوق «جفيان شر»[2] وأتحمل تأنيب أمي لاحقاً.

* * *

عادت ميادة ومعها أكياسها وعلى وجهها علامة انتصار: أرأيتم؟ تسوقت قبل أن يحين موعد «البوردنغ».

كانت مريم قد أخذت مقعد ميادة بجانب سعد ووضع سعد ذراعه حولها ومالت عليه. كانا يعرفان معاً أنه عناقهما الأخير، لذا فقد تمسك كل منهما بالآخر مثل طفلين على وشك الفراق.

---

(١) حاصل فاصل: من كل الجهات.

(٢) جفيان شر: كيفما اتفق، فقط لتجنب شر عدم فعل أمر ما.

جلست ميادة بجانب حيدر ومالت عليه: العشرة أيام التي صبرت فيها بدون «السم والزهر[1]» انتهت. هل ستشرب فور ركوبنا الطائرة أم بعد أن نخرج من أجواء السعودية؟

رد حيدر بحزم: لا، لن أشرب.

نظرت له ميادة بشك: إلى أن نصل ميدلزبره؟

قال: ميادة لا تلحين. هذا شيء بيني وبين ربي. لا «تنبصين[2]» في كل شيء.

«قادر يا الله». قالت ميادة وهي لا تخفي شماتتها.

* * *

وصلت رسالة على الواتس لسعد، فتحها وابتسم.

يا جماعة هل تعرفون أن الليلة ليلة رأس السنة؟ لقد نسيت تماماً. سنة سعيدة للجميع.

قالت ميادة لسعد: للجميع.. هل هذه رسالة من خلدون؟

رد سعد: نعم.. وأرسل لي أغنية آبا «Happy new year» ومعها كلماتها.

قالت ميادة: سلم لي عليه.. إن كان يذكرني، قل له الحشوة التي عملها لي قبل أكثر من عشرين عاماً لا تزال صامدة، «عاشت إيده»، هذه الحشوة من عمر مريم.

كتب سعد شيئاً ثم انتظر لحظات قبل أن يضحك بشدة.

ما الذي يضحكك أستاذ سعد؟ قالت ميادة وهي تحدس أن الكلام بين سعد وخلدون عنها.

---

(١) السم والسم المر، وأصل كلمة زَهر بهذا المعنى هندية.

(٢) لا تحشري نفسك.

قال سعد: يذكرك طبعاً، يقول إنك كنت تقرئين «القرآن كله» قبل كل حقنة بنج.. وكنت تخافين جداً لدرجة أن هذه الحشوة استغرقت عدة أشهر إلى أن انتهى العمل فيها من كثرة تأجيلك للمواعيد.

ضحكت ميادة وهي تقول: صحيح، كنا مدللين.. الله يرحم..

سكت سعد ووضع سماعة في أذنيه قليلاً.

قال: لم أنتبه من قبل أن كلمات هذه الأغنية حزينة هكذا..

«Happy New Year، حزينة؟ كيف؟»

أخذت ميادة السماعة ووضعتها في أذنيها.

انتهت الحفلة، نشعر بالحزن والضياع..

والنهار يبدو رمادياً.. لا شيء يشبه ليلة الأمس..

ربما الآن هو الوقت الذي يجب أن نتبادل الأمنيات..

سنة سعيدة جديدة..

عسى أن نرى ما نحلم به.. عالم يكون الكل فيه أصدقاء..

عسى أن نحتفظ بآمالنا وإرادتنا لكي نحاول..

عدا ذلك، فإننا سنستسلم وسنموت.

أحياناً أعتقد أن هذا العالم لن يأتي إلا بعد أن نكون قد ذهبنا..

لعلنا مجرد حمقى، نعتقد أن الأمور ستكون على ما يرام..

نسير على غير هدى..

ولا نعرف أننا قد ضللنا الطريق..

لكننا نواصل السير، على أي حال..

كل ما امتلكناه من أحلام ذات يوم تبدو ميتة الآن،

مثل زينة ملقاة على الأرض في نهاية الاحتفال..

سنة سعيدة جديدة.. سنة سعيدة جديدة..

عسى أن نرى ذات يوم عالم يكون الكل فيه أصدقاء..

أخرجت ميادة السماعة من أذنيها وقالت: بالفعل، حزينة جداً، لم أنتبه لهذا من قبل، كنا نضع هذه الأغنية ونحن صغار ليلة رأس السنة، لقد خدعونا!

قال سعد: حسب ABBA، أستطيع أن أقول Happy new year بضمير مرتاح.

قالت ميادة: نعم.. أجمعين.

* * *

مالت مريم على أمها وهمست: «أقول لكِ شيئاً ولكن عديني أن لا تصرخي».

«على حسب. قولي».

«والله عندما رأيتكِ تتحدثين أنتِ وعمي من بعيد، قلت إنكما مناسبان لبعضكما جداً».

نظرت ميادة نظرة استنكار: أنت قلتها. من بعيد. فقط من بعيد نبدو كذلك.

قالت مريم: أمي أنا جادة. لم لا؟

نظرت ميادة لسعد بطرف عينيها وقالت بهمس: أصبحنا صديقين الآن، لماذا أخسره؟ لو تزوجته سأخسر صداقته! مجرد التفكير فيه كزوج سيجعلني أخسره. لا داعي لهذا.

«هل تقولين الآن إن الزواج يفسد الصداقة؟ حذار. سأستخدم هذه المقولة عندما تحاولين أن تقنعيني بعريس».

أشارت ميادة بيدها: بسسسس!

* * *

طائرة لندن لم تخلف موعدها. أعلنت الخطوط الجوية البريطانية عن توجه رحلتها إلى لندن وطلبت من الركاب التوجه إلى البوابة رقم 4.

إنه الوداع إذن.

احتضن سعد مريم وهو يقول لها إنه سعيد لتأخر طائرة بغداد. أصبح لديه وقتاً إضافياً معها.

لا ترد مريم إلا بالمزيد من الاحتضان. احتضان من يتمسك بشيء لا يريد أن يفلته.

عندما تزيح وجهها عن صدره تقول دموعها كل شيء.

يحتضن حيدر سعداً، لقد اكتشفا في هذه الأيام العشرة الكثير مما يمكن أن يحتضنه كل منهما في الآخر.

يقف سعد أمام ميادة متردداً، ثم يقترب منها ويقبل رأسها.

تستحقين كل خير ميادة، والنعم من تربيتك لمريم.. همس لها ولم يكن متأكداً أنها سمعته.

بعد لحظات غابوا جميعاً في زحام المسافرين.

بقي سعد في مكانه ساكناً، كما لو أنه شيء نسوه خلفهم، وبقي في مكانه على أمل أن يأتوا مجدداً ليأخذوه.

يسمع الحجي ثامر يتحدث بصوت مرتفع: سيكون لدينا بإذن واحد أحد ثلاث رحلات قبل الصيف، اثنتان في شباط وواحدة في آذار.

قبل قليل كان يريد أن يفتتح سوبر ماركت ويعتزل، والآن يروج لسفرة عمرة جديدة.

هل من أخبار عن طيارة بغداد حجي؟ سأله سعد.

لا والله، تعرف أن الأمور عندنا تسير على البركة، إن شاء الله خلال ساعة ساعتين نعرف.

* * *

في الطائرة، وقبل أن تقلع، تختار مريم صورة وتضعها على الإنستغرام.

صورة سيلفي أمام الكعبة، الجميع بملابس الإحرام حول جدها بكرسي العجلة.

ميادة تبتسم بشدة كما لو أن أحداً يضحكها متعمداً، حيدر يحاول أن يظهر في الصورة فينحني وهو يحاول أن يبتسم فتبدو ابتسامته كتقلص في عضلات الوجه، مريم تمسك عصا السيلفي وتبدو كما لو أنها حريصة على الصورة أكثر من حرصها على الابتسام فيها، جدها يبدو مهيباً ومكسوراً في الوقت نفسه، مثل ملك في المنفى، وسعد لا ينظر إلى العدسة، بل إلى مريم، وفي عينيه حب الدنيا كله.

كتبت مريم معلقة على الصورة..

لا أملك كلمات لأصف هذه الرحلة، كان من المفترض أن أعمل فيها على مشروع تخرجي، لكن ما حدث فيها كان أهم بكثير من أي شهادة جامعية، لقد تعرفت فيها أكثر على أهلي، على عمي وجدي، على جذوري، على من أكون، على مجسات استشعار روحانية في داخلي لم أكن أعرف بوجودها.. لا شيء يمكن أن يصف هذه الرحلة، هذا الكريسماس في مكة كان لا يُنسى، لن يكون هناك أي كريسماس آخر في حياتي يمكن أن يضيف لي مثل هذا.. منذ الآن، حياتي ستقسم إلى مريم قبل الكريسماس في مكة، ومريم بعد الكريسماس في مكة..

جدي الحبيب، أيام فقط عرفتك بها، لكنها أيام ضوئية، تعادل سنوات طويلة بحسابات أخرى.. عطرك لا يفارقني.. أستنشقه في كل مكان.. وقد ابتعت منه بحيث يصلني عندما أكون في ميدلزبره.. لن أنساك..

ارقد بسلام.

مريم بكر آغا، بعد الكريسماس في مكة.

بدأت 19 / 2 / 2019

انتهت المسودة الأولى 19 / 4 / 2019

انتهى العمل عليها 30 / 7 / 2019

قصيدة شمس الدين الكوفي الحنفي الواعظ

في رثاء بغداد

عندي لأجل فراقكم آلام

فإلام أُعذل فيكم وأُلام؟

من كان مثلي للحبيب مفارقاً

لا تعذلوه فالكلام كِلام

نعم المساعد دمعي الجاري على

خدّي إلا أنه نمّام

ويذيب روحي نوح كل حمامة

فكأنما نوح الحمام حِمام

إن كنت مثلي للأحبة فاقداً

أو في فؤادك لوعة وغرام

قف في ديار الظاعنين ونادها

يا دار ما صنعت بك الأيام؟

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا

لم يبق فيك بشاشة تستام

يا دار أين الساكنون وأين ذا

ك البهاء وذلك الإعظام؟

يـا دار أيــن زمــان ربعــك مونقــاً

وشعارك الإجلال والإكرام

يـا دار مــذ أفلــت نجومــك عمنــا

والله مـن بعـد الضيـاء ظـلام

فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم

فقد الهدى وتزلزل الإسلام

فمتـى قبلـت مـن الأعـادي سـاكناً

بعـد الأحبـة لا سـقاك غمـام

يـا سـادتي أمـا الفـؤاد فشـيق

قلـق وأمـا أدمعـي فسـجام

والدار مذ عدمت جمال وجوهكم

لم يبـق في ذاك المقـام مقـام

لا حـظ فيهـا للعيـون وليـس لـل

أقـدام في عرصاتهـا إقـدام

وحياتكـم إنـي علـى عهـد الهـوى

بـاقٍ ولم يخفـر لـديَّ ذمـام

فدمـي حـلال إن أردت سـواكم

والعيـش بعدكـم علـيَّ حـرام

يـا غائبـين وفي الفـؤاد لبعدهـم

نـار لهـا بـين الضلـوع ضـرام

لا كتبكـم تأتـي ولا أخباركـم

تروى ولا تدنيكم الأحلام

نغصتم الدنيا عليَّ وكلما

جد النوى لعبت بي الأسقام

ولقيت من صرف الزمان وجوره

ما لم تخيله لي الأوهام

يا ليت شعري كيف حال أحبتي

وبأي أرض خيموا وأقاموا

مالي أنيس غير بيت قاله

صب رمته من الفراق سهام

والله ما اخترت الفراق وإنما

حكمت عليَّ بذلك الأيام



الشخصيات المعاصرة في الرواية خيالية. ميادة موجودة في نساء كثيرات، لكن شخصية ميادة الباقر خيالية، كذلك الأمر بالنسبة لمريم وسعد وأحمد عبد الرحمن بكر آغا وحيدر الباقر.

أحمد المستنصر بالله ابن الخليفة الظاهر شخصية حقيقية، كان حبيساً عند سقوط بغداد وتمكن من الهرب ووصل إلى مصر بعد سنوات وبويع هناك ثم قتل على يد التتار عندما حاول استعادة بغداد. تفاصيل هروبه غير معروفة، وما ورد في الرواية من تفاصيل مجرد خيال روائي. تفاصيل الأماكن والأحياء البغدادية صحيحة.

البطريرك مكيخا الثاني شخصية حقيقية وكان جاثليق (بطريرك) السريان في تلك الفترة، أرسله الخليفة المستعصم مع الوزير ابن العلقمي وسبط ابن الجوزي إلى هولاكو عندما رغب في التفاوض معه. لا نعرف إن كان قد ساعد الأمير أحمد المستنصر بالله، لكن نعلم أن أثرياء المسلمين قد ائتمنوا أموالهم عنده عند هجوم التتار.

شمس الدين الكوفي شخصية حقيقية، شاعر نكبة بغداد، بقي خطيباً واعظاً في وقت التتار وقد اشترى صبيان بني العباس الذين باعهم التتار وأعتقهم وتكفلهم. لا نعرف إن كان قد ساعد أحمد المستنصر في الهروب.

إسحاق شخصية خيالية.



عن الكاتب



أحمد خيري العمري، ولد في بغداد عام 1970م، طبيب أسنان وكاتب، له أكثر من أربعة عشر كتابا وعشرات المقالات بين الفكر والأدب، عرف بمنحاه التجديدي في الفكر الإسلامي وتأثيره على الشباب ، اختير من مركز أبحاث Global Influence السويسري كواحد من ضمن مائة اسم مؤثر في تشكيل الرأي العام في العالم العربي لعام 2017.

عن الرواية

أقرباء فرقتهم الحرب، السياسة، التاريخ والجغرافية، ثم جاءت فرصة للقاءٍ يَلمُّ الشَّمْلَ بعد سنوات الغربة والاغتراب...

الزمان: إجازة الكريسماس.

المكان: مكة، لغرض العمرة.

الأسماء هيَ هيَ ، الملامح تغيرت قليلاً أو كثيراً. لكنهم لم يعودوا نفس الأشخاص، أصبحوا أشخاصاً آخرين، مختلفين، لو أن كلا منهم التقى بنفسه قبل الفراق لأنكرها، فكيف سيكون اللقاء بالآخرين؟

هل يمكن لِلَمِّ الشمل أن يحدث حقا؟ أم أنه سيكون اللقاء الأخير الذي يتأكدون فيه أن لا جدوى من لقاء قادم، يتأكدون فيه من أن كل شيء انتهى..ومن الأفضل ختمه بختم النسيان...

هل ستكون تلك الرحلة مقدمة لرحلة ذهابٍ وإيّاب، أم أنها ستكون رحلة باتجاه واحد، لا يلتفت إلى ما مضى؟

الشيء المؤكد الوحيد هو أن تلك الإجازة في مكة، ستكون استثنائية جدا..

تصميم الغلاف: أحمد برزك





